الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

جامعة التحدي / كلية الآداب والتربية

قسم علم التفسير

# خطاب الليبرالية الجديدة (( مقاربة فلسفية – نقدية ))

دراسة مقدمة لاستيفاء متطلبات درجة التخصص العالي ( الماجستير )

في علم التفسير

إعداد الطالبة .

سالمة الجالي عبدالله محمد القنزاع

إشراف الدكتور . مقداد نديم عبود

للعام الجامعي 2007/2006 إفرنجي

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

# جامعـــــة التحـــــدي ـ ســـرت

## كلية الاداب والتربية

## قسـم التفسير

# خطاب الليبرالية الجديدة (( مقاربة فلسفية – نقدية ))

إعداد : - سالمة الجالي عبدالله محمد القنزاع

إعضاء لجنة المناقشة:

1- د/ مقداد نديم عبود

2- د/ عبدالكريم هلال خالد

3- د/ عبدالله الطاهر مسعود

التوقيع :

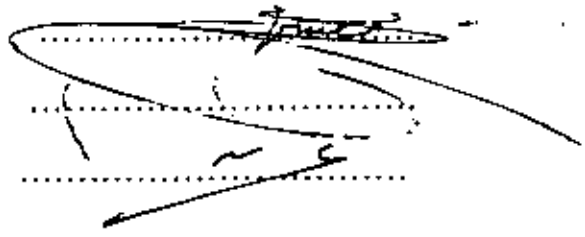

يعتمد :

أ. حمد أحمد الحاج

أمين اللجنة الشعبية لكلية الآداب والتربية

# الآية القرآنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ الآية (8) من سورة الأنفال

صدق الله العظيم

# الإهـــداء

أهدي هذا الجهد :

إلى روح أبي وأمي ...

إلى أخواني وأحبائي ...

# الشكر والتقدير

**أتقدم بالشكر والتقدير إلى كل من أساهم في تيسير دراستي**

واخص بالذكر الأستاذ الدكتور إبراهيم علي جبيل .

وإلى كافة الأخوة باللجنة الشعبية بجامعة التحدي .

وإلى الأخ أمين اللجنة الشعبية بكلية الطب البشري جامعة التحدي.

**وجزيل الشكر والعرفان للدكتور مقداد نديم عبود .**

**المشرف على أطروحتي .**

# المحتويات


**المقدمة** : ..... 7

**تمهيد** : ..... 17

**الفصل الأول :**

**الليبرالية القديمة « الكلاسيكية »** ..... 20

**المبحث الأول . المفاهيم** ..... 21

أصل المصطلح ..... 21

الليبـــــرالية ..... 23

إشكالية المعنى ..... 27

**المبحث الثاني . نشأة المذهب الليبرالي ومصادره** ..... 31

الليبرالية التقليدية ..... 31

الليبرالية و تطور الأوضاع الاقتصاديـــة ..... 46

عصر الأنوار وارتباطها بالخطاب الليبرالي..... 52

**المبحث الثالث . تطور الفكر الليبرالي** ..... 57

مرحلة الحداثة وظهور الليبرالية ..... 57

**الفصل الثاني :**

**الليبرالية الجديدة – الأسس الفلسفية و الإيديولوجية** ..... 65

**المبحث الأول . الليبرالية الجديدة – التشكل التاريخي** ..... 66

العولمة : فرصة الليبرالية الجديدة ..... 72

(( منطقية )) الخطاب الليبـــرالي..... 83

الليبرالية الجديدة والإنســـــان ..... 86

الليبرالية الجديدة والسياســـــة ..... 94

حرية سوق أم تغول الاقتصادي ..... 96

**المبحث الثاني . الليبرالية الجديدة الأزمة التكوينية** ..... 104

ثنائية كائن حق وكائن حـــي ..... 109

الأزمة على المستوى الفلسفي المعرفي ..... 113

الأزمة على المستوى الفلسفي السياسي ..... 114

الأزمة على المستوى الفلسفي الاقتصادي ..... 115

**المبحث الثالث . شخصيات المفكرون ومؤسسات البحث** ..... 110
شخصيات ومفكرون وباحثون ليبراليون جدد ..... 112
معاهد ومؤسسات البحث ..... 114
**المبحث الرابع . ديمقراطية الليبرالية الجديدة بين الوعود والأوهام** ..... 118
**المبحث الخامس . ظواهر مستجدة / آليات سيطرة** ..... 127
**الفصل الثالث** :..... 133
**النظرية العالمية الثالثة – الوجود الحقيقي ·**
**ونقض خطاب الليبرالية الجديدة**
**المبحث الأول .**
**السياسي** : المسافة النوعية بين الليبرالية الجديدة والنظرية العالمية الثالثة..... 134
**المبحث الثاني .**
**الاقتصادي** : وصراع الاتجاهين : الليبرالي الجديد والجماهيري ..... 145
**المبحث الثالث .**
**الاجتماعي** : بين قوة السيطرة وقوة الحرية . ( بين المجتمع المبني على العلاقات
الاجتماعية الحقانية والمجتمع القائم على علاقات القوة والسيطرة ) ..... 154
**الخاتمة** :..... 161
**المراجع** : .....163

# المقدمة

يتركز هذا البحث ( الليبرالية الجديدة -- مقاربة فلسفية نقدية ) على دراسة الشروط التاريخية لنشوء الليبرالية الجديدة ، ويهتم بصورة أساسية بالمقاربة الفلسفية لخطابها.

وإذا كان **موضوع الدراسة** سيأخذ باعتباره الالتفـات إلى الجوانـب الثقافيـة والاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، فإنه سوف يتناولها بصورة ثانوية ، في إطار التحليل النقدي التاريخي ، الذي لا يكتمل إلا إذا أنتج تصوراً شمولياً عن موضوع البحث . مـن هنا ، فإن بناء تصور نظري عام يقتضي الإحاطة بجميع جوانب وشروط تكون الليبراليـة الجديدة ، لأنها تكونت ، بالأصل ، كما يؤكد خطاب الفكر المعاصر ، وبصرف النظـر عن اختلاف تياراته ، داخل الكل المعقد والمتفاعل لهذه العوامل .

ولكن هناك فارقاً نوعياً بين الشمولية و التوتاليتارية . فالشمولية تعني إنشاء تصور عقلي عام عن الموضوع ، يأخذ بعين الاعتبار غنى الواقع وتنوع معطياته ، ويحدد شروط إمكان توحيد التنوع وظروفه و عوائقه . أما الكليانية أو التوليتارية ، فتقوم على النظـرة التبسيطية التقريرية التي تعتد بمرجع أحادي الواقع .

وإذا كانت الضرورة تقتضي الإشارة إلى الاقتصاد والسياسة والثقافة كجوانـب مستغرقة في موضوع دراسة الليبرالية الجديدة ، فإن خطابها الفكري العام هـو المجمـوع العباري لهذه الجوانب و التسويغ النظري للعلاقات فيما بينها . إذن ؛ خطابها هو حصيلة نظرية عامة عما يجري الآن في العالم . من هنا تأتي ضرورة بناء نظرة شاملة عن الليبرالية الجديدة . ولأن هذه تفصح عن نفسها من خلال خطابهـا عـبر المـثقفين والمختـصين والأكاديميين الذين يقعون في مدارها ، إذاً فلا يمكن إدراكها معرفياً وبناءها عقلياً ، إلا من خلال التفكير فيها فلسفياً ، أي القراءة النقدية التفكيكية لخطابها .

فبعد تصدع الخطابات التوليتارية الحديثة [1] وانهيارها أوكلت الليبراليـة لنفـسها مهمة مفهمة العالم ، وبناء إطار تعقل له ، بغاية امتلاكه معرفياً ، ومن ثم سياسـياً ، أو ثقافياً ومن ثم سلطاناً .

---

(1) التوتاليتارية الحديثة : ( النازية والفاشية والشيوعية ) .

إذن تطرح الليبرالية الجديدة نفسها مشروعاً بديلاً تاريخياً فوق حطام تلك الخطابات / المشاريع . وهي تستغل مبدأ معروفاً في التاريخ الإنساني ؛ منذ هيغل ؛ وهو أن سيرورة التاريخ لا تعرف لحظة خلاء من العقلنة ، أو الخطاب الذي يلازم الصيرورة . من هنا ، تغتنم لحظة انفراج الفسحة التاريخية أمامها ، بعد فشل تلك المشاريع ، لتعلن مشروعية انبثاقها إلى الوجود وتربعها على مسرح الحضارة الإنسانية الراهنة .

* * *

هناك كثير من الأسئلة يثيرها موضوع هذا البحث . والسؤال المركزي المتصل بمشروع الليبرالية الجديدة هو : هل هذا المشروع هو حقاً المآل التاريخي الأخير للحضارة الإنسانية ؟ كما يذهب أتباعه في العالم ، ومنهم في العالم العربي بطبيعة الحال ، وعلى رأسهم فرنسيس فوكوياما .

ومن هذا السؤال تنبثق مجموعة من الأسئلة الفرعية التي تنحدر منه : كيف انبنى التسويغ الفلسفي لهذا الخطاب ؟ . وما هي الأسس المنهجية التي يعتمدها ، لكي يمنح الحقانية لأطروحته النظرية الأساسية ، التي مفادها أن الليبرالية استحقاق تاريخي نهائي ؟ وهل فشل المشاريع الكلياتية المعروفة تاريخياً ؛ اكسب هذا المشروع برهانية فلسفية مطلقة غير قابلة للتسأل أو القراءة النقدية ، التي من شأنها أن تحدث زحزحة في بنيته ، وتوسع الشقوق والفجوات في قوامه ؟ . وإذا كانت هناك صلة نسب تاريخية بين الليبرالية الكلاسيكية والليبرالية الجديدة ؛ فهل هناك اتصالية تاريخية بينهما ، أم أن الثانية تميزت بخصائص حملها الانفصال التاريخي ، الأمر الذي أكسب خطابها قواماً مختلفاً عن سابقتها؟

وإذا كانت الحداثة التي تعتبر المسمى الآخر لليبرالية ؛ قد كرست منذ القرن السادس عشر ، منذ فرانسيس بيكون ورينيه ديكارت ، وجون لوك ، وجان جاك روسو ، و عمانوئيل كانط ، حتى هيغل وماركس ... الخ ، كرست نقد العقل وسيطرة الإنسان على المعرفة والطبيعة والمجتمع ، فهل خلص كل ذلك الناس في الحضارة الإنسانية الراهنة من عقلياتهم المغلقة ومفاهيمهم المتحجرة وإستراتيجيتهم القطعية فيما يخص الحقيقة ؟

وإذا كانت الأهوال والكوارث التي تعيشها الإنسانية من حروب ودمار وبجاعات، في ظل سيطرة الليبرالية الجديدة ، فبأي معنى كانت الليبرالية الكلاسيكية تقدمية ، وكيف استنفدت دورها الإيجابي ، عندما تجددت و احتازت على مسمى : الليبرالية الجديدة ؟

إذا كانت هناك أزمة تعصف بالعالم ، وإن سببها كان الليبرالية التقليدية ، كما يعتقد المحافظون الجدد أو الليبراليون الجدد ، فهل حقاً يمكن لخطاب الليبرالية الجديدة ، أن يكون سبيلاً لإنقاذ الإنسان ؟ أم هناك أفق معرفي آخر مختلف يمكنه أن يحقق كينونة الإنسان بصورة أصيلة .

إن مجموعة تساؤلات الدراسة هذه ، وغيرها مما يمكن أن يبرز في سياق العمل ، هي ما سيحاول البحث التفكير فيها ، وتلمس الإجابة عنها .

وغني عن القول إن الهدف ليس التوصل إلى الحقيقة الناجزة ، بقدر ما هو مقاربة أولية تسمح بطرح أسئلة جديدة على التفكير الإنساني . ألم يعلم الخطاب الفلسفي المعاصر ، أن الفلسفة لم تعد هي البحث عن غايات العقل القصوى ، كما كان يعتقد كانط ؟ بل هي سؤال الصيرورة المنفتحة على التجدد باستمرار ، كما يذهب مارتن هيدغر .

* * *

من هنا يحق القول : إن بناء إشكالية البحث لاتتأتى من فكرة جاهزة أو حقيقة نهائية ، بل من التساؤل عن دوغمائية خطاب الليبرالية الجديدة ، وعن الآلية المعرفية التي أدت إلى انبنائه بهذه الكيفية القطعية ، عندما يذهب إلى أن الديمقراطية الليبرالية ( لفوكوياما ) هي المحطة الأخيرة لقاطرة التاريخ الإنساني .

إن إمكانية تحكم الذات في العالم التي أقيمت كمسلمة مركزية في الخطاب الفلسفي، هي إرث يعود إلى خطاب الحداثة . حيث السمة الأساسية للعصر الحديث هي الحرية الذاتية للإنسان ، التي تتحقق في المجتمع . وهذا يتم عبر دور الدولة التي تتابع الشأن العام ، والمصالح الخاصة للناس عبر قيمة الإرادة السياسية ؛ وعبر الاستقلال المعنوي للإنسان وتحقق ذاته ؛ وعبر صيرورة تشكيل أو حيازة نمط ثقافي تفكري متحرر من أعباء خطاب القرون الوسطى .

وما كان للعالم والإنسان والمجتمع أن يصير ملكاً للذات الإنسانية ، إلا عبر مسار تحولات الخطاب الفلسفي وولوج مرحلة الحداثة . فقد جاء ديكارت بالكوجيتو ليضع مبدأ الذاتية ، فيربط فكرة الوجود بتفكير الذات ( أنا أفكر إذن أنا موجود ) . وجاء كانط بنقد العقل المحض ، يرسي أسس ثورته الكوبرنيكية على صعيد عملية المعرفة وشروطها العلمية . فلا إمكان للمعرفة خارج تجربة الذات الإنسانية . فالظاهرات تخضع ضرورة لمقولات الفهم ، وعليه الإنسان هو مشرع الطبيعة . والعقل يوحد مقولات الفهم في مبادئ قصوى خاصة به .

و هيغل يتابع ، ضمن خصوصية بناء خطابه الفلسفي ، التمسك بدور العقل لتشكيل المعرفة وبناء الحقيقة ، وقد توصل إلى ذلك بعد نقده للشيء بذاته عند كانط .

يذهب كانط إلى أن المعرفة التي ترتكز حصراً على الظاهرات مضطرة ، لأجل مصلحتها الخاصة بها أن تطرح وجود الأشياء في ذاتها ، بوصفها لا يمكن أن تكون معروفة، بل ينبغي أن تُفتكر لتقوم مقام أساسي للظاهرات المحسوسة بحد ذاتها، معقولة أو ما فوق محسوسة فتسجل حدود المعرفة وتحيلها إلى شروط الحساسية .

ولكن هيغل يبني نقده لفكرة الشيء في ذاته استناداً إلى افتراضه مستهدفاً من ذلك وضع العقل كسلطة توحيد . وبذلك يكون قد بنى نقده للتعارضات الفلسفية بين الطبيعة والروح ، وبين الحساسية ... الخ . هذا النقد هو مسوغ طرح هيجل للمنطق الجدلي ؛ الذي يشكل العقل الكلي نسيجه الفعلي ؛ وهو غير مفصول عن التاريخ . إن التاريخ والمطلق عنده متلاحمان .

وكل الجهد الفلسفي لخطاب الحداثة الذي قرأ صيرورة التاريخ كان يتمحور حول أمرين مركزيين : **الأول** تسويغ طرح خطاب جديد ، مناقض للمعقولية التقليدية أو خطاب القرون الوسطى ؛ **والثاني** نقل مركز التحكم بهذه الصيرورة من نسق الغيبيات إلى الإنسان بتصويره على أنه القوة والمحايثة المؤهلة لذلك .

من هنا خطاب الحداثة ، وخصوصاً وجهه الليبرالي مقدماً تصوره عن الإنسان والتاريخ والعالم يتمركز على الإنسان . ولكن سرعان ما واجه هذا الخطاب فشله ، فكشف المشكلات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية التي تعانيها حضارتنا من ضياع وعود

التنوير : ( حرية – إخاء – مساواة ) والتي كانت أساس انطلاقها . و لم يفلح الخطاب الماركسي باعتباره تنويعاً نظرياً على قاعدة خطاب الحداثة ، بمقتضى تمسكه بالمسلمات المركزية لهذا الخطاب في تقديم مخرجاً من أزمة الحضارة الإنسانية .

وأظهر التاريخ عياناً فشل المشروعين النازي والفاشي في اختراع أي أفق لحل تلك المشاكل .

في هذا الإطار التاريخي انبثق خطاب الليبرالية الجديدة محاولاً ملء الفراغ الناتج عن هذا الفشل وتسويغ وجوده ، مستثمراً خطاب هيغل الفلسفي عبر قراءة كوجيف له ، وتوظيف فوكوياما لهذا الأخير . لكن تطابق العقل مع التاريخ بحسب الغاية القصوى لفلسفة هيغل ، هي بذاتها تم إخضاعها للنقاش ، وبالتالي توصل الفكر الفلسفي المعاصر لتجاوز هذا التصور . وكانت نتيجة ذلك عجز الفلسفة المثالية الموضوعية الهيغلية عن البرهنة على أن الروح المطلق يحكم التاريخ ، كما تزعم هذه الفلسفة .

من جهة ثانية ، لم تعد فكرة الغائية مبدأ يحكم الإنسان أو العالم أو التاريخ ؛ موضوع قبول بعد الحصائل الفلسفية المعاصرة ؛ مثل أعمال فردريك ، نيتشه، ومارتن هيدغر ، وميشيل فوكو ، وجيل دولوز ، وجاك دريدا .. الخ من المفكرين والفلاسفة المعاصرين .

عليه يكون المبدأ الأساس في خطاب الليبرالية الجديدة ، قد اهتز ، وبالتالي أطروحات فوكوياما – كأحد أبرز منظريها – حول دوره في إنقاذ العالم من أزمته ، تكون قد فقدت برهانيتها الفلسفية .

إلى جانب هذا الموقف النقدي المبدئي ؛ الذي يتعلق بالأساس الفلسفي لخطاب هيجل ، فإن أطروحات فوكوياما وما تحمله بعض مفاصل الديالكتيك الهيغلي استنتاجات وتحليلات لا تطيقها مقدمات نصوصه ، ولا يسوغها منطقه الذاتي . هذا " **وأهم ما يرتكبه التأويل الفوكيامي في شأن النص الهيغلي ، هو هذا الإقحام ، غير المعلل أبدا ، لمذهب الديالكتيك في أن تكون له هذه النهاية – القسرية جداً – وهي انتصار الليبرالية الأمريكية بالذات** " . [1]

---

(1) فرنسيس فوكوياما ، نهاية التاريخ والإنسان الأخير ، ترجمة مجموعة باحثين ، بدون طبعة ، (مركز الإنماء القومي. بيروت . **1993** ) ص **10** .

إن هذا الموقف يكشف التستير الفاشل للخطاب الفلسفي ، عندما يأخذ على عاتقه خدمة الأيديولوجية ، بدلاً من جعلها موضوعاً للتفكير ، لإبراز المسكوت عنه في خطابها، من الناحية المعرفية ، وفضح لعبة المصالح من الناحية الاجتماعية .

* * *

إن القراءة الفلسفية في خطاب الليبرالية الجديدة تكتسب أهمية جديدة كونها تكشف الأوهام التي يرتكز عليها . بعبارات أخرى تتأتى **أهمية هذا البحث** من ضرورة الاستقصاء الفلسفي لعملية المعرفة ولعبة بناء الحقيقة داخل هذا النسق الخطابي .

فتحويل المجهول إلى معروف ، هو هدف الجهد المعرفي الحق ، المتحرر من هيبة الأسماء الكبرى ، أو الأفكار المسبقة ، أو المناهج المغلقة . أما المعرفة في خطاب الليبرالية الجديدة فتقوم على خليط من المناهج الفلسفية : من البرجماتية التي تجعل من المنفعة والنجاح معياراً لحقيقة الفكرة ؛ إلى المنهج التحريبي الذي يزعم أن الحقائق انعكاس للواقع، كما لو أن الواقع يشع معرفة ، إلى الوظيفية التي تختـــزل الحياة في نســـق من الأدوار والممارسات التي تكفل توازن النســـق الكلي ؛ ضاربة صفحاً عن اشتراطيه النظام المعرفي لها ؛ إلى الديالكتيك المثالي الهيغلي بعد التحويرات القسرية لقوانينه الأساسية، وعمارته النظرية .

بحسب هذا الخطاب يمكن إدراك المشاكل والأزمات مباشرة في الواقع دون الحاجة إلى التفكير في نظام الخطاب ، أو إستراتيجية بناء الحقيقة . ومن وجه آخر يعتمد الخطاب الليبرالي على المنطق الصوري، لكي يستنبط نتائج بنائه على مقدمات يصنعها بصورة تقريرية ، لا تقبل التفكير بمسلماتها المبدئية أو أطرها الفكرية .

فطالما أن الليبرالية هي الطريق الحقيقية لحل مشكلة الإنسان في العالم ، تكون النتيجة أن على الليبرالية أن تصبح متجددة . وهكذا يتم التوصل إلى استنتاج ضرورة الليبرالية الجديدة ؛ وهذا ما فعله مفكروها وخصوصاً فوكوياما عندما خلط هذا المنطق مع الجدل الهيغلي مسنداً إياه على التيموس بما هو رغبة في تحقيق الذات .

إن هذه الإشكاليات ذات الطابع المعرفي ، يمكن أن توضح من خلال القراءة الفلسفية . كما توضح أيضاً عملية توظيف هذه الأوهام المعرفية أيديولوجياً بما يخدم الليبرالية الجديدة .

والوهم الرئيسي يظهر في الأتي: بما أن الحضارة الإنسانية بعيدة عن النظام السياسي الذي لا يؤمن بالديمقراطية الليبرالية؛ فإنه محكوم عليه بملاقاة الصعاب والأزمات.

بعبارة واحدة : أهمية البحث تتأتى من المواجهة الفلسفية لخطاب الليبرالية الجديدة، من أجل الإسهام في تأسيس خطاب فلسفي مختلف .

* * *

وجود خطاب الليبرالية الجديدة وسيطرته في العالم يقتضي الاعتراف به من قبل الناس ، هذا بحسب النظرة التبسيطية فيما يخص النظرة التقليدية للحقيقة ، أي التطابق بين الفكرة والواقع كما تذهب التجريبية و الهيغلية والماركسية . ولكن جوهر الحقيقة لا يتحقق بالتساؤل عن التجربة العملية ؛ أو الميدان الاقتصادي ؛ أو السياسي ، أو الخلق الفني ، بل بالتفكير في مسلمات العقل وأحكامه عن الأشياء . فالعقل لا يطابق فكرته إلا إذا حقق على مستوى أحكامه مطابقة المعقول للشيء الذي يجب من ناحيته أن يطابق الفكرة . فالماء النقي ، مثلاً هو هذا الواقع الذي تطابق واقعيته سلفاً ودائماً ما نرتئيه بالضبط عندما نفكر بالماء . ولذلك فإن الشيء مطابق لتقديراتنا المتعلقة بوجوده على هذا النحو أو ذاك . عليه " **مرجع الحقيقة هنا ذاتية الفاعل الإنساني ... هناك علاقة تربط بين الحقيقة كمطابقة وبين الحرية** " . [1]

إذن تسويغ الليبرالية الجديدة وقبولها كحقيقة أو رفضها مرتبط بالمنهج الذي يتحكم بالرؤية لدى الكائن الإنساني .

**أن المنهج الذي نعتمده في بحثنا هذا** ، هو المنهج النقدي التفكيكي . وهذا المنهج يتعين بالسلب أي بنفي المقاربة الأيديولوجية الصرفة قدر الإمكان ؛ ونفي العلموية ، وتجاوز التصنيفات التقليدية للمناهج ، فهو ليس لاهوتياً ، ولا تجريبياً ، ولا جدلياً .

---

(1) مارتن هيدجر : معضلة الحقيقة ، بدون طبعة ، (الدار التونسية للنشر .تونس . **1986** ) ص **73،72** .

فهو ليس أيديولوجياً ، لأن هناك فارق بين القراءة الفلسفية لما يحدث في العالم والقراءة الإيديولوجية . فالأولى تفكر بالفكرة وكيف تتكون ؛ وتصف كيف تشتغل داخل الخطاب لتحديد دور المعرفة والعقل في تشكيل الحقيقة عن هذا الما يحدث في العالم؛ في حين أن الأيديولوجية تجمد الصيرورة المتحركة . هي تفكر مباشرة بواسطة نموذج نهائي . وصار متعارفاً عليه بين أهل الفكر أن الجماعات الإنسانية لا يمكن أن تفكر إلا عبر الأيديولوجيا . لأن الأيديولوجيا تقدم الحلول الجاهزة السريعة المتفقة مع المعتقدات اللاشعورية الجمعية . فالجماعة ميالة إلى تصديق ما ينسجم مع معتقداتها ؛ إني مع ما له جواب جاهز في الأيديولوجيا السائدة . وهكذا النموذج الأيديولوجي لا يفسر المعطى بل يستخدمه برهاناً على صحة منطلقة .

كما أن هذا المنهج ليس علموياً ، لأنه لا ينطلق من النظرة التقديسية للعلم ، التي تغري الكثير من الباحثين، فاختلاف طبيعة حقول المعارف الإنسانية عن ميادين العلوم الطبيعية تفترض الاختلاف بين منهجي البحث في كل من هذين المجالين، كما يذهب الخطاب الفلسفي المعاصر وخصوصاً عند كانط في كتابة نقد العقل المحض ، وهانس جورج غادامير في كتاب بداية الفلسفة .

وهذا المنهج ليس لاهوتياً ، لأنه لا ينطلق من الغيبيات في قراءته لخطاب الليبرالية الجديدة ، بل من التاريخية لأنه يعتبرها ظاهرة دنيوية إنسانية ، فالتفكير فيها ومفهمتها ومواجهتها يتحقق من قبل الناس في الدنيا .

وهذا المنهج ليس تجريبياً ، لأن الأشياء أو الوقائع لا تعكس الأفكار بصورة آلية. كما أن الأشياء والوقائع لا تنطوي على تعين بدون أفكار ومفاهيم تعطيها معنى . في هذا الإطار أكد كانط على أن المقولات بدون وقائع جوفاء ، وأن الوقائع بدون مقاولات عمياء ؛ ولهذا لا يمكن الفصل بين الفكر والوقائع .

ولذلك لا يكفي حشد الوقائع والمؤشرات العملية بصورة تجريبية فجّه ، لكي يتم أثبات حقيقة الليبرالية الجديدة .

وهذا المنهج لا ينطلق من المنطق الجدلي سواء أكان الديالكتيك المثالي الموضوعي الهيغلي ، أو الديالكتيك المادي الماركسي. لأن كليهما ينطلق من ثنائية الذات / الموضوع.

وكلاهما يعلق الصيرورة التاريخية . فينتهي التاريخ عند هيجل عندما تعود الفكرة الشاملة إلى ذاتها ، أي يتطابق العقل مع التاريخ ؛ وكذلك ينتهي التاريخ عند ماركس ، عندما تستولي البروليتاريا على الدولة وتبني المجتمع الشيوعي ، ويزول الاستغلال . وهكذا يلغي هذا الجدل بوجهيه التغير الدائم للعالم ، ويضع له نهاية .

إن المنهج الذي تعتمده هذه الدراسة هو منهج تحليلي يسعى إلى تفكيك خطاب الليبرالية الجديدة الذي يسيطر الآن في العالم . وأن الحفر في طبقاته المعرفية وإبراز مسلماته المسكوت عنها ( العقل . المصلحة . السيطرة . القوة ) . يعني ضرورة الدخول من النص كفضاء تأويلي قابل للقراءات المتعددة ، أو من الخطاب كتشكيل عباري ينطوي على نظام معرفي لإنتاج المعرفة والحقيقة .

النص ميدان ممارسة ؛ والعبارة حدث ، والخطاب نص يتحرك ولغة تشغيل ، والتفكيك مبضع يشق أحاديد ويفتح ثقوباً في النص ليستقر في نسيجه المعرفي والحفر معول ينقب في طبقات خطابات المعارف ليصف كيفية انبنائها و اشتغالها .

من هذا المدخل سنحاول لمس الأسس المستورة ، والبديهيات المحتجبة في خطاب الليبرالية الجديدة ، سعياً للكشف عن آلية بناء المعرفة وتشكيل رؤيتها للإنسان والعالم .

القراءة النقدية التفكيكية في خطاب الليبرالية الجديدة ليست بريئة بصورة أطلاقيه من الأيديولوجيا ، رغم السعي الجدي للتحرر من هذا العبء ، ولكن من يستطيع أن يقتلع من روحه العواطف ومن عقله الأوهام ، ومن تفكيره الميول والمصالح . وهناك فرق كبير بين الاعتراف بخطورة التأثير الأيديولوجي على البحث ، والسعي إلى التحرر منها ، وبين أن يتم تبينها بصورة إرادية ، ومن تأثير هذا على المعرفة والحقيقة .

مع ذلك يمكن لأهداف البحث أن تكون موضوعية ، رغم أنها مرتبطة بذات الباحث ، ورغم أنها مسبقة طالما هي أهداف . كيف هذا ؟

أن خطاب الليبرالية الجديدة كأي خطاب كلياني عرفته الحضارة الإنسانية عبر التاريخ قابل للتغيير وبالتالي هو موضوعي ولا يمثل الحدود المطلقة لحقائق المجتمع والتاريخ والإنسان .

على هذا ، يمكن للبحث أن يكتسب السمة الموضوعية ، حين ينسجم مع الخاصية الموضوعية للفكر ، وهي : التغير و اللا إطلاقية . وفي الوقت نفسه حين يهدف إلى تحقيق اختراق في بنية خطاب الليبرالية الجديدة . وهذا يتطلب الكشف عن السياق التاريخي لتشكلها ، وعن المسلمات الأساسية التي تقوم عليها .

كما أن البحث يهدف إلى تقديم مساهمة ، مهما تكون متواضعة ، في إفساح المجال لبناء حالة تعقل مختلفة حول الإنسان والتاريخ والعالم ، إذا لا يمكن تكوين مقدمات نظرية لرؤية مختلفة بدون المقاربة الفلسفية النقدية التفكيكية لخطاب الليبرالية الجديدة .

# تمهيد

**خطاب الليبرالية الجديدة – ( مقاربة فلسفية نقدية )** ، دراسة تبحث في طبيعة خطاب الليبرالية الجديدة كخطاب فكري فلسفي راهن على مستوى عالمي .

وقد عرفناه في تاريخ الفكر الإنساني الحديث مذهباً له أكثر من اتجاه ومنحى : اقتصادي ويعُنى بحرية الاستثمار القائمة على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج الرأسمالية ؛ وسياسي ويعُنى بحرية الاعتقاد والتعبير التي تؤول إلى حماية مؤسسة الدولة الرأسمالية ؛ واجتماعي و تعُنى بالتصرف أو السلوك الفردي المتحرر من كل القيود التي تفرض على الإنسان .

**وخطاب الليبرالية الجديدة ليس إلا محاولة جديدة لتكييف خطاب الليبرالية الكلاسيكية** مع المستجدات المعاصرة في الحضارة الإنسانية الراهنة ، إي محاولة لتجديد سيطرة الرأسمالية وتجديد عملية الإخضاع والقهر ؛ في الوقت الذي تخفي ذلك بالأوهام التي يقدمها خطابها ولعل كشف هذه الأوهام يكون من خلال **المقاربة الفلسفية لخطاب الليبرالية الجديدة** .

نعرض في **الفصل الأول طبيعة الليبرالية التقليدية ( الكلاسيكية )** . وظروفها التاريخية وذلك لدراسة أسباب ظهور هذا الاتجاه ، وما المقصود بمصطلح الليبرالية، كما أننا نحاول عرض مصادره والتيارات التي تشكله .

إن الأسس الفلسفية الليبرالية تبين أن خطابها يشكل رؤية شاملة للإنسان والمجتمع، وتوجهاً في الاقتصاد والسياسة ، كما في الأخلاق والثقافة .

ومنذ ظهور مفهوم الليبرالية في مرحلة الحداثة كان قد اعتمد على حيلة الحرية ، كمبدأ أساسي أو مسلمة مركزية للوجود الإنساني .

ولكن سرعان ما بينت التجربة التاريخية زيف ادعاءات الليبرالية الكلاسيكية أو الجديدة حول الحرية وحقوق الإنسان . فسيطرة القوة تبين أن المتحكم في هذا العالم من يمتلكها وليس من ينطلق من مبدأ الحق أو العدالة .

ولذلك فإن فكرة الديمقراطية الغربية أو الليبرالية ، لم تسفر إلا عن حروب وقهر واستعمار شعوب في هذا العالم .

إن التفكير في هذه الأطروحة يقتضي التأسيس الفلسفي ، لذا حمل **الفصل الثاني عنوان الليبرالية الجديدة – الأسس الفلسفية والإيديولوجية.** للتعريف بالاتجاه الليبرالي الجديد والأسس التي ينطلق منها والأزمات التي تسبب به هذا الاتجاه في العالم الغربي قبل العربي . يتناول هذا الفصل المحاور التالية : نشوء الليبرالية الجديدة – الليبرالية الجديدة الأزمة التكوينية ؛ المفكرون ومؤسسات البحث ؛ ديمقراطية الليبرالية الجديدة بين الوعود والأوهام . والظواهر المستجدة / آليات سيطرة هذا الخطاب .

كشف التاريخ عن إخفاق كل من الاتجاه الرأسمالي والاتجاه الماركسي في تحقيق سعادة الفرد أو المجتمع ، كما فشل في إقامة مجتمع ديمقراطي حقيقي بعيد عن أشكال التسلط والاستغلال . وهذا ما شكل موضوع **الفصل الثالث النظرية العالمية الثالثة – الوجود الحقيقي ونقض خطاب الليبرالية الجديدة** . ولقد تناول الفصل المحاور التالية : سياسيا : المسافة النوعية بين الليبرالية الجديدة والنظرية العالمية الثالثة ؛ اقتصادياً : الصراع بين الاتجاهين ( الليبرالي الجديد والجماهيري ) ؛ اجتماعياً : بين قوة السيطرة وقوة الحرية ( بين المجتمع المبني على العلاقات الاجتماعية الحقانية والمجتمع القائم على علاقات القوة والسيطرة ) .

فالأطروحات التي قدمتها النظرية العالمية الثالثة تعد رداً عالمياً على الأفكار البنيوية لهذا الخطاب ؛ فهي تعبير عن إدراك الأبعاد الإنسانية لأزمة العصر ، ولذا تسعى من خلال الحلول الموجه للجانبين السياسي ، والاقتصادي الوصول إلى صيغة الإنسان الجديد الحر ؛ كل ذلك لتحقيق الحرية الإنسانية بالعالم بتوجهات رائدة وحكيمة .

**وفي الخاتمة** تحاول الباحثة الرد على الافتراضات التي أثيرت في مقدمة البحث . **أما المنهج** المستخدم في الدراسة، والذي يتوافق مع طبيعتها وأهدافها ، فهو المنهج ( التحليلي النقدي ) مع الاستعانة بالمنهج التاريخي كلما دعت الضرورة إلى ذلك .

وأخيراً لا يفوتني أن أتقدم بالشكر **للدكتور مقداد نديم عبود** . على توجيهي في انجاز هذا البحث ، فله مني خالص التقدير والامتنان ... كما أريد أن أنوه إلى أن أي تقصير أو خطاء في هذا البحث يعود إلي وحدي .

# الفصل الأول

## الليبرالية التقليدية « الكلاسيكية »

## المبحث الأول : المفاهيم

### أصل المصطلح :

المصطلح أسم أو عبارة يحيل إلى تصور معين أو موضوع معين فكرياً ، من شأنه أن يحدد أساساً نظرياً في عملية التفكير العقلي ؛ وهو يتميز بالثبات النسبي لأن الناس علماء ومفكرين قد تواضعوا عليه ، واعتمدوه كأساس في بناء عملية الإدراك المعرفي .

فالمصطلح إذن ، دال أول يحيل إلى دلالات معينه ، كما يبين علماء السيمياء ( حياة العلامة ) ، و السيمانتيك ( علم الدلالة ) .

لكن المصطلح الذي ينتظم العبارة لا ينظر إليه كاسم في جملة ، و إلا كنا نفكره من داخل المقاربة النحوية للجملة باعتبارها تعطي خبراً أو وصفاً ما ؛ ولا ينظر إليه أيضا باعتباره حداً في قضية منطقية ، و إلا اختزلنها في معادلة منطقية رياضية تهتم بالصحيح والخاطئ استناداً على منطقها ؛ الذي يجعلها خارج الزمانية ؛ أي صيرورة الحياة .

أن المصطلح عبارة ذات بعد خطابي . إي أنها تأخذ أسمها ودلالتها من داخل الخطاب الذي تشكلت في إطاره تاريخياً . مما يعني أمرين : تاريخية تشكل المعرفة ؛ والانتظامية بعد الاعتباطية .

فالعلاقة بين الدال والمدلول يجب أن لا يفهم منها وجود أي رابط طبيعي بينهما ، بل هو اعتباطي ، لأن الأثر النفسي للمصطلح كاسم أو عبارة أو صوت أو الصورة التي يستحضرها هذا الأثر في الذهن هما اللذان يشكلان العلامة اللغوية كما يرى دي سوسير. [1]

أما تاريخية تشكل العلامة أو زمانيتها فينقلها من مجال المقاربة اللسانية إلى إطار المقاربة الخطابية . ولذا تحل لحظة الانتظام على العبارة أو المصطلح بعد انقضاء لحظة الاعتباطي .

فالعبارة كوحدة أولية في الخطاب كما يقول ميشيل فوكو " **هي وظيفة تعبر ميدان بنيات ووحدات ممكنة وتظهرها بمضامين محسوسة وعينية ، في الزمان والمكان** " . [2]

---

(1) حافيظ إسماعيلي ، اللسانيات البنيوية ، ( مجلة الفكر العربي المعاصر . مركز الإنماء القومي . العددان 124/125 . د.ت) ص 122- 125 .

(2) ميشيل فوكو : حفريات المعرفة ، ترجمة سالم يفوت ، الطبعة الثانية، (مركز الإنماء القومي . بيروت . الدار البيضاء . 1987) ص 82 .

وهي تخضع لمرجع ، هي قوانين إمكان وقواعد وجود الموضوعات . وهذا ما يحقق إمكان الممارسة الخطابية " **كمجموعة من القواعد الموضوعية والتاريخية المعينة والمحددة دوماً في الزمان و المكان ، وفي نطاق اجتماعي واقتصادي وجغرافي أو لساني معطى** " . [1]

من هنا ؛ مصطلح الليبرالية يتحدد داخل الشروط التاريخية التي تبلور في إطارها. ودلالته مشحونة داخل أفق المعقولية الذي انتظم نشأته . فامتلك مضمونه من خلال تقاطع ميادين وممارسات خطابية أساسية مثل : خطاب الاقتصاد ، و خطاب السياسة ، وخطاب السوسيولوجيا ، وكذلك أمتلك إمكانية التحوير أو التغيير ، الأمر الذي أدى إلى انبثاق مصطلح الليبرالية الجديدة في نطاق ظروف تاريخية مستجدة .

---

(1) المرجع السابق : ميشيل فوكو : حفريات المعرفة ، ص **109** .

## الليبرالية :

لـــ. لليبرالية مجموعة مفاهيم ومبادئ تجتمع على قضايا مشتركة و تتعارض على قضايا أخرى . لذا فإن تحديد تعريف واضح ودقيق لمفهوم الليبرالية نجده اختلف من فكر إلى آخر ، ومن مفكر إلى آخر .

وإذا كان لليبرالية من جوهر أساسي فهو يتمثل في التركيز على أهمية الفرد ، وضرورة تحرره من كل أنواع السيطرة والقيود ؛ كما تصبو الليبرالية على نحو دائم وخاص إلى التحرر من كافة أنواع التسلط إيّ كان ، ولقد وردت عدة تعريفات لمصطلح الليبرالية بالعديد من الكتب والموسوعات منها :

جاء في موسوعة لالاند الفلسفية : " ليبرالية ، **LIBERALISME** ...

**أ. مذهب سياسي يرى أن من المستحسن أن تزداد إلى أبعد حد ممكن استقلالية السلطة التشريعية والسلطة القضائية بالنسبة إلى السلطة الإجرائية / التنفيذية ، وأن يُعطي للمواطنين أكبر قدر من الضمانات في مواجهة تعسف الحكم .**

**الليبرالي ( أول استعمال للفظة ) هو الحزب الأسباني الذي أراد نحو 1810 ، أن يدخل في أسبانيا البرلمانية من الطراز الإنكليزي – الليبرالية تتعارض مع الاستبدادية autoritarisme .**

**ب. مذهب سياسي فلسفي يرى أن الإجماع الديني ليس شرطاً لازماً ، ضرورياً لتنظيم اجتماعي جيد ، ويطالب بـــ" حرية الفكر" لكل المواطنين .**

**ج. مذهب اقتصادي يرى أن الدولة لا ينبغي لها أن تتولى وظائف صناعية ، ولا وظائف تجارية ، وأنها لا يحق لها التدخل في العلاقات الاقتصادية التي تقوم بين الأفراد والطبقات أو الأمم . بهذا المعنى يقال غالباً ليبرالية اقتصادية .**

**– تتعارض مع الدولانية Etatisme أو حتى بنحو أعم مع الاشتراكية .**

**د. احترام استقلال الآخر ؛ تسامح ؛ ثقة في الآثار الحميدة للحرية " . [1]**

---

**(1) انظر: لالاند : موسوعة لالاند الفلسفية ، الطبعة الأولى ، المجلد الثاني ، (منشورات عويدات ، بيروت، باريس ، 1996) ص 726،725 .**

كذلك جاء في قاموس وبستر : قاموس ( العالم الجديد ) تحت مادة ليبراليزم : Liberalism " صفة أو وضع يكون ليبرالياً ... فلسفة سياسية تدافع عن الحرية الشخصية من أجل الصيغ الديمقراطية الفردية للدولة ، والإصلاح التدريجي في المؤسسات السياسية والاجتماعية ...الخ ؛ وهي حركة في البروتستانتية تدافع عن لائحة تفسير الإنجيل بمرونة ؛ الحرية من المعتقد القطعي والسلطوية " . (1)

وجاء تعريف مصطلح الليبرالية بالموسوعة السياسية كالأتي : ليبرالية Liberalism أو Libe'ralisme " مذهب رأسمالي ينادي بالحرية المطلقة في الميدانين الاقتصادي والسياسي . ففي الميدان السياسي وعلى النطاق الفردي يؤكد هذا المذهب على القبول بأفكار الغير وأفعاله حتى ولو كانت متعارضة مع أفكار المذهب وأفعاله شرط المعاملة بالمثل. وعلى النطاق الجماعي فإن الليبيرالية (*) هي النظام السياسي المبني على التعددية الأيديولوجية والتنظيمية الحزبية والنقابية التي لا يضمنها ، حسب ذلك المذهب ، سوى النظام البرلماني الديمقراطي الذي يفصل فعلياً بين السلطات الثلاث : التشريعية و التنفيذية والقضائية ، ويؤمن الحريات الشخصية والعامة بما في ذلك حرية المعتقد الديني . والواقع أن الليبيرالية اكتسبت مفاهيم مختلفة مع مرور الزمن . فعلى الرغم من تشديد الليبراليون الرأسماليين على أهمية الحرية فإنهم في الغالب يتصرفون ضد حريات الأفراد والشعوب في علاقاتهم الدولية لارتباط الظاهرة الرأسمالية بالإمبريالية وما يتضمن ذلك من استغلال واستعباد الشعوب الخاضعة للاستعمار. كما أن الليبرالية تهمل مصلحة الجماعة تحت شعار اهتمامها بمصالح الأفراد ...أما في الميدان الاقتصادي ، فإن الليبيرالية تأخذ منبعها من المدرسة الطبيعية ( الفيزيوقراطية ) التي تؤكد على أنه يوجد على النطاق الاقتصادي نظام طبيعي يتحقق بواسطة مبادرات الفرد " الإنسان الاقتصادي " (Homo Oeconomicus) الذي ينحو بشكل طبيعي نحو تلبية أقصى ما يمكن من الحاجات بأقل ما يمكن من الأتعاب. وفي مفهوم الليبراليون فإن مصالح الأفراد تتطابق تماماً مع مصلحة المجتمع ، لأن القوانين الاقتصادية الطبيعية ، في نظرها تؤدي إلى أحداث التوازن بين الأسعار و الإنتاج و المداخيل أي إلى تحقيق التوازن

(1) New World Dictionary . Webster's :-Third College Edition . p778

(*) هكذا جاءت كلمة الليبرالية في الموسوعة السياسية وهي خطأ ؛ والصحيح الليبرالية .

الاقتصادي بشكل طبيعي . وبالتالي فتحقيق الحرية الاقتصادية يؤدي إلى تحقيق النظام الطبيعي الذي أراده الله للبشرية " . [1]

ولكن لليبرالية جوهر أساسي يتفق عليه الجميع في كافة العصور مع اختلاف توجهاتهم، وكيفية تطبيقها كوسيلة من وسائل الإصلاح و الإنتاج وجوهر الليبرالية : إنها تعتبر الحرية المبدأ والمنتهى ، الباعث والهدف ، الأصل والنتيجة في حياة الإنسان . وهي المنظومة الفكرية الوحيدة التي لا تطمع في شيء سوى وصف النشاط البشري الحر. و إذا كان لليبرالية من جوهر فهو التركيز على أهمية الفرد وضرورة تحريره من كل أنواع السيطرة و الاستبداد ؛ فالليبرالي يصبو على نحو خاص إلى التحرر من التسلط بنوعية : تسلط الدولة ( الاستبداد السياسي ) ، وتسلط الجماعة ( الاستبداد الاجتماعي ) . وتسلط مالكي وسائل الإنتاج ملكية خاصة ( الاستبداد الاقتصادي ) .

ولأن الليبرالية مصطلح ينتمي لفضاء الثقافة الحديثة ، فمن الطبيعي أن لا يكون موجوداً في البنية القاموسية في القرون الوسطى ، ولكن معنى الحرية كان موجوداً دائماً في الثقافة الإنسانية ، ومنها الثقافة العربية فقد جاء في قاموس لسان العرب : تحت مفهوم الحرية: " الحر : ضد البرد ، وجمع حرور وأحارر على غير قياس من وجهين : أحدهما بناؤه، الآخر إظهار تضعيفه ؛ قال ابن دريد : لا أعرف ما صحته . والحار : نقيض البارد. والحراره : ضد البرودة " .[2]

وجاء " الحُر ، بالضم : نقيض العبد ، والجمع أحرار و حرار ؛ الأخيرة عن ابن جني. الحرة : نقيض الأمة ، والجمع حرائر ، شاذ ؛ ... وحرره : أعتقه . وفي الحديث : من فعل كذا وكذا فله عدل محرر ؛ أي أجر معتق ؛ المحرر : الذي جعل من العبيد حراً فأعتق . يقال : حر العبد يحر حرارة ، بالفتح، أي صار حراً ؛ ومنه حديث أبي هريرة : قال أبو هريرة المحرر أي المعتق ، وحديث أبي الدرداء : شراركم الذين لا يعتق محررهم أي أنهم إذا أعتقوه استخدموه فإذا أراد فراقهم ادعوا رقه " . [3]

---

(1) الموسوعة السياسية : الجزء الخامس ، الطبعة الثانية ، ( المؤسسة العربية للدراسات والنشر . 1990) ص 566 .

(2) ابن المنظور : لسان العرب ، (مادة حرّ) بدون طبعة ، المجلد الرابع ( دار صادر . بيروت . د.ت ) ، ص 177.

(3) المرجع السابق : لسان العرب ، المجلد الرابع ، ص 181 .

وإذا كان لمفهوم الحرية مكان في الثقافة العربية منذ حقبة الثقافة التقليدية حتى حقبة الثقافة الحديثة ، لا يعني أن يوصد باب تغير دلالته مع تغير ملفوظة ، أو تغير معناه ارتباطاً مع تغير مبناه .

فمعنى الحرية المستمد من مصطلح الليبرالية ، والمستخدم من قبل بعض التيارات المعاصرة في الثقافة العربية ، يختلف عن دلالتها ، التي لقيناها في لسان العرب . وقتذاك كان هذا المصطلح مشوباً بحمولة ثيولوجية ، أما الآن في المرحلة المعاصرة فصار ذا دلالة وضعية .

## إشكالية المعنى :

قد يعود البحث في أصل المعنى إلى التراث الفلسفي اليوناني . الذي اشتغل عليه الفلاسفة ، ولعل أرسطو هو أول من حاول إعطائه بعداً عقلياً منطقياً ، خصوصاً في بحثه حول المقولات . فوضع المقولات العشر التي يعتبرها معاني كلية تحمل على موضوع ، فتصفه أو تعرفه .

وما كان لأرسطو أن يوجه عمله بهذا المنحى لو لم يكن انشغل قبله سقراط وأفلاطون بهذا الموضوع . الأول دقق في مشكلة المعنى فلسفياً " **فكان يرى أن لكل شيء طبيعة أو ماهية هي حقيقته يكشفها العقل وراء الأعراض المحسوسة ، ويعبر عنها بالحد ؛ وإن غاية العلم إدراك الماهيات ، أي تكوين معان تامة الحد** " . [1]

حاول سقراط أن يواجه السفسطائيين ، الذين يقيمون آراءهم الفلسفية على تداخل الحدود وإبهامها واختلاط المعاني وتشويشها . لذلك عمل على الحد واللفظ والمعنى لكي يجنب الفكر من اختلاط التصور وإبهام الحد ؛ و برغم مساهمة سقراط . جاء أفلاطون ليضيف تصوراته الفلسفية بخصوص إشكالية المعنى من خلال العلاقة بين العالم المعقول ، و العالم المحسوس ، والجدل الصاعد والجدل النازل الذي يربطهما ببعضهما . علماً أن الأولوية الحاسمة لعالم المعقولات التي هي الماهيات الثابتة تشكل المبدأ الأساسي للمعرفة . هكـــذا يكون للمعاني الكلية مبدأ الثبات باعتبارها مثلاً أولي . [2]

في المرحلة المعاصرة قامت مسافة بين الفلسفة اليونانية والفلسفة المعاصرة بخصوص المعنى . فقد تغيرت إستراتجية بناء المعنى بعد دخول اللغة إلى نظام المعرفة؛ لتصير مكـــوناً أساسياً من مكوناتها ؛ وهذا حدث بمساهمة عالم اللسانيات (دي سوسير)؛ وصـــدور أعماله في مطلع القرن العشرين حول الدال والمدلول والدلالة.

وبنت التأويلية ، خصوصاً عند هانس جورج غادامير ، و بول ريكو ، وتصورهما حول إشكالية المعنى على تلك الإنجازات اللسانية .

---

(1) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، بدون طبعة، (دار القلم . بيروت . د.ت ) ص 25.

(2) شارل فرنر : الفلسفة اليونانية ، ترجمة تيسير شيخ الأرض ، بدون طبعة ، (دار الأنوار . بيروت . 1968) ص92 -102 .

فلقد رأى بول ريكو أن من شأن علم الدلالة الدقيق أن يدمر الوهم القائل " **بأن للكلمات بنفسها معنى أولياً دقيقاً ، أي بدائياً ، طبيعياً ، أصلياً** " . [1]

وعليه لا يمكن أن يوجد معنىً ثابت على نحو إطلاقي . وهذا يتأسس على عدم وجود علاقة أصلية بين الملفوظ أو الدال ومعناه ، وبناءً على ما تقدم : فإن معنى الليبرالية ليس ثابتاً فقد اكتسب معنى مختلفاً في المرحلة الراهنة عما كان عليه وقت تشكل الليبرالية كمذهب فلسفي وسياسي واقتصادي في المرحلة الأولى للحداثة .

ولقد حل محله مصطلح الليبرالية الجديدة ، وبالتالي أخذ يحيل هذا المصطلح إلى معنى جديد بالنسبة للمصطلح السابق ، بكل ما يعني ذلك من حمولة فكرية وسياسية واقتصادية راهنة . فالأولى ( الكلاسيكية ) ذات طابع نقدي بالمعنى التاريخي ، أما الثانية ( الليبرالية الجديدة ) فقد دمرت تلك الإنجازات التقدمية .

فالليبرالية الجديدة مصطلح يشير إلى السياسة الاقتصادية التي جاءت في هيئة انقلاب على الكينـــزية التي ساد خطابها في الغرب بعد الحرب العالمية الثانية . و قد حدث في إطارها تغير على مستوى الثقافة فبرز مصطلح الاستجابية الآنية الاجتماعية ، وهو ما يعني على مستوى السلوك الاجتماعي للناس نوعاً من السرعة في أوجه التفكير والممارسة اللذين يستندان إلى انفجار ثورة المعلومات والثقافة .

عن هذا يقول انطوني جيدنز " **أن الأفراد في مجتمع يتحرر من التقليد لابد أن يألفوا تنقية وتصفية جميع أنواع المعلومات وثيقة الصلة بمواقف حياتهم ، وأن يعتادوا على عملية التنقية** " . [2]

هذا التحديد في النسيج الاصطلاحي الثقافي حمل معه تغيراً أو زحزحة في بنية معنى الليبرالية ، فتشكل مصطلح ( الليبرالية الجديدة ) . وبذلك ليس لعارف باللسانيات وعلم المعنى أن ينتكر لهذا التغير .

---

(1) بول ريكو : محاضرات في الايدولوجيا و اليوتوبيا ، ترجمة فلاح رحيم ، بدون طبعه ، (دار الكتاب الجديدة المتحدة . بيروت . د.ت ) ص 22 .

(2) انطوني جيدنز : بعيداً عن اليسار واليمين " مستقبل السياسات الراديكالية" ، ترجمة شوقي جلال ، بدون طبعة ، (عالم المعرفة . الكويت . العدد 286 . 2002 ) ص 14.

وبالإضافة إلى أنها ثورة على الكينـــزية ، تعرف الليبرالية الجديدة باسم التاتشرية – الريجانية . أي التي انتشرت على يد مارغريت تاتشر رئيسة وزراء البريطاني ، فقد سادت في فترة حكم البلاد من قبل حزب المحافظين البريطانيين .وكذلك الأمر في الولايات المتحدة الأمريكية حيث سيطرت الليبرالية الجديدة بصورة تامة بدءاً من استلام الحزب الجمهوري الحكم حينما تقلد زعامته رونالد ريغن، وجورج بوش الأب، وقد تابع بوش الابن نفس الاتجاه .

ويعتبر الفيلسوف الاقتصادي ( فردريك فون هايك ) الأستاذ بجامعة شيكاغو من المنظرين الأوائل لليبرالية الجديدة ، ومن بعده تلميذه ( ميلتون فريدمان ) .

ولعل جذور الليبرالية الجديدة من الناحية الفلسفية التاريخية تعود إلى الفيلسوف ( توماس هوبز ) 1588-1679 على مستوى علاقة الإنسان بالإنسان المؤسسة على الذئبية وسيطرة الأقوى ، ولذلك من الطبيعي أن تؤمن بوجهة النظر الداروينية الاجتماعية على مستوى الاقتصاد . ولذلك هي تؤيد بشدة مبدأ المنافسة المطلقة بما يخدم الشركات العملاقة المتعدية الجنسيات على الكرة الأرضية . وكذلك إلغاء القطاع العام و تسويد الخصخصة، وحرية تداول رأس المال ، و حرية تجارة السلع والخدمات ، وحرية الاستثمار؛ وتعتبر التفاوت الاجتماعي بين الناس ظاهرة سوية عادية . كما وتدعو إلى تحطيم الحدود القومية والحماية الجمركية مما يكرس سلطة رأس المال ؛ و وحوش المال والاقتصاد والأعمال . ولم لا ؛ أليس الإنسان ذئباً للإنسان كما يذهب هوبز ؛ ثم أليس البقاء للأقوى وأن الضعيف يستحق مصيره كضحية ؟

و يلبس مصطلح الليبرالية الجديدة أيضا عبارة : المحافظين الجدد الذين يسيطرون على الثقافة والاقتصاد والإدارة في المجتمع الأمريكي ، بل وفي الغرب عموماً .

ويستخدمون كل الإمكانات المادية والثقافية والعلمية سواء أكانت قوة اقتصادية عملاقة ، أم تقنيات مهولة ، أم آلة إعـــلامية جبارة ، أم مراكز بحوث علمية من أجل تصنيع الحقيقة الكونية ( وفبركة ) الرأي العام العالمي حول القضايا التي تخص المصير الإنساني .

نستنتج من هذه التعريفات أن الليبرالية خطاب يستغرق بصورة أساسية ليس الفكر الإنساني فحسب ، بل والممارسة السياسية والاقتصادية والاجتماعية أيضاً . ولعل هذا سيتضح من خلال إلقاء بعض الضوء على الأصل التاريخي لليبرالية .

## المبحث الثاني : نشأة المذهب الليبرالي ومصادره .

### الليبرالية التقليدية :

لو تتبعنا الأصل التاريخي لنشؤ الليبرالية الجديدة نجده يتمثل في كافة المذاهب والنظريات التي جعلت من الفرد غاية بذاته ؛ وتلك التي ترفض جعل إرادة الفرد مجرد امتداد لإرادة الجماعة .

ومع كون الليبرالية كمذهب فلسفي واقتصادي وأيديولوجي ؛ تعُتبر ظاهرة حديثة نسبياً إلا أننا نجد جذورها تعود لبداية الفكر الإنساني كتصور فلسفي لتعقل العالم ، وقد انبثقت بذور هذه الفكرة مع ظهور الفكر اليوناني ؛ لذا كان من الضروري التساؤل عن طبيعة العلاقة بين هذا الفكر والمذهب الليبرالي تاريخياً ، وإن كان هذا المذهب ما كان ليتشكل إلا مع الحداثة الفكرية والاجتماعية في الحضارة الإنسانية .

الفكر اليوناني :

لم يخضع الفرد في الفكر اليوناني القديم للسلطة الاجتماعية التي وجدت في إسبارطة القديمة ، حيث قامت الحروب في أثينا و إسبارطة من أجل تحقيق المساواة بين مواطنيها أمام القانون ؛ و التي كان لها الفضل في التأكيد على أهمية الفرد ومسئوليته السياسية .

فلقد أهتم الفكر اليوناني بالإنسان ، و الإعلاء من قيمته بناءً على ما جاء به مفكرو اليونان أمثال ( برتاوغراس ) عام 485 - 410 ق.م ، عندما جعل الفرد مقياس كل شيء.[1]

أما ( ديموقرايطيس ) عام 460 - 370 ق.م ، فقد اعتبر الفرد نموذجاً يُقتدي به في الإيمان بقدرة العقل و أهميته والإيمان بالحرية و الانفتاح ، وهو الذي أوكل للإنسان مسئولية تحقيق الحرية في المجتمع كون الإنسان كائناً اجتماعياً ؛ ولا معنى لحريته بمعزل عن المجتمع .

كما آمن (سقراط) أيماناً قوياً بحرية الفكر والبحث ، وإن الفضيلة هي المعرفة ؛ وآمن بسيادة القانون وعلى الإنسان الرضى عليه و الالتزام به ولو لم يرض عنه .

إلا أنه في ذات الوقت أعطى الفرد حق المعارضة على أن يتحمل مسئولية معارضته، وهذا إن أكد على شيء فإنه يؤكد أن سقراط كان من مؤيدي الحرية الفردية .

---

(1) الموسوعة الفلسفية العربية : المجلد الثاني ، الطبعة الأولى، (معهد الإنماء العربي ، 1988) ، ص1155 .

في حين رسم أفلاطون في مؤلفه ( الجمهورية ) الطريق لإعداد النخبة الممتازة، وذلك لتتولى أمور الدولة ، وأهدر سيادة القانون أمام إرادة الحاكم الذي اعتبره فيلسوفاً.

وأكد أن الحرية الفردية تتحقق داخل المدينة الفاضلة و اندماج الفرد داخل ذلك المجتمع المنظم ، والأخذ بالمثل التي تتصف بالثبات . فيما تناول أرسطو الحرية الفردية وأكد أنه تقوم مع السلوك الأخلاقي حيث رأى الإنسان منطلقاً من الناحية الأخلاقية ، ورأى بأن السلوك الأخلاقي هو ما يحقق وجود الإنسان ( الفرد ) .

ويرأيه أن الأشياء الكلية هي التي تبقى ؛ وأن الوجود الحقيقي والفعلي هو وجود الفرد، كون الفرد هو هذا الواقع " ... **حيث يتطابق الواقع مع المعقول وتتوافق متطلبات الوجود مع متطلبات المعرفة : فهو ، من ناحية ، الفرد الوحيد الحقيقي ؛ وهو من ناحية أخرى ، المحرك الذي لا يتحرك ، لأنه الفعل المحض وفكر الفكر والصورة الأولى المنفصلة عن المادة** " . [1]

وبذلك اعترف أرسطو بحقيقة الفرد ( كونه حيواناً عاقلاً ) كما تناول الحرية في مؤلفه الشهير ( السياسة ) : حيث ناقش الوضع القائم آنذاك وجاء مؤلفه تحليلاً عميقاً لعالم الواقع.

لقد اتصف الفكر اليوناني بنوع من العقلانية ، واهتم بالفرد من كافة النواحي ؛ تجلى ذلك في المدارس الأخلاقية كالرواقية ، و الابيقورية .

اقتنع الفكر اليوناني بأن الإنسان كائن اجتماعي لذا كان من الضروري العمل على تنظيم المجتمع آنذاك . إلا أنهم أكدوا على حرية ( الفرد ) وأعطيت له الأولوية على حرية ( المجتمع ) ؛ و أكدوا على حق الإنسان في امتلاك حقوقه بصورة كلية ومطلقه .

لقد بذر الفكر الفلسفي اليوناني بذوراً أولى للفكر الليبرالي ، مما أعطى صلة قرابة تاريخية بين الخطاب اليوناني ، والخطاب الليبرالي . وعلى هذا الأساس تفهم بعض التقاطعات بينهما فيما يخص الفكر و الإنسان ؛ فقد أكد الخطاب الليبرالي على الاهتمام بالفرد كونه أكثر صور الواقع جوهرية ، وأسمى درجات القيمة .

---

(1) المرجع السابق : الموسوعة الفلسفية العربية ، ص 932 .

وأعلى الفكر الليبرالي من قيمة ( الفرد ) واعتباره أساس كل حقيقة وجوديه ، بل أنه ذهب إلى أن كل الظواهر والأحداث الاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية ظهرت بفاعلية الفرد، وأن على المجتمع رعاية مصلحته والسماح له بقضاء كافة مصالحه بنفسه وبحرية مطلقة.

اتجه الفكر الليبرالي إلى خدمة الفرد في ذاته . وهذا الاتجاه من الناحية الموضوعية يمثل الوضع الطبيعي للإنسانية حيث أن كل ما وجد من اجل الإنسان ( الفرد ) .

وكذلك اهتم الخطاب الفلسفي اليوناني بالإنسان ، وقد كان لهذا الفكر الفضل في تطور الأفكار الإنسانية ، ولولا هذا الخطاب ما كان للإنسان أن يرتقي إلى المستوى الذي وصله بمرحلة الحداثة ، وهذا يرجع إلى تغيرات الفكر في سياق التاريخ ؛ فلم تكن المعرفة قد اتخذت النسقية النظرية ؛ التي تمثل كلية تعقل واقعية للإنسان والمجتمع ، وما كان للخطاب الثقافي والسياسي في تلك المرحلة ( اليونانية القديمة ) أن ينطوي على آلية إنتاج مفاهيم ومعارف قابلة لإنشاء التصورات أو تصديق الأحكام بالمستوى الإبستمولوجي والنظري الذي عرفته المرحلة بمستوياتها المادية ، والفكرية والسياسية .

ففي اليونان القديمة لم يكن هناك نسقاً اقتصادياً حديثاً ، ولم يكن هناك مؤسسات سياسية حديثة من دساتير وقوانين للدفاع عن حقوق الإنسان ... وغيرها .

من ذلك يتضح لنا أن هناك فارقاً بين الخطاب اليوناني وموقفه من الإنسان ، والخطاب الليبرالي الذي نشأ وتبلور في إطار السياق التاريخي لتشكل مرحلة الحداثة في تاريخ الحضارة الإنسانية .

## جذور الليبرالية والخطاب الديني المسيحي:

لقد أكدت الديانة المسيحية على المسؤولية الشخصية ، وأقرت بأن الضمير هو الذي يحدد تصرف الفرد أخلاقياً من عدمه ؛ في حين قامت فلسفة آباء الكنيسة على نوعين من الولاء : ولاء للسلطة الزمنية المتمثلة في الإمبراطور، وولاء للسلطة الروحية المتمثلة في الكنيسة وكان هذا الازدواج في الولاء راجع إلى المقولة الشهيرة : ( اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله ) وعبر عن ذلك بقوله فلتخضع كل نفس للسلطات العليا ؛ فما السلطان إلا الله : أما السلطات القائمة في الأرض هي من أمره ؛ وإنه من عصى السلطات الشرعية إنما عصى الرب ، ومن عصاه حلت عليه اللعنة .

نرى أن الكنيسة كانت ضد منح الحرية للأفراد، بل قد قيدت هذه الحرية ؛ وذلك من خلال تلك الشعائر الدينية التي نادت به . فقد رفضت طاعة الحاكم، وأقامت تفكيراً آخر بدلاً منه ؛ و هو أن الحاكم إنما يحكم بمقتضى حق إلهي مقدس ، ويحكم بإرادة الله وتفويض منه . وبذلك فإن طاعته واجبة ؛ فكان أن علت السلطة فوق الحرية والمساواة بين البشر، كما ترى في تلك المبادئ ( الحرية – المساواة – الإخاء ) بأنه مطالب زائلة، والمهم هو طلب الخير من أجل الحياة الآخرة .

وإن دل هذا على شيء فإنه يؤكد أن آباء الكنسية كانت لهم غاية مخفية وراء أرائهم عن منح الحرية للأفراد و التي فيما بعد وهي " **المصلحة مع السلطة الزمنية بحيث يتركون لتلك السلطة ميدانها تفعل فيه ما تشاء دون رقيب أو حسيب مقابل أن تترك لهم تلك السلطة حرية ممارسة الشعائر الدينية والتبشير بها** " . [1]

رفضت الكنيسة كل التطور الذي حدث خاصة بعد توسع انتشار الثقافة باختراع الطباعة، وانتشار القراءة والكتابة تخوفاً من سلب دورها في السلطة .

ومع خروج العلم والفكر من احتكار الكنيسة جاء رفض منهج الكنيسة القائم على مبادئ مطلقة من أجل فرض التحكم والسيطرة كونه كانت تدعي بأنها المصدر الوحيد للعلم، وإن أي معرفة خارجة عنه ستكون مستحيلة .

---

(1) بحي الجمل: " الحرية في المذاهب السياسية المختلفة " ، ( مجلة الفكر. المجلد الأول. العدد الرابع. د.ت ) .ص ص(140-146)، ص 140.

إلا أنه ومع ظهور المفكرين الحداثيين الذين أكدوا على تقدم العقل الإنساني الذي جعل إمكانية الوصول للمعرفة عن طريق العقل، والتجربة أمرا ممكناً ساعد هذا التقدم الإنساني ( الفرد ) في الوقوف ضد سلطة الكنيسة وأفكارها، وساهم في منح الحرية للأفراد ، وفقدت الكنيسة بالتالي السيطرة المعرفية ، والسيطرة على العقول الإنسانية .

إن مقولة المسؤولية الأخلاقية المناط بالضمير الفردي ، كان لابد أن تلاقي نماءً على مستوى حياة الإنسان في مرحلة الحداثة . فبعد توافر ظروف تاريخية خطابية ، وظروف اقتصادية واجتماعية كان لابد من تشكل خطاب مختلف عن خطاب القرون الوسطى إبان مرحلة سيطرة الخطاب المسيحي .

فأدى ذلك إلى انبثاق عبارات جديدة حول حقوق الإنسان والمسؤولية الفردية الدنيوية على أنقاض المسؤولية الفردية المقدسة السماوية أمام الإله ؛ وبعد تطور التجارة وبدء تشكل الأساسية الاقتصادية الصناعية وتراكم الأطروحات التنويرية لمثقفي مرحلة الحداثة الأولى مثل فولتير، ديدرو ... وغيرهما .

وبعد الانتفاضات الاجتماعية من أجل العدالة والمساواة في أوربا ، وراء كل هذه التحولات بدأ خطاب الليبرالية بالتشكل الفعلي في هذا السياق التاريخي.

ذهب فويرباخ عام 1841إلى " **أن ماهية الدين ليست خاصية جوهرية لفكر الطوائف المسيحية الأولى ... بل هي الإنسان بكامل خصائصه الروحية و الجسدية، والفردية... كما اعتبر فويرباخ، أن الإنسان سينتزع حياته أكثر فأكثر من بين يدي الإله الوهمي، ويعيدها لنفسه** " . [1]

---

(1) جماعة من العلماء السوفيات: الفلسفة الماركسية في القرن التاسع عشر، ترجمة حسان حيدر. الجزء الأول ، الطبعة الأولى (دار الفارابي. بيروت.لبنان . 1990 ) ، ص 76 .

## الليبرالية – الأساس الفلسفي التاريخي :

عصر النهضة : " **ميلاد جديد أو تكرار الميلاد** ".[1] جاءت هذه المرحلة مع بداية عصر النهضة Renaissance الذي أدخلت الحضارة الإنسانية حقبة الحداثة. ففي القرن الخامس عشر انبثق الجديد متزامنا مع عدة عوامل اجتماعية و فكرية . بزعزعة النظام الإقطاعي للمجتمع الوسيط وظهور طبقة أخرى بديلاً عنه . **تأسس هذا التقدم عبر ثلاثة منطلقات :**

**المنطلق الأول** : حركة الإصلاح الديني التي زعزعت النظام القديم من خلال الحركة البروتستانتية بقيادة كلٍّ من لوثر وكالفن . هذه الحركة تجسدت في الهجوم على الكنيسة وإيديولوجيته. حيث رأى لوثر في هذه الحركة بأن يكون كل إنسان كاهناً وراهباً على نفسه، وبذا أعطى للإنسان استقلالاً في المسائل الدينية وانتزع من الكنيسة سلطتها وأعطاها للفرد، كما نادى لوثر باستقلال العائلة والدولة عن الكنيسة، وأكد على احترام الدوافع الطبيعية ؛ ويعد هذا عكس ما نادت به الكنيسة التي حطت من قيمة الغرائز الإنسانية؛ و بذلك عدت الحركة البروتستانتية أحد مصادر الحرية السياسية والروحية بالمجتمع الحديث، و مرحلة انتقال من المجتمع الإقطاعي إلى المجتمع البرجوازي .

و مع تطور الحركة الإنسانية لم تقتصر النهضة ضد المسائل اللاهوتية و الأخلاقية ؛ بل تناولت المسائل الدنيوية . فكانت حركة الإصلاح الديني تطبيقاً للأفكار الجديدة .

والجدير بالذكر أن هؤلاء المفكرين لم يتبنوا هذه الأفكار من غيرهم بل اكتشفوها من خبراتهم الداخلية، و قاموا بإظهارها بأسلوب جديد، وهنا اعتقد رجال الإصلاح الديني أن الدين الصحيح هو الذي ينبع من خبرة الفرد الشخصية، والمباشرة مع الحياة .

هكذا كانت الحرب ضد الكنيسة و اللاهوت ، والتي انتهت بتحرر قوى الإنسان من الطقوس المصطنعة . لم تكتفِ حركة الإصلاح الديني بالدعوة للتحرر من سلطان الكنيسة والتأكيد على خبرة الفرد الشخصية ؛ بل ذهب البعض إلى اكتشاف ديانة تنبع من طبيعة الإنسان مستقلة عن التقاليد والمراسم الشكلية السائدة آنذاك . فكان ( الدين الطبيعي) .

---

(1) أرنست بلوخ : فلسفة عصر النهضة ، ترجمة اليأس مرقص ، الطبعة الأولى ، (دار الحقيقة للطباعة والنشر ، بيروت ، **1980**) ، ص **7** .

في هذا الصدد يذكر هنري نافار " **إن كل من يصغي إلى صوت ضميره بإخلاص يدين بعقيدتي، وأني أدين بدين الناس الأخيار المخلصين** " . (1)

بالإضافة إلى هذه التطورات المعرفية ، ساهمت المتغيرات الاجتماعية في ترسيخ عملية التحديث ، فقد قامت ثورة الفلاحين ضد الإقطاع في ألمانيا وقد توجت هذه التغيرات بمطالبة لوثر عام 1716، بإلغاء البابوية ؛ و وقف معه في هذا الرأي كبار السادة آنذاك المعادين للكنيسة .

أدى ذلك إلى قبول البابا حركة الإصلاح الديني ضد الكنيسة ، لكن مرحلة الإصلاح، بدأت عندما لم يعد هناك ما يمكن إصلاحه حتى زاد ذلك من ضعف الكنيسة وأعطى مصداقية لمهاجمتها، فقد تجاوز فساد الكنيسة حده بعد آراء كالفن بشرعية الربح والعمل في التجارة؛ بل ذهب أكثر من ذلك بأن جعل النجاح في التجارة علامة رضى الله، وجعل آراءه هذه أساساً للإصلاح الديني .

رأى ( ماكس فيبر ) أن الإصلاح الديني لعب دوراً حاسماً في نشؤ وتطور ( الرأسمالية )، وساهم في تكوين عقلية مختلفة عن عقلية الإقطاعية ؛ وهذا أحدث انقلاب في موقف الكنيسة من الثروة والربح و الربا. و يعد الإصلاح حركة شعبية داعمة للتيار الليبرالي؛ إلا أن هذا التيار بعد تمرده على الكنيسة وهيمنتها لم يعد مستعداً لدخول كنيسة جديدة . (2)

**والمنطلق الثاني** : النزعة الإنسانية والتي أكدت على أن الإنسان معيار كل شيء ، وأن الطبيعة البشرية هي مصدر القيم بدلاً عن الميتافيزيقيا؛ فقد قيدت الكنيسة بالعصور الوسطى ( الطبيعة الإنسانية . والعقل . و العواطف ) . وبذلك تمثلت النزعة الإنسانية كتمرد فكري على قمع الحرية الإنسانية .

بينما **المنطلق الثالث** يركز في حركة الاكتشافات العلمية على يد (كوبرنيقوس) التي جاءت كثورة غيرت ما وصل إليه التفكير السابق ، مع اكتشاف أن الأرض عبارة عن كوكب يدور حول الشمس وليس مركزاً للكون كما كان يعتقد سابقاً ، وبالاكتشـــافات الفلكية على يـــد (كبلر) ما بيـــن عام 1571 - 1630 و ( جاليليو)

---

(1) كريم متي : الفلسفة الحديثة ، الطبعة الثانية ، (دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، 2001) ، ص 20

(2) رجب بودبوس: نقد العقل الاقتصادي ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، (دار الجماهيرية للنشر والتوزيع و الإعلان ، مصراتة، ليبيا، 2000 ) ، ص 281 - 283.

ما بين عامي 1564-1642 ، وقانون الجاذبية ( لنيوتن ) وبذلك تغيرت النظرة الإنسانية لكل المعتقدات والأفكار السابقة .[1]

فكرياً كان التطور العلمي والاختراعات والاكتشافات الهائلة وتحسن وسائل المواصلات واكتشاف عوالم جديدة وتقدم الصناعة بكافة أشكالها وظهور الطباعة والبوصلة ساعد على زيادة الإنتاج واتساع مجال التجارة بين المناطق.

وبظهور العديد من الفلاسفة والمفكرين المهاجمين لنظام القديم ، والمطالبين بتحرير الفرد ومنحه فرصة للتفكير بحرية بعيداً عن أي سلطة أو قيد ، أو مطلق مغلق . و تأكد فتح الآفاق باستخدام العقل والابتعاد عن سيطرة الدين والكنيسة .

أسست الفلسفة التجريبية لفكرة سيادة الإنسان على الطبيعة والمجتمع ، مما ساهم في وضع الأساس المعرفي لليبرالية . فكان ( لفرنسيس بيكون ) دور هائل في إحداث انقلاب بنظرة الإنسان للطبيعة والكون . فجاءت تعاليمه بطريقة جديدة من خلال مناهج بحث جديدة ومحددة ، وتحقق للإنسان القدرة على التحكم بالطبيعة والسيطرة عليها من خلال الأخذ بمناهج العلم الجديدة .

حمل بيكون مشعل هذه المرحلة ما بين عامي 1561-1626 بإنجلترا، وتناولت أفكاره اكتشاف الحقيقة ؛ وتحقيق رفاهية الإنسان ، وإصلاح الدين و يعترف له بعظمة المشاركة في التقدم الفكري من خلال اكتشاف وشرح بعض المبادئ التي تنظم اتجاه العقل نحو العالم . وعمل على تحرير العقل من الأفكار المباشرة وتوجيهه لدراسة الحقائق الطبيعية والنفسية و الاجتماعية دراسة نزيهة .

كما قام بيكون بشن حملة على المنطق الأرسطي القديم، وأكد أنه غير صالح للوصول إلى الحقيقة . ذكر بهذا الصدد الدكتور نجيب محمود بالقول أنه " **وسيلة عقيمة لأنك مضطر فيه أن تسلم بمقدماته تسليماً لا يجوز فيه الشك وعلى ذلك فستجد نفسك منتقلاً من قضية إلى قضية أخرى تلزم عنها ثم من هذه إلى أخرى تلزم عنها دون أن يؤدي ذلك إلى علم جديد** " .[2]

---

(1) حسن محمد حسن : النظرية النقدية عند هربرت ماركيوز ، الطبعة الأولى ، (دار التنوير للطباعة والنشر . بيروت. لبنان . 1993 ) ص48 - 53 .

(2) كريم متي : الفلسفة الحديثة ، مرجع سابق ، ص 39 .

لذلك بحث بيكون عن طريقة جديدة لاكتشاف الحقائق بعيدة عن القياس الأرسطي، وذلك من أجل فرض سيطرتنا على الطبيعة وتسخيرها لخير الإنسانية حيث أكد بيكون ذلك في كتابة ( الأرغانون الجديد )، أي الآلة الجديدة التي ابتكر فيها تلك الطريقة التي ساهمت في الاكتشافات العلمية تقوم هذه الطريقة على "... الاستقراء الصحيح " . [1]

دعم هذا الفيلسوف الفرنسي ( رينيه ديكارت ) 1596-1650 وذلك من خلال تطوير المنهج العلمي الجديد الذي جاء به بيكون ، فقد رأى ديكارت أن الكون تحكمه قوانين طبيعية وميكانيكية بعيدة عن أي أساطير دينية ؛ ورأى أن الأسباب الكامنة وراء الأحداث أسباب مادية وما الطبيعة إلا نظام متسق من القوانين القابلة للخضوع و لسيطرة الإنسان. [2]

جاء عن أفكار ديكارت اتجاهان الأول عقلي مثله كُل من اسبينوز ، و ليبنتز بالقرن السابع عشر . هذا الاتجاه يرى أن للعقل القدرة على الوصول للمعرفة الكاملة ، و الاتجاه الثاني تجريبي ومن مفكريه لوك ، وهيوم، و باركلي يرى هذا الاتجاه أن العقـــل ليس سوى صفحة بيضاء ، وأن جميع الأفكار مردها للحواس والتجربة ؛ وقد حطم لوك بهذه الفكرة الأساس اللاهوتي والميتافيزيقي الذي يرى أن هناك حقائق مطلقة لا تمس ، وهذا ما دعم حركة التنوير، و الإرشاد لفولتير والثورة الفرنسية. بينما رأى هيوم أن لا وجود لأي سيطرة على الفرد أو المجتمع من قبل الأفكار الخارقة .

وكان لكانط دور في الحياة الفكرية بالعصر الحديث وذلك بإرجاع مكانة العقل التي ألغاها الاتجاه التجريبي عندما حصروا المعرفة عن طريق الحواس فقط . وفي ذات الوقت سلم بالتجربة كأساس للعلم ، ولذا اعتبر كانط موفقاً بين الاتجاه العلمي ، التجريبي والعقلي . [3]

لقد كانت أفكار هذا العصر رد فعل عنيف ضد سيطرة الكنيسة . تميز بالإنتاج العلمي ، والانفتاح على كافة الأصعدة سوى الأنشطة الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية ؛ فظهرت قيم البرجوازية ؛ ونمت حركة التجارة والقيام بالرحالات البحرية لاكتشاف العالم .

قام الإنسان في هذا العصر بأفعال أتسمت بالجرأة ، ونمت عنده أحساس الفرد الحر، وانعكس ذلك على سلطة الدين والدولة بسبب رغبة الإنسان في اكتشاف ذاته ؛

---

(1) المرجع السابق : كريم متي : الفلسفة الحديثة ، ص 40.

(2) المرجع السابق : ص 40 .

(3) حسن محمد حسن : النظرية النقدية عند هربرت ماركيوز ، مرجع سابق ،ص 52،53.

بذلك اعتبرت المرحلة الحديثة تطوراً وتحرراً للفرد من سيطرة كل الأفكار القديمة التي قامت بمحاصرته في بوتقة ( الطبيعة – الله ) انتقل الإنسان في هذه المرحلة من تفسير الطبيعة تفسيراً لاهوتياً إلى تفسيرها تفسيراً علمياً ؛ وتسخير المعرفة لخدمة الإنسان وتحسين ظروف حياته .

كما تمت عند الإنسان في هذه المرحلة الثقة والقدرة للسيطرة على الطبيعة باستخدام العقل . وإن له القدرة والإرادة ليصل إلى الكمال وليكون سيد نفسه ، وهذه القدرة كافية لتحقيق سعادته .

إن اعتراف المرحلة الحديثة بتفرد الإنسان كونه الغاية من الخلق الإلهي ، ورفض تحديد وجوده في ضوء علاقته بالإله ، جعل الإنسان كفرد ينال منزلة رفيعة في هذا العصر، واعُتبر جدير بالإعجاب، وأصبح مسؤلا عن صنع الحياة بأسرها من خلال العالم الواقعي .

ومن هنا ظهرت البذور الأولى للخطاب الليبرالي ، وذلك للعناية و الرفع من قيمة ( الفرد ) والإيمان بقدرته على تحقيق ما يصبو إليه من خلال امتلاك الحرية المطلقة .

إن الوجود الإنساني جدير بالإعجاب لأنه هو الوجود الحقيقي الحر، والمبدع وهو الذي بوسعه تحقيق التقدم والسعادة لهذا الوجود، فلقد سعت المرحلة الحديثة دائماً إلى تفسير الذات الإنسانية ؛ كون ( الفرد ) هو مركز اهتمامها بعيد عن أي سلطة خارجية .

وفي عام 1462- 1525 جاء بيتر وميونازي ببحث يدرس فيه الروح الإنسانية والأخلاق الإنسانية ، وذلك في رسالة مشهورة ( خلود الروح ) بحث فيها عن مشكلة خلود الروح في ضوء العقل الفطري فيقول: إن العقل الفعال لا يكون مستقلاً عن الظروف الطبيعية، لان كل تفكير يتطلب الإدراك الحسي ؛ كانت لهذه الآراء تأثير خطير في ميدان الأخلاق الإنسانية ؛ فلم يكن في السابق وجود للفصل بين الروح والجسد .

وهنا أصبح الخير لذاته والشر لذاته ، وليس طمعاً في طاعة الإله ، وأصبحت الغاية الطبيعية للفرد هي طبيعته الإنسانية . [1]

كما تتبع نقولا مكيافيللي عام 1469-1527 خطوات سير المفكرين الإنسانيين ؛ فوضع نصب عينيه تحرير الإنسان من الأغلال التي قيدته به الكنيسة . والارتقاء إلى مستوى أرفع من خلال توفير الحكمة والقوة .

---

(1) كريم متى : الفلسفة الحديثة ، مرجع سابق ، ص 15.

سابقاً قامت الكنيسة بالتأكيد على أن غاية الإنسان هي الآخرة ، وكانت تحث على الإعراض عن الجاه الدنيوي ، وتمجد التواضع ونكران الذات ، وبذا وهنت عزيمة الإنسان ( الفرد ) في ضوء مواجهة الطبيعة ؛ كما سلمت مقاليد الأمور لرجال ذوي خيره وعنف يفضلون تحمل المعاناة والظلم على المقاومة ؛ إلا أن كل ذلك اعتبر قمع للحرية الفردية . فكان لأراء مكيافيللي آنذاك دور هام في الحياة الفكرية السائدة وخاصة فيما يتعلق بحرية الإنسان ، وأما بعد وفاته فقد أصيبت البلاد بنكسة ورد فعل قوي ضد حركة التحرر التي نادى به ، وأصبح النفي والموت مصير كل من أخذ بالأفكار الجديدة .

هكذا كانت ايطاليا مركز النهضة . فهي من أوجدت النظرة الفلكية ؛ والعلمية والأخلاقية ، والثقافية ؛ وكانت فرنسا من البلدان التي سارت مسار ايطاليا بالأخذ بأسباب النهضة . تجلى ذلك في فكر ( مونتين) 1532-1592 الذي نادى . بالفردية ودعا إلى الشك بسبب الخصومات السياسية والدينية القائمة آنذاك .

" ... **وقد أدرك مونتين أن الفرد أصبح قادراً على أن يعتمد على أفكاره الخاصة ويهتدي بها بعيداً عن تأثير النقل واللاهوت** " . [1]

إن لأراء كل من مكيافيللي ومونتين ارتباطاً قوياً بالخطاب الليبرالي ؛ و يتضح ذلك من خلال دعوة الفرد للتحرر من أي سيطرة خارجية على أن يملك القوة والقدرة على التفكير، والإيمان بقدرة الفرد كانسان بتحقيق ما يصبو إليه بالعلم والمعرفة ، ويشترط مونتين على الإنسان ليصل للمعرفة امتلاك الأدوات و الوسائل لكي يتمكن من تحقيقه حريته .

أما ( توماس هوبز ) 1588-1679 فقد تعامل مع قضية الحرية من خلال أطروحته الفلسفية ، والاجتماعية كونه تشكل أساس لمنطلق الخطاب الليبرالي فذهب إلى أن الإنسان يتميز بنوع من الأنانية التي تجعله يهدف إلى تحقيق أهدافه ، ومنافعه بصرف النظر عن الآخرين ومصالحهم ؛ وهذا الأمر يشعل العنف بينهم .

عُرف هذا عند هوبز ( بالذئبية ) ، وكانت سبباً في اضطهاد الفرد ، وتفضيل مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد .

---

(1) المرجع السابق : كريم مي : الفلسفة الحديثة ، ص18.

في حين عكست قناعات ( جون لوك ) 1632-1704 الفكرية المبنية على الفلسفة العقلانية في مقاربة الحقيقة ؛ فجاءت متميزة بالمرونة والنسبية وكانت كتبه ( الحكومة المدنية ، التسامح ، رسالة في العقل الإنساني ، محاولة في الفهم الإنساني )، تؤكد على الدور الحاسم للفرد وتجربته الواقعية . ولاقى هذا المذهب مكانة في الخطاب الليبرالي تاريخياً لما توليه الليبرالية من مركزية للفرد فلسفياً وتاريخياً .

إلا أن لوك عندما يؤكد على نفي الطابع الشخصي لتشكل المعاني ، فإنه يكون قد احتكم إلى الموضوعية الناتجة عن العلاقات بين الأشياء ويدحض بهذا ( المذهب الغريزي ) في مجال تشكل المعاني الذي يعود بجذوره من الناحية التاريخية إلى الفلسفة اليونانية فهو يريد أن يربط المعرفة والحقيقة بالملاحظة والتجربة ويرى أن " **لا يوجد في العقل شيء إلا وقد سبق وجوده في الحس** " . [1]

ولأن قيمة المعرفة تتأتى من كونها تقدماً الحقيقة ، وهذه الحقيقة تكمن في المطابقة بين المعاني والأشياء مشروطة بالواقع القائم ؛ هنا تكون الفكرة المركزية في خطاب الليبرالية الذي ينطلق من الواقع . والذي يؤكد على واقعية الحقيقة معرفياً و فردية الإنسان اجتماعياً ، وحرية العمل والإنتاج اقتصادياً ، هنا تكون فلسفة جون لوك أيضاً واقعية عندما وضعت الإنسان كفرد تحت هيمنة توليتارية العقل المجتمعي بموضوعية الحقيقة التي يزعم أنها تتطابق مع الأشياء دون أن تكون هناك برهانية فلسفية على الفكرة المطابقة بين الفكر والأشياء . وهذا ما سيناقش في سياق الدراسة .

لقد أكدت الفلسفة الليبرالية على حرية الفرد ، وحرية الفكر والرأي السياسي والممارسة الاقتصادية. انطلاقاً من مركزية العقل ، وضرورة سيطرته على الإنسان ؛ على أن يكون هذا هو المدخل لتنظيم الاجتماع الإنساني وإلغاء لمناسده .

لذلك كان من الطبيعي انطلاقاً من هذا الخطاب أن يذهب مفكرو الليبرالية أمثال (جان جاك روسو) 1712-1778 إلى ضرورة العمل على نشر الفكر الليبرالي من أجل تكوين الإرادة الاجتماعية لمجموع البشر في المجتمع .

---

(1) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ، الطبعة السادسة ، (دار المعارف. القاهرة.مصر. د.ت ) ، ص 146.

وبالتالي يضبط السلوك الاجتماعي للفاعلين الاجتماعيين وفق تصور توليتاري جمعي ؛ ويعتقد روسو: أن من شأن هذا التصور أن يتخذ السلوك على أساس وحده فكرية جماعية ؛ وتجعل الجميع خاضعين للرأي العام أو خاضعين للقانون . إذا أن المجتمع القائم على ( العقد الاجتماعي) يؤلف شخصاً عاماً .

كذلك اعتبر ( جون ستيورات مل ) 1806-1873 من مؤسسي الفلسفة الليبرالية، وقد أطلق عليه أب الفلسفة الليبرالية ، وذلك من خلال أفكاره عن تطبيق أكبر قدر من السعادة على أكثر عدد من أفراد المجتمع .

ورأى بأن حجم ومجال الحرية الفردية الخاصة يجب أن لا تتجاوزه أو تنتهك حرمته أي سلطة؛ وجعل من الحرية الفردية شيئاً مقدساً . صرح بذلك في مقال مشهور " لا مجال لأي تقدم حضاري ما لم يترك الناس أحراراً يعيشون كما يحلو لهم و "بالأسلوب الذي يناسبهم". وقد لا تكون هناك فرص للإنجازات المبدعة والعفوية، ولا عبقرية فكرية أو شجاعة أدبية. إن القدرات العادية الضئيلة تحطم المجتمع ولا تساعده في تقدمه أبداً، وكما أن ثقل الأعراف يسحق المدنية، قيم و مبدع ، وهذا ما ينتج عن الالتزام الدائم بالأعراف والخضوع لها أو الامتثال لأوامرها، وقد لا ينتج عن هذا إلا كائنات بشرية ذات قدرات ضئيلة، وطاقات واهنة مقيدة وضيقة التفكير " . [1]

بهذا نجد جون ستيورات مل ينظر من خلال الاتجاه الليبرالي الذي ينادي بالحرية والمطالبة بالحقوق المدنية ، والحرية الفردية و الاحتجاج ضد اضطهاد الفرد، وإذلاله ؛ وتجاوز حقوقه العامة ؛ والتحذير الجماعي والدعاية المنظمة ، كل تلك الشعارات تنبع من هذا المفهوم الذي يؤكد على أهمية الفرد واحتياجاته وسعادته .

إن غياب الفردية التي تؤكد عليها الليبرالية تحت عباءة الجماعية عندما تلتهم التوليتارية الفكرية وتجلياتها السوسيولوجية للفرد تحت صيغة " الإرادة المجتمعية العامة مستقيمة دائماً، وتحت صيغة احترام العقد الاجتماعي أو المجتمع الذي يشكل شخصاً عاماً " . [2]

---

(1) ايزايا برلين : حدود الحرية ، ترجمة هانا طالب ، الطبعة الأولى ، (دار الساقي . بيروت. لبنان . 1992 ) ، ص 18

(2) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ، مرجع سابق ، ص 204.

وإن أكد الليبراليون على الأولوية الاجتماعية الواقعية بالنسبة للاهوت الغيبي إلا أننا نراهم يقفون مع حركة الإصلاح الديني ، ويقفون ضد سلطة رجال الدين ، وكل ذلك لفصل المجتمع عن الدين ، أو الدولة عن الدين .

كما قامت رسالة الليبرالية على حماية الفرد والدفاع عن سيادته : وصيانة كرامته ؛ ومنح الفرد حقوقه كاملة ، وعلى الفرد أن لا يتخلى عن هذه الحقوق لأجل الآخرين ؛ لأن ذلك لن يحقق له وجوده وكينونته .

هكذا نشأت العوامل الاجتماعية، والفكرية، والثقافية عبر القرنين السابع عشر والثامن عشر، أما العوامل السياسية والاقتصادية التي كانت وراء ظهور العقل الليبرالي جاءت بسبب الرغبة في البحث عن مصدر شرعي جديد بعيد عن هيمنة الكنيسة من أجل تأسيس شرعية الحكم ، و لقد وجدوا في الثروة هذه القوة الشرعية .

وبالتالي طالبوا بضرورة تدخل الدولة ، لما تؤديه لهم من آمن وحماية للتجارة في الداخل والخارج ، حيث كانت الحدود بين الإقطاعيات تعرقل مرور التجـــارة ، وتـــرفع التكلفة ؛ وبالتالي ينخفض الربح فكانت الحاجة إلى الدولة لإلغاء هذه الحدود ؛ و لكي تسمح لحرية انسياب التجارة ، وزيادة الثروة .

و لذا كان من الضروري التعرض إلى تطور الأوضاع الاقتصادية خلال هذه المرحلة وما بعدها ، ونتائج تطورها على الفكر الإنساني .

## الليبرالية و تطور الأوضاع الاقتصادية :

لقد عدت الليبرالية عقيدة اقتصادية قبل أن تكون أيديولوجيا سياسية فهي لا تؤمن إلا بالسوق الحر والمبادرة الفردية ، والتنافس الحر بين البشر؛ و المجتمع . ( دعه يعمل، دعه يمر) .

لذا كان من الضروري البدء بفكرة بسيطة عن تطور الأوضاع الاقتصادية لبيان المرحلة التي ساد فيها فتح المجال أمام الفرد ليمتلك حريته وسيادته في المجتمع .

تميزت مرحلة أواخر العصور الوسطى وحتى أواخر القرن الثامن عشر بتطور هام في الوقائع الاقتصادية خاصة بدول أوربا الغربية كان لها الأثر على تطور العالم ؛ فقد أدت الاكتشافات الجغرافية إلى توسيع نطاق التجارة، وزيادة المعادن الثمينة، ودخول المنتجات الجديدة فخلق ذلك ثروة هائلة، ترتب عليها تفاوت طبقي واضح بين أفراد المجتمع، وأصبح فيه التجار هم سادة العصر، كما إن نزعة المجتمع للكسب ساعد على الاكتشافات التقنية الجديدة في وسائل وأدوات الإنتاج .

قامت على أنقاض الإمارات والممالك الإقطاعية السابقة دول حديثة موحدة تحكمها قوة مركزية قوية ، برر ( مكيافيللي ) Machiavelli 1427 -1469 : فيه كل وسيلة يستخدمها الأمير لتحقيق هذه القوة . ففي كتابه ( الأمير) دعا إلى ضرورة الفصل بين السياسة والأخلاق والدين .

جاءت مرحلة الإصلاح الديني وحركة النهضة التي عمل العقل فيه على التحرر من المبادئ الدينية وسيطرة الكنيسة ؛ لتؤكد للفرد حق الكسب ، والبحث عن الثروة .

أيد ذلك (كالفن ) Calvin 1509-1564: وأكد " **بأن النشاط الاقتصادي ليس ذميماً في حد ذاته، وبأن تحقيق الأرباح والثروة دليل على رضاء الرب على المرء** ".[1]

وهكذا بدأت الأفكار والأنشطة الاقتصادية تهيء لبدء المرحلة الحديثة .

---

(1) عادل أحمد حشيش: تاريخ الفكر الاقتصادي " دراسة النظرية- النقدية " ، بدون طبعة (دار النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت. 1974 ) ، ص 16 .

ولكن قبل الدخول الفعلي في مرحلة الليبرالية كانت تسيطر فكرة الفيزيوقراطية ؛ ويوجد اتفاق عام بين المفكرين أن الفيزيوقراطيين هم الذين مهدوا الطريق لليبرالية الاقتصادية؛ وبحسب المذهب الفيزيوقراطي تعتبر الزراعة أو الأرض هي المصدر الرئيسي أو الوحيد للثروة بما هي محرك الحياة الاقتصادية ؛ يضخ الفلاحون الثروة في دورة الاقتصاد ومن خلال شراء الإنتاج السلعي الصناعي ، ومن ثم تعود إليهم ثرواتهم التي بذلوها لقاء تلك السلع ، من خلال شراء الإنتاج الزراعي للفلاحين .

من هنا يجب على الدولة أن تحمي الثروة الاقتصادية الطبيعية ، وذلك عن طريق إيجاد تشريعات وقوانين تحدد وتحمي العمل والإنتاج والتبادل السلعي وعملية المنافسة بين المنتجين .

ويعتبر المذهب الفيزيوقراطي نوعاً من التجسيد لنمط الإنتاج الإقطاعي القائم على زراعة الأرض ، حيث لم يكن حينذاك للمراكز الحرفية ( أي في القرنين السادس عشر والسابع عشر ) أهمية كبيرة .

وحين بدأ عصر الإنتاج الصناعي في انجلترا ( النصف الأول من القرن الثامن عشر ) كان من الطبيعي أن تظهر أفكار جديدة لتعكس العلاقات الاقتصادية الاجتماعية الجديدة . وقد ظهر في هذا الإطار كتاب آدم سميث( بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم) عام 1776.

أخذ الفكر يحاول البحث عن زيادة الثروة فظهرت مع بداية القرن السادس عشر ( مدرسة التجاريين ) التي تعد الإطار التنظيمي لتراكم رأس المال ، و احتلت التجارة في هذه المرحلة المكانة الأولى للاعتقاد بأنه النشاط الجديد القادر على تحقيق الثروة للدولة ؛ بعد أن كانت الزراعة النشاط المعتمد ، أصبحت الصناعة العامل الوحيد لازدهار التجارة ، وسميت هذه المرحلة ( بالرأسمالية التجارية ). التي تميزت بتدخل الدولة في الحياة الاقتصادية وانحصرت غاية الرأسمالية التجارية في قوة الدولة وغناها بينما رفاهية الفرد كانت فكرة غريبة عليهم ، ولم يدور في أفكارهم أن يكون هدف السياسة الاقتصادية العمل على إشباع رغبات وحاجات الفرد وزيادة رفاهيته ؛ فهي لم تثق في قدرة النشاط الفردي وحده للوصول و لتحقيق المصلحة الجماعية ؛ وبذلك دعت إلى تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي .

مع حلول القرن الثامن عشر تلاشت أفكار التجاريين بسبب إنكار المساندة للدولة في مواجهة الفرد ، وظهرت أفكار المذهب الطبيعي القائم على التسليم بمجموعة مبادئ ترى أن هناك نظاماً طبيعياً يسيطر على الظواهر الاقتصادية وهناك قوانين طبيعية لا دخل لإرادة الإنسان في إيجادها ؛ تحكم مظاهر الحياة بناءً على اعتبارات جوهرية توجه الأفراد وتكفل استمرار التقدم ، أساس هذه الاعتبارات المصلحة الشخصية ، حيث إن تحقيقها يؤدي إلى تحقيق المصلحة العامة .

تقوم أفكار هذا المذهب على معارضة تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي حيث يتوفر المناخ لممارسة الحرية الاقتصادية القائمة على مبدأ المنافسة والدفاع عن الملكية الخاصة ؛ ويرجع الفضل لمفكري هذا المذهب في الدعوة بإطلاق الحرية الاقتصادية في صورتها الكلاسيكية للذين عرفوا برواد المذهب الحر.

تبلورت سياسة المذهب الطبيعي بالمقولة الشهيرة : ( دعه يعمل ، دعه يمر ) ؛ إلا أن هذا الفكر يقف ضد تدخل الدولة بشكل عام بل إن للدولة دوراً هاماً يتمثل في ضمان الحماية للأفراد ، وصد العدوان الخارجي ، وحماية الملكية الفردية ، والقيام بالأعمال العامة .

اعتبر هذا أساساً للمذهب الفردي الحر، وذلك لترويجه للحرية الإقتصادية ، وإن النشاط الاقتصادي يجب أن يترك للأفراد ، وذلك انطلاقاً من الأيمان بالتوافق بين الصالح الخاص ، والصالح العام ، وعدم وجود تعارض بينهما . [1]

أسست هذه الأفكار لما يعرف في القرن التاسع عشر بالمدرسة التقليدية (الكلاسيكية) المرتبطة بالتطور الذي شاهدتها الدول الأوربية . والذي أحدث تغيرات هائلة في كافة النواحي السياسية والاجتماعية و الاقتصادية ؛ حيث شهدت الدول الأوربية انتقالاً من مرحلة الإقطاع إلى مرحلة الرأسمالية التجارية ، و وصلت إلى ما يعرف في القرن التاسع عشر بالثورة الصناعية التي ظهرت في انجلترا، والتي انتشرت لتعم العديد من الدول الأوربية .

---

(1) المرجع السابق : عادل أحمد حشيش ، تاريخ الفكر الاقتصادي ، ص 97 - 126.

إن ما جاءت به الثورة الصناعية من اختراعات أدت لتغير في الإنتاج وذلك لاستعمال الآلات الجديدة . المتمثلة في التطور التكنولوجي ومع استخدام الآلية الصناعية على نطاق واسع ، وزيادة الصناعات الجديدة ، وزيادة رؤوس الأموال . عرفت هذه المرحلة (بالرأسمالية الصناعية) ؛ لضخامة رؤوس الأموال الموظفة في الصناعة .

**[ " فقد ساد الشعور بأن النظام الرأسمالي في صورته الجديدة ، فيه من القوة والحيوية ما يمكنه من أن يقوم وينمو بنفسه بمزايا الذاتية دون أي ضرورة لتدخل الدولة لحمايته. وبالتالي فقد تميزت الرأسمالية الصناعية بسياسة الحرية الاقتصادية... فقد جعل النشاط الاقتصادي من اختصاص الأفراد وليس من مهمة الدولة التي كان من الواجب أن تقتصر مهمتها على حفظ الأمن والزود عن الوطن ضد الاعتداءات... وهو ما يعرف تاريخياً تحت وصف " الدولة الحارسة " " ] .** (1)

التطور السائد في هذه الفترة على كافة الأصعدة يتجه إلى التأكيد على أهمية الفرد باعتباره الوحدة الأساسية التي ترتبط بها كل الأحكام .

وتميزت الرأسمالية الصناعية بسيطرة النزعة الفردية على تصورات مفكريها وتأملاتهم في حل المشاكل الاقتصادية التي تعرضت لها في مرحلة متقدمة ، ومن أهم المفكرين أدم سميث، وديفيد ريكاردو، و مالتس، وجان باتست ساي ... وغيرهم

فقد أكد أبو الليبرالية الكلاسيكية الاقتصادية المفكر ( أدم سميث) 1773-1790 في مولفة الشهير ( ثروة الأمم ) دفاعاً عن الحرية الاقتصادية إن " ... الإنسان ، تحركه بالطبيعة ست دوافع هي: النفس، والعطف، والرغبة في الحرية ، والإحساس بالتوافق ، وعادة العمل ، والميل إلى المقايضة والتبادل بين الأشياء . وعلى أساس هذه المصادر للسلوك، فإن كل إنسان هو بطبيعته أفضل حكم على مصلحته ولذلك ينبغي إفساح الحرية له للسعي وراء مصلحته بطريقته الخاصة ، وذلك على أساس أنه إذا ما ترك لنفسه فإنه لن يحقق أفضل ميزه لنفسه فحسب، بل وسوف يعمل أيضاً على تنمية الخير المشترك للمجموع " . (2)

---

(1) المرجع السابق : عادل أحمد حشيش ، تاريخ الفكر الاقتصادي : ص 141 ، 142 .

(2) المرجع السابق : ص 148.

وحلص أدم سميث بصفة جوهرية مميزة لسلوك الفرد ( المصلحة الشخصية ) حيث رأى أن مبدأ الانسجام الطبيعي بين سعي الأفراد وراء مصالحهم وبين مصلحة الجماعة ، فهولاء الملايين من البشر الذين لا يحركهم سوى حافز المصلحة الخاصة؛ يعمل كل واحد منهم دون وعي لتحقيق المصلحة العامة . هذا ما أطلق عليه (اليد الخفية) وبذلك تتحقق مصلحة المجتمع بصورة أكثر فاعلية و بدون قصد . طبقت تعاليم الفكر الحر الكلاسيكي في الربع الأخير للقرن الثامن عشر؛ وحتى نهاية الثلث الأول من القرن العشرين ؛ إلا أن ظهور عدد من المفكرين المحبذين لتدخل الدولة في المجالين الاقتصادي ، والاجتماعي ، أمثال الاشتراكيين ؛ والتعاونيين . الذين رأوا أن الحرية الاقتصادية يجب أن لا تكون بغير ضوابط لأنها ستؤدي إلى أثار اقتصادية واجتماعية غير سليمة .

فعملوا على كشف مساوىء النظام الاقتصادي الحر؛ ومع تطور النظام الرأسمالي القائم؛ ظهرت طبقة جديدة بائسة في مراكز تجمع الثروة ( طبقة العمال بالمصانع ) توالت الأزمات الناتجة عن تكريس الإنتاج، وفقدت الرأسمالية الطابع التنافسي وسيطر عليها الطابع الاحتكاري، الذي أساء للمجال الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والإداري. الذي كان يخدم مصالح المحتكرين.

زاد ذلك استغلال هذا النظام ؛ الأطفال والنساء واستخدامهم في أعمال غير صحية وبدائية بساعات عمل طويلة في جميع المدن والمراكز الصناعية مقابل أجور زهيدة ؛ وساعدت أفكار الاشتراكيين المثاليين والتعاونيين في تخفيف حدة مساوي النظام الرأسمالي، إلا أن ظهور أفكار الذين يأسوا من إصلاح هذا النظام منهم ( ماركس ) وأتباعه الذين رأوا أن الإصلاح ضرباً من الخيال . وقد برهن ماركس على ذلك . بتحليل الرأسمالية ؛ والمادية الجدلية والتاريخية . إن هذا النظام من واقع التناقضات داخله سينهار وسوف يثور العمال ضده ؛ وإحلال مجتمع آخر محله ؛ مجتمع بلا طبقات .

فقد كان هدف ماركس القضاء على الرأسمالية ، و تثبيت النظام الاشتراكي كنظام بديل ؛ وكمرحلة انتقالية إلى أخرى أعلى منها ( الشيوعية ) . [1]

---

(1) المرجع السابق : عادل أحمد حشيش ، تاريخ الفكر الاقتصادي ، ص 637 .

لكن الرأسمالية لم تنهر – حتى الآن – ، بل ظهرت لديها فرص تاريخية سمحت لها بتجديد نفسها ؛ عبر إحداث شكل من القطيعة التجديدية ( وليس النوعية) مع تراثها ؛ من ما جعلها لاحقاً تتخذ هيئة جديدة، وهي ( الليبرالية الجديدة ).

## عصر الأنوار وارتباطها بالخطاب الليبرالي :

يقصد بالأنوار الحركة الفلسفية والفكرية التي انتشرت في أوربا خلال القرن الثامن عشر؛ والتي اعتمدت العقل والعقل وحده أساساً للحياة الجديدة ، فقد جاءت لتعيد للعقل مكانته وتؤكد على أهميته. نادت هذه الحركة الفكرية بتحرير الإنسان ؛ و إلغاء هيمنة الكنيسة على الشئون العامة ، وحرية المعتقد ورفض الاستبداد الإقطاعي .

فهي أول تعبير حقيقي عن رفض الإنسان للعالم القديم ، و ارتبطت هذه الحركة بأعمال مونتسكيو، وفولتير،...وغيرهم من المفكرين التي اتسمت أفكارهم بسمة واحدة ؛ وهي انتصار العقل في ميدان العلوم والتقنية وتسخير هذه العلوم لتقدم وسعادة الإنسانية .

كما سعت هذه الحركة الفكرية إلى محاولة إعادة حرية الإنسان ، واعتبره فولتير " **أكثر العصور استنارة** " . [1] وبذلك اعتبر هذا العصر هو عصر سيطرة الإنسان ، وإعادة تنظيم الحياة الاجتماعية و الاقتصادية .

يذكر الأستاذ فتحي التركي " **لقد أنبتت تقاليد الأنوار فيما يخص تحديد الفكر بإثبات العقل واستبعاد اللامعقول على مستتبعات العصر الكلاسيكي الذي طور معطيات الفهم والفكر في عصر النهضة** " . [2]

وهو العصر الذي كان بداية الانفتاح على مرحلة الحداثة ، وأساساً للحركات الثورية والدينية والسياسية . فقد نشد مفكروا هذه المرحلة التحرر والحرية واستنكار معطيات الكنيسة على كافة الأصعدة ، فنشأ على الصعيد الاجتماعي و السياسي تفكير جديد اعتمد المجتمع أساساً لكل معطيات الحياة بدلاً عن الإله . شكلت عقلانية الأنوار قطيعة مع عقلانية الخطاب الديني؛ و أسست معظم مفاهيم عقلانية الحداثة الغربية . [3]

---

(1) يعقوب ولد القاسم: الحداثة في فلسفة هيجل ، الطبعة الأولى (مركز الكتاب والنشر . القاهرة، مصر . **2003** ) ص **60**

(2) المرجع السابق : ص **61** .

(3) المرجع السابق : ص **72**.

بعد هذه المرحلة جاءت الثورة الفرنسية 1789 تطبيقاً لأراء مفكرين الأنوار " **وهي تحقيق ما كان يراه هيجل نموذجاً للحرية الإنسانية** " . [1]

واعتبر فكر هيجل ما جاءت به الثورة الفرنسية ؛ فهو يرى فيه العالم الحقيقي الذي يلائم الإنسان كونه ينطلق من أساس عقلي ، وتعتمد مبادئ الحرية والمساواة واستقلال الإرادة الفردية.

سادت الفترة قبل اندلاع الثورة الفرنسية أوضاع كان من المفترض أنها اختفت . كاستمرار المجتمع الإقطاعي المنقسم سياسياً والمفكك اجتماعياً ، ورغبة الفرد في إيجاد تبرير للمساواة الإنسانية بالتوجه نحو السماء من جديد . فقد جاءت الثورة تعبيراً عن هذا الخلل ؛ ورفض الفرد هذا الواقع ، ورفض كل قديم ؛ ولذا جاءت حلاً للتناقض الكبير الذي يعيشه الإنسان .

لقد استمر الوضع على هذا الحال حتى مجيء الثورة عندئذ كما يقول هيجل " **اندثرت مملكة العقيدة مثلما اندثرت مملكة العالم الواقعي ، و أنتجت هذه الثورة الحرية المطلقة** " . [2]

وقد أراد هيجل بهذا أن يردم الهوة الفاصلة بين العقل والواقع أو بين الفكر وحركة التاريخ ، لذلك رأى أن الحركة التاريخية هي حركة عقلانية . فهو الذي قال عبارته الشهيرة ( كل واقعي عقلاني ، وكل عقلاني واقعي ) .

بذلك حاولت الفلسفة الهيغلية أن تجسر المسافة بين الذات العارفة والموضوع الذي كان قد أبقى عليه كانط ، عندما وضع ( الشيء في ذاته ) خارج التمكين العقلي منه، معتبراً محاولة العقل معرفته هو استعمال غير مشروع للعقل ؛ كما جاء في نقد العقل المحض ؛ وكما يتأوله ( جيل دولوز ) في دراسة القيمة عند كانط . [3]

فقد كانت نظرية المعرفة في العقلانية القطعية تقوم على فكرة مبدئية : التطابق بين الذات والموضوع ، أو بين نسق الأفكار ونسق الأشياء . هذا التصور كان مطروحاً

---

(1) المرجع السابق : يعقوب ولد القاسم ، الجدالة في فلسفة هيجل ، ص 75.

(2) المرجع السابق : ص 85 .

(3) جيل دولوز : فلسفة كانط النقدية . تعريب أسامة الحاج ، بدون طبعة (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت، 1997) ص 42،43 .

لدى ديفيد هيوم ؛ ولكي يبرهن هيوم على تصوره هذا كان يذهب إلى أن مبادئ الطبيعة متفقة مع مبادئ الطبيعة البشرية ( المعرفة مع الطبيعة ) ؛ ما جعله مضطراً للتذرع صراحة بفكرة الانسجام المسبقة.

عليه فكرة الثورة ( الكوبرنيكية ) تتجلى لدى كانط باستبدال فكرة انسجام بين الذات والموضوع بمبدأ خضوع ضروري من الموضوع للذات .

وهكذا تصل الثورة الكوبرنيكية إلى ذروتها . عندما تضع الكائن العاقل في موقع المشرع في ملكة المعرفة بحيث هو الذي يأمر و يقود . هو يرى أن البشر (شرعوا الطبيعة). وفي هذه اللحظة المعرفية لدى كانط تتجلى نظرته المثالية الذاتية .

وجاء هيجل ليتقدم خطوة جديدة في خطابه الفلسفي عن كانط . فذهب إلى أن ( الشيء في ذاته ) الكانطي ؛ قابل للمعرفة بدليل إمكانية إدماجه داخل شروط المعرفة ؛ وبهذا نفذ هيجل إلى المثالية الموضوعية .

فرأى أن حدي المعرفة هما الذات و الموضوع أولاً ؛ وأن هناك علاقة جدلية بينهما عبر ثلاثية : الأطروحة والطباق والصيرورة . أو ( العقل ، الطبيعة ، التاريخ ) ؛ لقد أراد هيجل أن يثبت أن التاريخ والمطلق متحايثان ، حيث هما وجهان لحقيقة واحدة .

وما كان هيجل ليتوصل إلى هذه النتيجة لولا أنه أحدث زحزحة في بنية النقد الفلسفي الذي قدمه كانط . فقد صار النقد مع هيجل ليس فقط برهان على محدودية العقل، وبالتالي رفض إمكانية تجاوز المعرفة لأدواتها وميدانها الواقعيين ( الأشكال القبلية للمعرفة في بنية العقل ) ، ومادة المعرفة المستقاة من التجربة ، كما هو الحال عند كانط، ولكن بدأ النقد الآن يوجه إلى المصير الإنساني بذاته .

وبهذا كان هيجل حقاً أول فيلسوف حاول تشريح تجربة الحضارة الإنسانية في إطار تلاحم إنتاجاتها المتنوعة المتداخلة ، و وفقاً لمنطلقها الجدلي المتنامي .

من هنا كان محور الاهتمام لديه ، هو أن يبرهن على شمول حضارة الإنسان للكلي والجزيء وبالتالي فإن المطلق ، الذي امتنع على فلسفة كانط إثباته أو نفيه . ( النقائض التي أوردها كانط في نقد العقل المحض ) إنما هي الآن متحقق من خلال سياق الشكل : الديالكتيك ، ومن خلال نمو المضمون : مراحل تكون المقولات التي بدلاً من أن تبقى أشكالاً

قبلية فارغة في بنية العقل كما هي عند كانط ، فإنها تمتلئ الآن بمضامين لا تكف عن النمو والتحقق فيتولد عنها سياقات متجاورة متفاعلة باستمرار ، كأنظمة اجتماعية وسياسية وقانونية ، وأحداث مصيرية ( أحداث التاريخ ) ؛ وتطلعات فكرية وروحية وفنية تتجسد داخل الإنتاجات الاجتماعية والتاريخية .

**" إن الأهمية الثورية الحقيقية لفلسفة هيغل تكمن في أنها كانت ، بالفعل ، تنبذ التصورات حول الطبيعة النهائية لنتائج التفكير والنشاط الإنسانيين . فكل ما هو موجود في حياتنا وتفكيرنا على السواء يتحول إلى نقيضه ، وكل واقع يتحول إلى لا واقع ، وكل معقول إلى لا معقول ، وإن ما كان في السابق معقولاً وواقعياً وضرورياً تبطل ضرورته مع الوقت ، كم يفقد حقه في البقاء ويضيع معقوليته " . (1)**

حاول ماركس بدوره أن يحدث زحزحة في الخطاب الفلسفي الهيجلي ، فأعطى للديالكتيك امتلاءه المادي التاريخي ، واعتمد في هذا بصورة حاسمة أبراز أسلوب الإنتاج كحامل مادي للبناء الاجتماعي في المجتمع الإنساني ، مؤكدا بصورة أساسية على الدور الحاسم الذي تلعبه علاقات الإنتاج في التغير الاجتماعي .

وعلى هذا الأساس بنى قانون التناقض ، التناقض الأساسي في التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية ؛ وهو القانون الذي ينظم حركة التطور التاريخي ابتداء من التشكيلة المشاعية البدائية ، فالعبودية ، والإقطاعية ، ثم البرجوازية ، وأخيراً الاشتراكية. هذا هو المضمون التاريخي الاجتماعي للديالكتيك ؛ كما يراه كارل ماركس . صحيح أن هيجل قد أكد على العلاقة بين العقل والطبيعة داخل سياق الزمن ، أو داخل الصيرورة التاريخية المشتملة على منهج ( العقل ) ، وكذلك التحقق العيني كأشياء مادية وأحداث إنسانية ذات معنى واتجاه . ولكن هذا الديالكتيك يتوقف عندما يصل هيجل إلى استنفاد الصيرورة التاريخية عبر وجود الدولة المنسجمة ( نموذجه الدولة الجرمانية ) في عصره ، فيصل من خـــلال تجليها في التاريخ إلى وصول العقل أو ( الديالكتيك ) إلى تطابق تام للتاريخ والطبيعة. وهكذا تتوقف الصيرورة، وتكون نهاية التاريخ .

---

(1) جماعة من العلماء السوفيات : الفلسفة الماركسية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق ، ص 20 .

وكذلك الأمر ، بالنسبة لماركس . فتتوقف الصيرورة التاريخية ؛ وينتهي التاريخ عندما تتحقق سلطة البروليتاريا ، ويبني المجتمع الاشتراكي الذي يشكل المرحلة الأولى على طريق بناء المجتمع الشيوعي . وبذلك يتطابق الوعي الاجتماعي مع الواقع الاجتماعي ، عندما ينحل التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقاته . أي عندما ينتهي التناقض الرئيسي الذي يميز المجتمع الرأسمالي : التناقض بين الطابع العام للعمل والإنتاج والتملك الخاص لوسائل الإنتاج . لكن التاريخ لم يتوقف ، و لم تتحقق النبوءة الماركسية .

لقد انهارت هذه الإمكانية على مستوى التصورات الأيديولوجية الماركسية وعلى مستوى الواقع العملي . وقد تجلى هذا الانهيار في أواخر الثمانينات وتحديداً عندما طوى قلم الاتحاد السوفيتي عام 1991 وانهار المعسكر الاشتراكي .

## المبحث الثالث : تطور الفكر الليبرالي .

معروف أن لليبرالية بداية في التاريخ ، ومسار ومآل ؛ ولذا لا يكون هناك تصور شامل عنها إذا لم يأخذ باعتباره شروط وخصائص هذه اللحظات الثلاث .

ولكن المدخل لمقاربتها لا يرتكز على مبدأ الاتصالية التاريخية الغائية ؛ كما عرفتها فلسفة التاريخ ، في المرحلة العقلانية ، أو القطيعة الأخلاقية فيما بينها ؛ بل من الضروري بناء المقاربة وفق مبدأ الاتصال والانفصال بنفس الآن ؛ فلا شئ يبنى على فراغ ؛ فلابد من تأسيس سابق ؛ وبالتالي لا انفصال مطلق ؛ وبنفس الوقت لا يوجد ترابط بين حلقات التاريخ، كما لو أن شعاعاً مادياً صارماً يربط بينها .

**مرحلة الحداثة وظهور الليبرالية :**

عُرفت الحداثة بأنها [ **" نفي وتجاوز للأفكار والقوالب الراسخة والقوانين والمعايير الثابتة والسعي والتروح باتجاه المثال والنموذج "** ]. [1]

وتعد الحداثة ثمرة العلم و الثقافة ، وإنتاجيهما المتمثلة في ( الفردية ، العقلانية ، والديمقراطية)، ذكر صالح السنوسي بكتابة العرب من الحداثة إلى العولمة قول المفكر سمير أمين أن [**" الحداثة نشأت عندما تخلى الفكر الفلسفي عن الإرث الميتافيزيقي ودخل البشر في فلك الحرية والقلق ، وفقد الحكم طابعه المقدس وصارت ممارسات الفكرالعقلاني تنعتق عن الحدود المفروضة عليه سابقاً ، فأدرك الإنسان منذ هذه اللحظة أنه صانع تاريخه "** ] . [2]

شملت هذه الفترة من الزمن على أقوى مناخ فكري وحضاري عرفه العلم ؛ وهي مرحلة الحداثة التي شملت أفكاراً وأحداثاً ، وتوتراً اجتماعياً ، ونشأت بيئات جديدة خلال هذه الفترة ؛ بل تعرضت هذه الفترة لهزات حضارية عنيفة وكاسحة قوضت مساحات واسعة من البناء الحضاري والفكري وتركتها أكواماً ؛ جعلت من المفكرين يستثيرون الهمم للبناء الجديد؛ من اكبر هذه الهزات الحضارية تلك التي تمحورت في الأمور السياسية والدينية والقيم الاجتماعية والثقافية ؛ القائمة على أساس عقلاني و تنطلق من العقل . [3]

---

(1) صالح السنوسي : العرب من الحداثة إلى العولمة ،الطبعة الأولى (دار المستقبل العربي . القاهرة . مصر . 2000 ) . ص 17.

(2) المرجع السابق : ص 17 .

(3) مالكم برادبري، وجيمس ماكفارلن : الحداثة ، ترجمة مؤيد حسن فوزي ، بدون طبعة (وزارة الثقافة والإعلام .بغداد . 1987 ) ص 20 .

بدأت الحداثة بعد عتبتها : عصر النهضة الأوربية ، واعتبرت فلسفة الأنوار النموذج الفكري والثقافي الذي تأسست عليه ، وعدت فلسفة الأنوار السياسية الممهدة لثورة الفرنسية، وبداية لنهضة عقلانية و تقنوية ؛ والمؤسسة لقيام الدولة الحديثة القائمة على المساواة والانفتاح والتعدد ، كما عدت حركة الإصلاح الديني على يد لوثر الصدى الثقافي والمعرفي لهذه الفترة . رافق ذلك الثورة الصناعية والتكنولوجية التي أسست النظام الاقتصادي والتجاري وبلورت المجتمع الغربي الجديد .

يرجع ظهور هذه المرحلة للاكتشافات الجغرافية الجديدة ، وخاصة اكتشاف أمريكا ( العالم الجديد ) عام 1492 . كون هذه الاكتشافات ستؤدي إلى تطور في التبادل التجاري، والنقل السريع حول العالم ؛ كما ترجع لحركة الإصلاح الديني على يد لوثر عام 1517 . التي جاءت بمثابة ثورة على الماضي الديني ، والتي أدت لظهور الثورة الفرنسية عام 1789 ، كونه ثورة للإطاحة بالنظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ؛ الذي ساد بالفترة الإقطاعية، والذي أدى إلى سيادة النظام الجمهوري بدل الملكي المستبد ، وحلت مبادئ الحرية ، والإخاء، والمساواة . [1]

تميزت مرحلة الحداثة التي دشنتها الليبرالية الكلاسيكية بسمات أساسية في مجال الاقتصاد والسياسة و الثقافة ؛ و توافرت في هذه المرحلة قاعدة مادية تقنية واقتصادية قوية بالمقارنة مع ما كان سائداً في القرون الوسطى . فقد أقيمت المصانع ، والآلات الجبارة . واستخراج الفحم ، ومد السكك الحديدية ، وإقامة الصناعات الفولاذية ؛ وتعمقت العلاقات الاقتصادية بين الدول والشعوب ، وفرض السوق كحقيقة رأسمالية في الحياة المجتمعية .

انعكست هذه التطورات المادية على المستوى الاجتماعي ، فصارت الأسرة تعمل كوحدة اقتصادية مستقلة . ونشأ صراع بين الأجيال ، وتقددت السلطة البطريكية من خلال نشوء علاقات جديدة بين الإباء والأبناء ، وبروز أنماط سلوك اجتماعي حديث تؤكد على استقلالية الفرد ضمن الأسرة النووية ، وتكيفت الحياة الاجتماعية مع ضرورات العمل في المصنع ؛ وأخذت تتشكل العلاقات الاجتماعية بين الجماعات الاجتماعية التقليدية ، نتيجة سيطرة تقسيم العمل، وكذلك هيمنة استحقاق السوق، بما في ذلك الفكر والآداب والفنون .

---

(1) يعقوب ولد القاسم : الحداثة في فلسفة هبحل ، مرجع سابق ،ص 39 – 41 .

وقد ساعد تطور وسائل الاتصال والنظم البريدية على تحقيق علاقات تواصل سريعة بين الناس ، وذلك بالتمكن من إرسال المعلومات واستقبالها بالجملة ، وكانت شبكات البرق والهاتف ، والمطابع الآلية للإنتاج الصحفي ، وشبكات البث الإذاعي والتلفزيوني ، قد ساعدت على تصنيع المعلومة وإنتاج الفكر وتشكيل الرأي العام في العالم ، الذي بدوره صار أكثر ترابطاً .

وفي عام 1917 قامت الثورة البلشفية في روسيا . لتبدأ مرحلة الصراع بين الغرب الإمبريالي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية ، والشرق الاشتراكي بزعامة روسيا ؛ واستمر هذا الصراع بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي . حتى انهيار المنظومة في أوائل تسعينيات القرن العشرين .

والفرق ضئيل بين النظامين : فالنظام الرأسمالي يقوم على الحرية الفردية ، واقتصاد السوق الحرة . بينما النظام الثاني يقوم على اقتصاد السوق المركزية المحكومة من قبل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الحاكم ؛ وكان الفرد فيه مستلب الحرية من خلال سيطرة الحزب وقيادته ، أما الفرد في النظام الرأسمالي فقد عانى استلاباً عن طريق آلية السوق والاستغلال الرأسمالي لقوة عمل جماهير العمال المستغلين .

في المرحة الإمبريالية منذ بدايات القرن العشرين خصوصاً ، في بداية الستينيات من القرن العشرين ، وصل الإنتاج الصناعي التقليدي إلى ذروته بقوة المشاريع الإنتاجية الكبرى ؛ والتروتستات الرأسمالية العملاقة. هكذا سيطرت الرأسمالية على العالم بأجمعه من أدناه إلى أقصاه .

من هنا ذكر المفكر معمر القذافي في الكتاب الأخضر: " **إن الإنتاج في المجتمعات الرأسمالية ، يتراكم ويتضخم في يد المالكين القلة.** ".[1]

لكن سيطرة الإمبريالية على العالم لم تكن تقتصر على الجانب الاقتصادي ، بل شملت الجانب الثقافي ؛ وكان لابد أن تحدث تغيرات في نمط الإنتاج الرأسمالي لتزيد من تمكينه ، الأمر الذي ظهر في تعمقه عمودياً ، وكان لابد أن يتجلى هذا التغير على مستوى الفكر ؛ الأمر الذي أدى إلى انبثاق خطاب الليبرالية الجديدة . وهذا ما سنناقشه في الفصول القادمة .

---

(1) معمر القذافي : الكتاب الأخضر ، الفصل الثاني ، ص 100 .

في هذا الإطار التاريخي تشكل مفهوم الحداثة فقد اعتبرت الحداثة " **نشاط أصيل يسعى بدأب نحو الجديد** " . (1)

أياً كان هذا الجديد اقتصادياً أو اجتماعياً أو سياسياً أو ثقافياً أو تكنولوجياً : وهذا ما عبر عنه ف . شاتلي .

في حين يذكر يعقوب ولد القاسم بكتابه الحداثة في فلسفة هيجل قول المفكر محمد سبيلا أن " **الحداثة كونياً هي ظهور المجتمع البورجوازي الحديث في إطار ما يسمى بالنهضة الغربية أو الأوربية التي هي بمثابة عتبة للحداثة** " . (2)

فقد شهدت فترة النهضة الغربية تحولاً ثقافياً واقتصادياً معتمداً على التقنية ، العقلانية ، الانفتاح ، الاصطلاح الديني ، واكتشاف أمريكا ، وظهور الفكر الفردي ؛ و تطور مفهوم الحداثة بتطور الزمن . حيث ما يعتبر حديث في الزمن الماضي . لا يكون حديثاً في الزمن القادم ، وما دام العصر الذي نعيشه هو عصر المصطلحات كان واجباً تحديد مفهوم مصطلح الحداثة .

جاء عند ليونيل ترلنك : " **من الناحية التاريخية ، نحن نستخدم هذا المصطلح لتحديد فترة انتهت من أمد طويل أو فترة انتهت تواً ... ونستعمله كذلك لإيجاز نشاط الإنسان في ظروف معينة وما يتمخض عنه من وجهات نظر ، أنه ذلك النمط من وعي الإنسان المعاصر أهمية اللحاق بحركة الزمن ، وهذا الوعي الذي غالباً ما ينتهي باليأس لتزايد سرعة هذه الحركة** " . (3)

**وبما أن الحداثة تعرف من خلال سماتها فهي كالتالي :**

الحداثة سياسياً أنتجت مفهوم الدولة السياسية مقابل الفرد ؛ ومن الناحية الاقتصادية فقد توجت ( العقل الإنساني ) بهدف السيطرة على الطبيعة والأشياء ؛ العقل الذي أوجد (المكنة) ، و الذي أدى إلى التطور التقني وزيادة الإنتاج وظهور اقتصاد السوق . بينما تجلت من الناحية الاجتماعية من خلال فكرة " **ظهور الفرد وإعادة التشكيل الاجتماعي** " . (4)

---

(1) يعقوب ولد القاسم ، الحداثة في فلسفة هيجل ، مرجع سابق ، ص 30 .

(2) المرجع السابق : الحداثة في فلسفة هيجل ، ص 30 .

(3) مالكم برادبوري ، وجيمس ماكفارلن ، الحداثة ، مرجع سابق ، ص 22،23.

(4) يعقوب ولد القاسم ، الحداثة في فلسفة هيجل ، مرجع سابق ، ص 33 .

فقد ساهم الفرد في زيادة الإنتاج ، كيد عاملة حيث زاد الطلب لليد العاملة وزاد استقطاب الفرد على درجة عالية ؛ وبدأت هجرة السكان من القرى إلى المدن الصناعية . تطلب هذا نوع جديد من العيش ، ومع هذا التغير استلزم توفير خدمات كالتعليم ، والصحة ... وغيرهما .

هكذا نرى الارتباط الوثيق بين الجانب الاجتماعي والجانب الاقتصادي ؛ ومن ذلك ظهرت نقابات عمالية ، وروابط مهنية دعت الفرد للانتماء إليها ؛ ومنها نشأ ( الوعي الطبقي ) . وبالتالي انفصل الفرد عن الكتلة الاجتماعية الطبيعية هذه الحداثة من الناحية الاجتماعية يصوره دوميناخ بالقول [ " **تبدأ الحداثة بمطالبة كل فرد بأن يوجد داخل ذاته و بذاته و لذاته** " ] . [1]

كان هذا على المستوى الاجتماعي بينما شكلت الحضارة الفكرية كما يراها الأستاذ فتحي التريكي : في إقرار مبدأ التفكير بشكل آخر من خلال ( التنوع والانفتاح و العقلنه ) المؤسسة على أربعة : "**1- عقلنة الفكر العلمي، والتي انطلقت مع الثورة الإبستمولوجية للعصر الكلاسيكي ولازالت متواصلة.**

**2- و عقلنة القول التاريخي وذلك من خلال إرادة المعرفة والهيمنة ، وقد انطلقت ابتداءا من عصر النهضة وأفضت إلى بناء العقل كغاية قصوى وإلى النداء بوحدة أوربا.**

**3- و عقلنة القول السياسي ، وذلك من خلال ضبط مجموعة من القيم والنواميس التي تعطي أساساً للواجبات والحقوق ، وتربط الرئيس بالمرؤوس ، وقد بدأت هذه العملية مع ميكافيللي الذي حدد تقنية الممارسة السياسية والسلطوية وقدم لها بعض القواعد العلمية ، التي تسعى إلى فصل الدولة ومؤسساتها عن المشروعية الغيبية المتمثلة في جهاز الكنيسة .**

**4- ثم عقلنة القول الديني بإحداث تقنيات عصرية لقراءة النصوص الدينية وتأويلها ، واقتحام كل المجالات بما فيها المحرمات ، وذلك للمعرفة والبحث ؛ وقد انطلقت الحداثة الدينية مع إصلاح لوثر** " . [2]

---

(1) المرجع السابق : الحداثة في فلسفة هيجل ، ص 34 .

(2) المرجع السابق : ص 38 .

نتج عن كل ما سبق ظهور التفكير الفرداني ؛ والعقلاني ؛ والدولة المركزية بتقنياتها الإدارية محل النظام القديم ، كما شكل هذا التطور تأسيساً لعلم الفيزياء والطبيعة؛ التي أدت إلى تطور التكنولوجية .

بينما مع نهاية القرن التاسع عشر أعُلنت اطروحات التقدم والعقلانية والليبرالية ، ونتج عنه ظهور حركات وطنية وقومية ، وفاشية واشتراكية ...وغيرها

وبذلك شكلت الحداثة فضاءً معرفياً على أسس فلسفية وسياسية جديدة تمثلت في التفكير ذي النزعة الإنسانية ؛ والتفكير الفردي في العقلانية الغربية عموماً . وقد امتازت السنوات الخمس قبيل الحرب العالمية الأولى بالازدهار والنمو الاقتصادي. حيث بلغت الحضارة البرجوازية ذروتها في الفترة التي اتسمت العواصم الأوربية كمراكز للصناعة والتجارة والثروة بالمفهوم الرأسمالي الذي يقوم على الربح الخاص ، والمشاريع الحرة .

**" ففي السنوات الممتدة من 1870 إلى 1913 تسارعت وتائر النشاط والانتاج الاقتصادي العالمي اكثر من أي وقت مضى . فقد سيطرت بريطانيا و المانيا وفرنسا على ستين بالمائة من البضائع المصنعة في الأسـواق العالميـة وفي الفترة الواقعة بين 1900- 1910 ضاعفت المانيا طاقتها في إنتاج الفولاذ والحديد و الفحم .**

**وقد رافق ذلك الازدهار الصناعي ثورة تكنولوجية . وتمخضت تلك الثورة الـتي حدثت في فترة السبعينات من القرن الماضي وبداية القرن العشرين عن ابتكارات كـبيرة أرسـت أسس التطور التكنولوجي في القرن العشرين " . (1)**

هيمنت بذلك أوربا على العالم سياسياً واقتصادياً خرج عن هذه الهيمنة اليابان و أمريكا ، وكل ذلك راجع إلى السيادة المادية المتطورة ، والنظام الفكري السائد بين مفكري ذلك العصر . وبقيام الحرب العالمية الأولى 1914 – 1918 . حدثت تغيرات جذرية وأزمات واسعة بالمجتمع الأوربي ساد فيه الشعور بأن القوة وحدها هي الحل لكل أزماتها.

---

(1) مالكم برادبري وجيمس مالكفارلن : الحداثة ، مرجع سابق ، ص 59 .

وعلى الرغم من ذلك عاشت المجتمعات في تلك الفترة نوعاً من الحرية والطمأنينة ، وتمتعت الطبقة الوسطى بعيشة كريمة ؛ وذلك بفضل الضرائب الزهيدة، بالإضافة إلى ذلك سادت عوامل الثروة والسلطان و اللاعدالة والكبرياء العرقي والطبقي ضد المجتمعات الأخرى.

في الحقيقة اعتبرت الحداثة عالم متمدن تجدد وتقدم بسرعة فأنتج التكنولوجي الصناعية التي تعددت به أوجه النشاط الاقتصادي .

**إلا أن الحداثة " أتت بكل ما يجرد الإنسان من صفاته الإنسانية وبكل ما يولد عنده شعور بالعزلة وعدم الطمأنينة ، ... تجاه تلك النزعات التي استهدفت خلق مجتمع تكنولوجي متحضر ظاهرياً ".** (1)

هناك فترة تفصل بين الحداثة وعصر العولمة . أطلق عليها العديد من التسميات من بينها ما هو معروف بصفة عامة مرحلة ( ما بعد الحداثة ) ؛ ومن مسمياتها ( الحداثة الجديدة ) . اعتبرت هذه المرحلة نقداً لمفاهيم الحداثة . ففي حين تأسست الأفكار القديمة على طابع ميتافيزيقي يؤكد على أنه نظام يحكم الكون ؛ و أقصى ما يمكن تجاه اكتشاف أسراره : تبنت الحداثة هذا التفكير الحر ، وأصبحت ممارسات الفكر ذات طابع عقلاني

أدرك فيه الإنسان القدرة على صنع النظام ، وأصبح العقل في هذه الفترة متحرراً " **عندما أعلن الإنسان انعتاقه من تحكم النظام الكوني** " . (2)

وفي إطار هذا الواقع الاجتماعي تجدد الفصل بين الطبيعة والإنسان والمجتمع ، وبهذه المرحلة أصبح الإنسان هو من يصنع وجوده .

---

(1) المرجع السابق : الحداثة ، ص **71،70** .

(2) عبد الباسط عبد المعطي : العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربي ، الطبعة الأولى (دار الكتاب الجديدة المتحدة ، توزيع دار أويا للنشر والتوزيع طرابلس . الجماهيرية .بيروت . لبنان . **2000**) ، ص **40**

# الفصل الثاني

## الليبرالية الجديدة-الأسس الفلسفية و الإيديولوجية .

## المبحث الأول : الليبرالية الجديدة – التشكل التاريخي .

### نشؤ الليبرالية الجديدة :

منذ بداية مرحلة الحداثة وتشكل البرجوازية في إطار التحولات المادية ؛ والاجتماعية ، بدأت ترتسم معالم خطاب ثقافي مختلف عما كان في القرون الوسطى ؛ وبقيام الصناعة وتطورها في إطار عملية الإنتاج نتيجة توسع التجارة ، وطرق الموصلات البرية ، والملاحة البحرية والسكك الحديدية ؛ أدى ذلك إلى تنامي قوى البرجوازية ، وإلى نفي خصائص الحياة القروسطية ، سواء أكان على مستوى الثقافة وعملية إدراك العالم . أم على مستوى العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية.

في هذا الإطار تبلور خطاب ثقافي كوني جعل من نفسه سيداً لطريقة التعقل في العالم من جهة ؛ و تنامى مع الخطاب الثقافي الذي سبقه . فقد حلت الواقعية الفكرية محل الجوهرانية الغيبية. أي فكر الدنيا محل فكر الدين ، أو الخطاب الليبرالي محل الخطاب القروسطي .

وما كان ذلك ليحدث لو لم يقع تقدم في النسق النظري العلمي وفي مناهج العلوم ، فقد صارت نتائج العلم هي محل اعتداد العقل الإنساني ؛ وسبل التوصل إليها هي الوحيدة المقبولة من حيث منهجية وآلية المعرفة .

ولعل هذا ما جعل ماركس في البيان الشيوعي الذي كتبه مع صديقه أنجلز يقول : إن البرجوازية ( تخلق عالماً على صورتها ) ؛ وإذا كان الفكر الفلسفي المعاصر لا يوافق ماركس و أنجلز حول أساس الخطاب الثقافي الذي تشكل في مرحلة الحداثة ، فمن الممكن القول بأن الخطاب الليبرالي تشكل في مرحلة الحداثة إبان سيطرة الطبقة البرجوازية ؛ وقد اتسم الخطاب الليبرالي الجديد بسمتين أساسيتين :

السمة الأولى : تكريس المقاربة العلمية لنظرية المعرفة ، وهذا ما يلاحظ بصورة أساسية في الخطاب الفلسفي الحداثوي لدى مفكري الحقبة ؛ بدءاً من ديكارت الذي أحدث قطيعة في خطاب الفكر ؛ مروراً بتوماس هوبز ؛ وجون لوك ، وجان جاك روسو ؛ عمونيل كانط. خصوصاً في كتابه الأساس ( نقد العقل المحض ) ، وهيجل في كتابه ( ظاهريات الروح ) .

والسمة الثانية : تدشين فلسفة سياسية واقعية وإذا كانت المعرفة قد اتخذت طابعاً علمياً مع أعمال لوك ، هيوم ، كانط ، هيجل . فإن الفلسفة السياسية بدورها قد تأثرت بمنهجية العلوم؛ والفلسفة الواقعية التي أخذت بالتوطد من بداية مرحلة الحداثة في القرن السادس عشر.

تدور الفلسفة السياسية حول تطور نظرية العقد الاجتماعي ، والتي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من المناقشات الذائعة في أوربا ، و أمريكا ، وعرفت بالحرية الطبيعية ؛ فلقد اتسمت من خلال استخدام التفكير العقلي ؛ وتسخير الطبيعة من أجل تحقيق سيطرة الإنسان ، ومن خلال هذه السيطرة تتحقق ذاتيته الفعلية .

تتوجت التحولات العالمية والثقافية والسياسية والاقتصادية بالسيطرة التاريخية للرأسمالية الأمريكية في بداية الستينيات من القرن العشرين . وذلك حصل " **عندما وصلت الولايات المتحدة إلى ذروة التصنيع التقليدي** " . (1)

في هذه المرحلة تطورت التكنولوجيا الصناعية ، وإدارة العملية الإنتاجية إلى درجة كبيرة . وكذلك شهدت هذه الفترة اجتياح الحاسوب جميع مجالات الإنتاج الصناعي والتنظيم الاجتماعي .

وقد انتشر مجال التغير ليستغرق مجالات الاجتماع الإنساني ومجال الصناعة ، والثقافة في الغالبية الساحقة من الدولة والدول الأوربية الأخرى؛ مثل بريطانيا ، وفرنسا، وألمانيا ، والسويد ؛ وكذلك لامس هذا التغير طرف أسيا الجنوب شرقي مثل اليابان .

وهذه كانت نقطة تحول هائلة المغزى في تاريخ الحضارة الإنسانية ؛ وبعد الثورة الصناعية الأولى ؛ واجتياحها للعالم في بدايات القرن الثامن عشر ؛ وخصوصاً بعد اختراع نيوكمن للمحرك البخاري عام 1712 .

---

(1) الفن توفلر : حضارة الموجة الثالثة ، ترجمة عصام الشيخ قاسم ؛ الطبعة الأولى (الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان مصراتة الجماهيرية . 1990 ) ، ص 64 .

قد جاءت الليبرالية الجديدة في إطار هذه التحولات المادية والثقافية الهائلة ، وفي نهايات النصف الأول من القرن العشرين لتعطي صورة جديدة للإنسان والاجتماع والثقافة . فما هي ملامحها الأساسية :

لقد رسمت مارغريت تاتشر الخطوط الأساسية الفلسفية والسياسية والاقتصادية لليبرالية الجديدة . وأكدت ذلك في موقفها المؤيد لـ " الدراوينية الاجتماعية التي ترى الصراع محور ومبرر الوجود بين الأمم والمؤسسات والأفراد ، وأن المنافسة تفرق بين الذئاب والخراف ، وبين الرجال والعيال، وبين الصالح والطالح. المنافسة آليتنا لتدبيرالموارد الطبيعية أو البشرية أو المالية مع أكبر قدر من الفعالية والكفاءة " .(1)

إن التفكير في هذه الأطروحات تبين التزام تاتشر بالتوجه الأساسي لأبرز فلاسفة الفكر الاقتصادي لليبرالية الجديدة ؛ وعلى رأسهم ( فردريك فون هايك ) وتلميذه ( ميلتون فريدمان ) .

فالرأسمالية في شكل الليبرالية الجديدة ترتكز بصورة جوهرية على السوق العالمية الحرة الطليقة من كل قيد أو قيمة إنسانية . إنه ، إذن ، مبدأ الحسابية البراغماتي الذي لا يهتم بشيء إلا بفكرة الربح والخسارة .

وهذه الفكرة لا تقتصر على الربح بالمعنى الاقتصادي ، بل تمتد لتشمل المستوى الروحي للإنسان في كل مناحي علاقته بالعالم ، بما فيها جميع أنماط علاقة الإنسان بالإنسان . وهكذا تختزل كينونة الإنسان إلى مبدأ الكسب الذي يحل محل التلبية الأصيلة للحاجات الفعلية المادية والروحية للإنسان .

وكان رونالد ريغن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية المعاصر مع مارغريت تاتشر يكدّ من أجل إنجاز سياسة الليبرالية الجديدة ؛ متساوقاً فكراً وسياسةً معها . وقد تابع زعماء أوروبا الأساسيين ، بعد حزب المحافظين ؛ بزعامة تاتشر ؛ تبني النهج الجديد ؛ وهو الليبرالية الجديدة .

---

(1) مقدمة كتاب انطوان جيدنز : " بعيداً عن اليسار واليمين – مستقبل السياسات الراديكالية " ، مرجع سابق ، ص 39 .

وهكذا كان توني بلير ، وجورج بوش الأب ؛ ومن ثم جورج بوش الابن ، وجاك شيراك؛ و ميراكل المستشارة الألمانية ؛ داخل التوجه الرئيسي لليبرالية الجديدة . فاللامساواة ، والاختلاف في الطبيعة الإنسانية؛ و وجود الضعفاء والأقوياء ، والصراع بينهم من أجل السيطرة تجسده فكرة الداروينية الاجتماعية ، التي أسس لها ( دارون ) في أواسط القرن التاسع عشر ، عندما وضع نظريته حول ( الصراع من أجل البقاء ) وأن الأصلح هو القادر على البقاء . وحقيقةً لم تختلف أطروحات دارون عن الأطروحات الفلسفية ( لتوماس هوبز ) التي نادى بها قبله بأكثر من قرنين من الزمان . فكلاهما يؤكد على مبدأ القوة والسيطرة والصراع. وبذلك يكونان قد أصالا فلسفيا ، من وجهة نظرهما، مشروعية المنافسة والصراع ، والفعالية الأقوى ، والكفاءة الأفضل المبثوثة بصورة طبيعية بين البشر. وهذه هي القيم والمنطلقات المركزية لليبرالية الجديدة

من هنا لا غرابة في أن تقول تاتشر " **مهمتنا بلوغ المجد في سياق اللامساواة، وأن نرى كيف أن المواهب والقدرات تجد متنفساً وتعبيراً لها من أجل فائدة الجميع . لا نعبأ بالمتخلفين في ماراتون المنافسة ... الناس غير متساويين بالطبيعة ؛ وهذا خير لأفضل الضعفاء ذوي الحظ السيئ في التعليم ، ومن ثم فإن ما يصيبهم يستحقونه ، لأن الخطأ خطأهم وليس خطأ المجتمع** " . [1]

إن موقف تاتشر يبين كم هي تلميذة وفيه للهوبزية و الداروينية باعتبارهما الفلسفتين اللتين لا تشكلان فقط تبلوراً نسقياً نظرياً لليبرالية الكلاسيكية بل جذراً فلسفياً تاريخياً فتحت من خلاله الليبرالية الجديدة إمكانية انبثاقها ونمائها النظري في المرحلة المعاصرة .

عليه ، فإن البنية التكوينية لليبرالية الجديدة تحمل في أحشائها أزامتها الفلسفية ، وأزمتها فيما يخص الإنسان والمجتمع . نقول ذلك ، لأنها تمت بصلة نسب قوية إلى الليبرالية الكلاسيكية .

فلو تم إمعان النظر في خطابها الفلسفي والاقتصادي و السياسي ؛ لتمت ملاحظة هذه الصلة العميقة . فقد تمت المحافظة على قانون الملكية الخاصة ، و قانون الربح ، وقانون

---

(1) المرجع السابق : " بعيداً عن اليسار واليمين – مستقبل السياسات الراديكالية " ، ص 39 .

استغلال العمل الإنساني ، وقانون التفاوت الاجتماعي ...الخ . من القوانين المركزية في الليبرالية الكلاسيكية . بالإضافة إلى أن روح هذه القوانين واقعياً لم تمس في خطاب الليبرالية الجديدة .

ففي نسق الليبرالية الجديدة بقي الاقتصاد حراً ؛ وبقي الإنسان براغماتياً أو ذرائعياً ، هدفه المركزي تحقيق الربح والسيطرة . وبقيت روحه معلقة بمعادلات الحساب ، بدلاً من تعلقها بأسس الكينونة .

من هنا ترى سوزان جورج في كلمتها المعنونة : ( موجز تاريخ الليبرالية الجديدة ) أمام مؤتمر السيادة الاقتصادية في عالم معولم الذي عقد في 24-26 مارس 1999 ، تقول: **" الآن النقطة المحورية في الليبرالية الجديدة السائدة تتمثل في:- آلية السوق هي التي توجه قدر ومصير البشر – الاقتصاد ، بمعنى الشركات العملاقة وحركة الأموال والمضاربات ، هو المحدد لقوانين المجتمع وليس العكس "** . [1]

ومع انتشار خطاب الليبرالية الجديدة في العالم ، وسيادة المحافظين الجدد في أمريكا، بـــدأ عصر عالمي جديد ، عنوانه الأساسي : ( أمركة العالم ) ، وفي هذا الإطار وضعت الاستراتيجية الثقافية ، ومحورها : ( القيم الأمريكية ) ؛ والاستراتيجية السياسية ومحورها ( محاربة الإرهاب ، ونشر الديمقراطية ) ؛ والإستراتيجية الاقتصادية ، ومحورها ( اقتصاد السوق، وحرية التجارة العالمية ) في هذا الإطار التاريخي ، دخلت الحضارة مرحلة جديدة مختلفة على مراحل تاريخ الإنسانية ، وهي مرحلة رهيبة بحق .

وبذلك تحاول الليبرالية الجديدة على مستوى العقل الإنساني تكريس مشروعية الاعتداء والحروب بين الدول و الشعوب ، ومشروعية خيانة قيم الإخاء والحرية والمساواة التي انبثقت في خطاب التنوير .

وعلى المستوى السياسي الدولي فهي تحاول أن ( تؤمرك ) المؤسسات الدولية فبررت انتشار الفقر والجوع والأمراض في معظم بقاع العالم ، في ظل عملقة الشركات الإمبريالية، ورغبتها الضاربة في السيطرة المتوحشة على العالم .

---

(1) المرجع السابق : " بعيداً عن اليسار واليمين – مستقبل السياسات الراديكالية " ، ص 38 .

## العولمة : فرصة الليبرالية الجديدة .

يشهد العالم اليوم مرحلة تحول لا تقل أهمية وخطورة عن التحولات الكبرى التي كانت فاصلة بالتاريخ الإنساني حضارياً ، كتلك التي حدثت في القرن السادس عشر ، حتى القرن الثامن عشر .

وبما أن هذه التحولات تحدث بصورة تلقائية ودائمة مع تطور العالم الإنساني ، و وجود التفكير العقلاني ، وهذه التحولات حتمية ، ولن تتوقف كما يدعي ( فرنسيس فوكوياما ) في كتابة نهاية التاريخ ، ذلك لأنه مادام التاريخ مستمراً فلا نهاية لهذه التحولات . إنه تحول العالم إلى ( القرية الصغيرة) نتيجة لثورة الاتصالات وتكنولوجيا المواصلات ، وانفجار المعرفة وانتشار المعلومات بصورة سريعة في كافة أنحاء العالم.

حيث إن " **التحولات الراهنة لا تنفصل عن التراكم المعرفي المتواصل لحركة الإنسان التاريخية** " . [1]

فقد حدثت ظروف ومستجدات بالعالم على كافة الأصعدة كان منها على الصعيد الثقافي عدة كتابات و اطروحات جلبت على الصعيد العالمي النقاش والجدال الجاد . ساد بكليته وشموليته العالم كافة ؛ فقد اهتمت هذه الأطروحات بتاريخ ومستقبل ، ومصير ، وثقافة ، ولغة ، وقومية ، وعلاقات العالم من أدناه حتى أقصاه .

هذه العالمية والشمولية نتاج فكرة ( العولمة ) التي كما عرفها محسن الخضيري بأنها مفهوم " **يعبر عن حالة من تجاوز الحدود الراهنة للدول ، إلى آفاق أوسع وأرحب تشمل العالم بأسره** " . [2]

وبالتالي ... أندمج الجانب الثقافي ببقية جوانب العولمة ليروج لها ويثبت أقدامها ليس فقط لأنها اتخذت من سقوط الفكر المقابل ذريعة للانتشار . بل أيضاً من أجل الحد من مظاهر الحضارات الإنسانية الأخرى ، وإزالة خصوصية كل مجتمع ، بإدخال العالم وتراثه وحضارته تحت سيطرة فكر واحد ، وحضارة واحدة ، واتخاذ كافة الوسائل الكفيلة لتحقيق ذلك .

---

(1) زكي البلاد : المسألة الحضارية " كيف نفكر مستقبلنا في عالم متغير " ، الطبعة الأولى (المركز الثقافي العربي . بيروت. دار البيضاء. 1999 ) ، ص 9 .

(2) المرجع السابق : ص 11 .

وفي ظل ما سبق من رؤى : الإنسان ، الواقع ، العلاقات ؛ تطرح العولمة مشروعاً مستقبلياً بوصفها تحمل طموح الإنسانية الكبير ، وهو الخلاص من المألوف والقديم والوصول إلى أعلى مراحل التطور لتحقيق رفاهية البشرية ، وهذا هو الوهم الأساسي الذي تقوم عليه الليبرالية الجديدة .

هكذا تقدمت الليبرالية الجديدة بمشروعها الغربي عبر خطابها الذي ترى فيه الكمال لإعادة النظر جذرياً في الأوضاع والأنظمة والمؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، والثقافية والفكرية والأخلاقية .

هذا على الصعيد الثقافي أما على الصعيد الاقتصادي ؛ فبدأت العولمة مع طرح فكرة تطبيق النظام الرأسمالي ، وبداية الانفتاح والدعوة إلى الخصخصة ، والدخول في مرحلة اقتصاد السوق ، وانتهاءً بمحاولة التأقلم مع النظام العالمي الجديد ؛ ومن خلال الثورة المعلوماتية ، ودمج الشركات الصناعية المتعددة الجنسية ، ودفع الهيئات الدولية ، وصندوق النقد الدولي ، ومنظمة التجارة العالمية ودول العالم ؛ لتطبيق اقتصاد السوق من خلال الخصخصة وإلغاء القطاع العام .

فالعولمة هي العملية التي عن طريقها تصبح الأسواق و الإنتاج في الدول المختلفة تعتمد كل منها على الأخرى ؛ بشكل متزايد بسبب ديناميت التجارة في السلع والخدمات وتدفق رأس المال و التكنولوجيا ، وهي ليست ظاهرة جديدة ، ولكنها استمرارية للتطورات التي تتابعت لفترة طويلة من الزمن . [1]

قد ينطلق خطاب الليبرالية الجديدة من منطلق الاهتمام بالفرد على الصعيد الإنساني فتدعي منح الفرد كافة الحقوق من أجل تحقيق وجوده وحريته . إلا أنه من المعتقد أن ما يحكم الوجود الإنساني اليوم هي قوانين السوق ، وقوانين الربح والخسارة ،

---

1- جراهم طومسون : " تحديد موقع العولمة " ، ترجمة : فتحت عبد الفتاح (اغلة الدولية للعلوم الاجتماعية . العولمة . العدد 160 .مركز مطبوعات اليونسكو .القاهرة . يونيو 1999) ص 12 – 14 .

والتي ارتبطت بظاهرة العولمة المسببة في التصادم مع اخلاق وأعراف وشرائع الإنسان بدءاً من عمليات الاستنساخ على الصعيد الإنساني ، والتي منها تراجع الأساس وهو الاهتمام بالإنسان. والتي منها أصبح ( العلم ، الاقتصاد ، السياسة ) ، أهم من خطاب الحرية الإنسانية.

فما يحصل من تحولات جوهرية تمس صميم الحياة الإنسانية ، والوجود الإنساني، وعلاقة الإنسان بمحيطه . صنع تبدل جوهري في النظر لواقع الأشياء بدءاً من الاقتصاد إلى الثقافة إلى العلاقات السياسية على المستوى الواسع المحيط بالعالم الإنساني . فقد وضعت هذه التحولات الفرد في فردية مغايرة . تمهيداً لنقل الإنسان إلى حياة جديدة غير ما هي عليه في السابق . حياة يكون فيه الفرد مستلباً كلياً في الوقت الذي ترجو الإنسانية من الفرد أن يكون أقوى فاعلية ، وذلك لتحقيق حضوره على الأرض ( كينونته ) .

فقد سقطت الأنساق الفكرية المغلقة ، وسقطت معها لغة الحتمية التي كانت تميز نظرياته ، وبما أن العالم يشهد أنساقاً فكرية مفتوحة فيها بدائل مختلفة ، فإنه سيتاح للإرادة الإنسانية استعادة ذاتها . أثر سقوط الاتحاد السوفيتي في نهاية الثمانينات من القرن العشرين ، وخلو الساحة تماماً للإيديولوجية الرأسمالية والفكر الليبرالي ، الذي أتيحت الفرصة أمامه للسيطرة فانتهزت ذلك ، وعملت على فرض فكرها عالمياً . على اعتبار أنه الفكر الوحيد الذي تبشّ جدواه .

بمعنى آخر تريد " **وضع العالم في درجة الصفر** " . [1] في حين ما تريد تحقيقه العولمة في الأساس قائم على ( إعادة تكوين الذات ) بمعنى صنع عقل إنساني واحد كنموذج عالمي يسيطر عليه خطاب مهيمن عليه من القوى الغربية بصفة دائمة ؛ لأنها ترفض أي تعددية وتأخذ بمنطق الغلبة .

وترى في خطاب الليبرالية الجديدة المنطق الذي له الحق في فرض أنساقه ، و أفكاره بصورة تجعل العالم من خلاله أحادياً ؛ ولان خطاب العولمة خطاب التوجه الفردي المؤسس على مرجعية غربية بعيدة عن أي مرجعية أخرى .

---

(1) انطون مقدسي : الثقافة والإبداع ، بدون طبعة (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . تونس . **1992**) ، ص **158** .

فهي تسعى إلى تحقيق هيمنة مطلقة تضمن أبعد درجة ممكنة من السيطرة ( السيطرة على العقل الإنساني عالمياً ) . من هنا فهي ظاهرة شمولية تمثل الفكر الإمبريالي الغربي في كل ما تحمله من توجهات مؤسسة على الهيمنة للآخر وتطويعه لخدمة مصالحها .

العولمة مفهوم يقفز على الجانب الإنساني في الواقع ؛ ويعمل على تجاوزه من خلال رسم أهداف بخطاب يقول بمستقبل آخر للإنسانية ، مستقبل لا يحمل أي أساس من مبادئ النزعة الإنسانية القائمة على حوار الحضارات والتعددية . بل هو إحلال خطاب آحادي غربي تسلطي .

إن ما جاءت به العولمة من ايجابيات كان لها الأثر الكبير خاصة على الصعيد التكنولوجي ؛ ونشر المعرفة والعلوم ...وغيرها. من الايجابيات التي تعد كسباً للبشرية عامة ؛ فهي عصارة تفاعل عدة حضارات بدءاً من الحضارات القديمة حتى الحضارات المعاصرة . إلا أن هذه الظاهرة ارتبطت بظهور خطاب الليبرالية الجديدة . وهذه متطرفة ؛ بعيدة عن الليبرالية الكلاسيكية المعتدلة ، فهي متوحشة تراجعت عن المكاسب الإنسانية والاجتماعية ، بالتضامن مع المنظمات الدولية ووسائلها البنك الدولي ؛ ومنظمة التجارة العالمية ؛ لفرض منطق السوق؛ ومنطق تسليع كل ما أمامه بما فيه القيم الإنسانية .

لقد استفادت الليبرالية الجديدة من التقنية الحديثة والفضائيات ؛ ووسائل الإعلام ؛ ووسائل الاتصال .. وغيرها من منتجات العولمة ؛ وذلك لفرض خطابها على العالم كافة. وهذا ما يعد الجانب السلبي للعولمة . [1]

فهي تنطلق دائما من أفكار وأيد خفية تحاول فرض السيطرة على العالم بجعل العولمة مادة ضد الإنسان ( الفرد ) وضد العالم الكل ؛ ومهما بلغت العولمة فإنه لا يمكن أن نتجاهل طبيعتها وآلياتها ، وما تريد تحقيقه من أهداف أنه نظام اقتصادي يملكه اقتصاديون جدد أصحاب رؤوس الأموال الضخمة ؛ والمؤسسات المالية التابعة لهم والتي من خلالها يتحقق لها السيطرة مالياً وعالمياً .

---

(1) مقاله : للحبيب الخاخي : في كتاب العولمة من منظور عربي (العدد 522/ مايو . مجلة العربي . 2002) ، ص 68-75 .

مع تحول العالم إلى القطب الواحد بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ، ورفع هذه القوى خطاب الليبرالية الجديدة . الذي لا يعدو سوى أمركة للعالم أجمع من خلال فرض منتجات الثقافة الأمريكية ، والسعي لامتلاك أسواق بالعالم لتصريف منتجات النظام الرأسمالي الإمبريالي .

**" فالعولمة – كظاهرة – تشير إلى الانتشار الواسع المدى في كل أنحاء العالم للمبيعات و الإنتاج وعمليات التصنيع ، مما يشكل إعادة صياغة للتقسيم الدولي للعمل " . [1]**

من هذا المنطلق أعطى خطاب الليبرالية الجديدة رؤية خاصة للعولمة من خلال الأفكار التي تطرحها بخصوص التحولات في النسق العالمي ، بعد نهاية الحرب الباردة ( جوهر هذه الرؤية ) الاعتقاد الصارم بأن العولمة ظاهرة ايجابية ينبغي على الجميع التكامل معها ، واللحاق بها . فهي العملية التي لا فكاك منها .

هذا الخطاب يؤكد الغاية والمصالح الخفية للغرب الذي يرى من العولمة اقتصاداً عالمياً مفتوحاً ومتكاملاً ، و أعطى هذا النسق العالمي الجديد السلطة من خلال الشركات المتعددة الجنسية ، وغيرها من المؤسسات عابرة القارات ، لتتحكم في المتغيرات السياسية ..الخ . كون هذه المتغيرات الاقتصادية هي من أنشأت شبكة المصالح العالمية ، وبالتالي أصبحت باقي المتغيرات أقل شأناً .

في الحقيقة تنطوي العولمة تحت خطاب الليبرالية الجديدة التي تؤمن بأن المتغيرات الاقتصادية في ظلها قد تصبح لها الأولوية على باقي الجوانب .

وهذا ما يؤكد أن العولمة هي نظام دولي جديد يعتمد على التكامل بين رأس المال و التكنولوجيا ، والمعلومات المتحللة كل الحدود بطريقة تنشأ عنها سوق عالمية واحدة ؛ وبالتالي فالعولمة ظاهرة اقتصادية تكنولوجية بالأساس .

على هذا يرى خطاب الليبرالية الجديدة ضرورة الاندماج مع هذه الظاهرة، وانه كلما زادت سرعة هذا الاندماج زادت المكاسب المحتملة أمام دول العالم ، و إلا فإن قوى العولمة سوف تسحق الدول المتخلفة عن هذا الاندماج .

---

1- السيد يس : العولمة والطريق الثالث ، بدون طبعة (عويت للنشر والمعلومات .القاهرة .. 1999) ، ص 101.

دائما تتضح حقيقة الخطاب الليبرالي من لغة التهديد المستمرة باستخدام القوة في حالة عدم تبني سياساتها . وقف ضد هذا التهديد العديد من المدارس الفكرية والتيارات التي ترى في العولمة ظاهرة ذات وجهين ، يجب الحذر منها ؛ خاصة بعد إهمال هذه الظاهرة البعد الاجتماعي خلال عملياتها الاقتصادية . فرأى أنصار الواقعية الجديدة بأنه لا يوجد جديد سيحدث في ظل العولمة .

تشير العولمة إلى سعي القوى الرأسمالية للهيمنة على أسواق الدول بالعالم ، وترى ذلك من خلال تحطيم الحدود الجغرافية ، وتسهيل نقل الرأسمالية عبر العالم كله كسوق كونية . [1]

فالعولمة ما هي إلا إعادة الاستعمار بأسلوب جديد ، أن الدول الرأسمالية تسعى في إطارها إلى أنشاء نظام سياسي اقتصادي واحد هو الرأسمالية مهما كانت النتائج .

إلا أنه وفي ظل تيار العولمة فإن الحديث عن اقتصاد عالمي متكامل ، وقرية كونية عالمية واحدة ، ودخول عصر معلوماتي ، وما تدعيه القوى الغربية في خطاباتها من ايجابيات هذه الظاهرة لن يخفي عدم المساواة في ظل تلك الظاهرة.

فعند إزالة الحدود أمام حركة التجارة العالمية ، و رؤوس الأموال لتنتقل دون قيود ؛ فإن الفقراء بالعالم الثالث وتجارتهم غير مسموح لهم العبور لدول الغنية ؛ وستظل دائماً مغلقة أمامهم . وذلك لحماية القوى الغربية لمصالحها .

هذه الظاهرة لم تقف عند حدود مكانية أو زمانية . بل تخطت ذلك لتصل إلى الذات الإنسانية ( الفرد ) لتقيم في داخله صراعاً من أجل تقبل ظروف جديدة تطرحه من خلال خطاب الليبرالية الجديدة ؛ أنها ظروف تقبل أسلوب النظام الرأسمالي كنظام عالمي جديد.

وبرأي المفكرين العرب إن خطاب العولمة ما هو إلا بناء سوق عالمي مسيطر على الشعوب بإلغاء ثقافة هذه الشعوب . من خلال فرض ثقافة جديدة هي من قامت بتصنيعها ؛ فما العولمة إذاً إلا وسيلة جديدة من وسائل الحروب .

---

1- محمود فايد : نحن والعولمة ( مجلة آفاق . العدد الثاني . جامعة عين شمس . القاهرة . ديسمبر 1999) ، ص 28.

فهي تطرح أيديولوجيا ثقافية مبهمة وبالحقيقة [ " **العولمة إرادة للهيمنة وبالتالي قمع وإقصاء للخصوصي** " ] . [1]

أو كما يقول الدكتور محمد عابد الجابري " **ليست العولمة مجرد آلية من آليات التطور الرأسمالي بل هي أيضاً ، وبالدرجة الأولى ، ايديولوجيا تعكس إرادة الهيمنة على العالم** " . [2]

إن أي مجتمع حقيقي هو الذي تتواجد فيه القيم ، والأعراف والأفكار وليس المجتمع الذي يلتقي فيه عدد من الأفراد لتوفير الاحتياجات الأولية من مأكل وملبس ومسكن فحسب. إي مستوى الأفكار التي تعبر عن تطلعاتها بما هي كيانات إنسانية تبحث عن شخصية ثقافية خاصة تعتبرها هوية ذاتية تميزها عن باقي المجتمعات الأخرى .

لذا فإن الحضارة التي يجب أن نتواصل معها ، ونلحق بها يجب أن نضيف عليها من ذواتنا الطريقة التي نبني به حياتنا الإنسانية كما نريدها نحن ، والطريقة التي تساهم في بناء الكون من حولنا من خلال أفكار حقيقية نحن من يصنعها .

لقد أصبحت حقيقة العولمة الرأسمالية جلية ، فبعد أن كانت ذات طبيعة انتشاريه أفقياً زمن صعود الرأسمالية الصناعية في العالم بعد الثورة الصناعية الأولى ؛ أصبحت عمقاً عمودياً في أسلوب الإنتاج الرأسمالي مستمدة القوى من وعينا به .

دائماً كان العالم الثالث يخدم مصالح القوى الغربية . كونه أرض لمشاريعها الاستراتيجية واحتوائها على المادة الخام التي تحتاجها النظم الرأسمالية يذكر حسن حنفي بكتابه ما العولمة قول المفكر رمزي زكي ما جديد العولمة " ... **سوى إعادة إنتاج جوهر الرأسمالية المتوحشة** " . [3] .

يبرز مصطلح العولمة داخل نمط الإنتاج الرأسمالي بين دائرتين : دائرة الإنتاج المباشر، ودائرة التبادل . تظم دائرة التبادل عملية توزيع الثروة التي تم إنتاجها وآليات تداولها وتبادلها ، واستهلاكها ؛ والتصرف بها .

---

(1) حسن حنفي ، صادق جلال العظم : ما العولمة ، الطبعة الثانية (دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، 2002 ) ، ص 86.

(2) محمد عابد الجابري : " عشر اطروحات " العولمة والهوية الثقافية ، (مجلة المستقبل العربي ، بيروت ، العدد 228 ، 2/1998 ) ، ص 106 .

(3) حسن حنفي ، صادق جلال العظم ، ما العولمة ، مرجع سابق ، ص 87 .

وبذلك تشكل نمط الإنتاج الرأسمالي ؛ ومظاهره اقتصاد السوق . أما دائرة الإنتاج فتشكل عمق نمط الإنتاج الرأسمالي وعلاقات الإنتاج التي تتم عمليات الإنتاج و إعادة الإنتاج وفق شروطها .

ظلت عالمية نمط الإنتاج الرأسمالي مقتصرة على دائرة التبادل مع بقاء دائرة الإنتاج الرأسمالي في دول المركز . هذا التطور وزيادة الإنتاج في الدولة الغربية كان سبب حرية التجارة . في حين بقت الأطراف ومن بينها دول العالم الثالث تحت سيطرة الاستعمار الإمبريالي؛ وبما أن العولمة وصول نمط الإنتاج الرأسمالي من عالمية دائرة التبادل إلى عالمية دائرة الإنتاج وبالتالي فهي " **أي أن ظاهرة العولمة التي تشهدها هي بداية عولمة الإنتاج و الرأسمال الإنتاجي وقوى الإنتاج الرأسمالية ، وبالتالي علاقات الإنتاج الرأسمالية أيضاً . ونشرها في كل مكان مناسب وملائم خارج مجتمعات المركز الأصلي ودوله . العولمة بهذا المعنى رسملة العالم على مستوى العمق بعد أن كانت رسملته على مستوى سطح النمط ومظاهره قد تمت** " . [1]

تؤكد الدول الغربية وحكوماتها وشركاتها على استحالة سيادة العولمة دون تهيئة المناخ السياسي ، والاجتماعي ؛ والثقافي ، والأخلاقي ؛ لنجاح هذا الاتجاه ، بل الأخطر من ذلك أن الأمر يتطلب استخدام التقدم العلمي ، والتقني ، والعسكري .

بل وإذا تطلب الأمر القوة لتوجيه الدول . والحكومات ؛ وإجبارها على تهيئة مجتمعاتهم لقبول هذه الظاهرة . أصحاب هذه المصالح لا يتهاونون في الضغط من أجل فرض أفكارهم حيث يقومون بكل ذلك تحت سيطرة خطاب ليبرالي يحمل شعارات ( تحقيق السلام ؛ تحقيق التوازن العالمي ، الأمن القومي ، تحقيق الشراكة العالمية ، حماية الملكية الفردية ، ترسيخ الحقوق الإنسانية.. )..الخ.

---

(1) المرجع السابق : ما العولمة ، ص **101** .

إلا أن صادق جلال العظم يقول [ " **العولمة هي حقبة التحول ـ الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء في ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها وتحت سيطرتها وفي ظل سيادة نظام عالمي للتبادل غير المتكافئ** " ] . [1]

وعلى ما تحمله الليبرالية الجديدة من شعارات ما هي إلا وسائل استقطاب بطرق غير مباشرة من خلال تبني العولمة الجديدة بكل أفكارها ومنتجاتها الثقافية .

لقد جلبت العولمة نقيضها مع (سياتل 1999).فالعولمة مع كل مغرياتها وكل الترويج الأيديولوجي الذي يوهم الشعوب بأنها الحل لمشاكل العالم ؛ ومع أنها تعتمد في هذا الترويج على اقتصاد السوق كحل لهذه المشكلات ، واعتباره الطريق لتحقيق التقدم والتطور والرخاء، وذلك من خلال إعطاء الفوضى .وليس الحرية للسوق ؛ مدعيه حل مشاكل الاقتصاد العالمي.

فكيف لها أن تحقق حرية السوق في ظل هيمنة الشركات الاحتكارية متعددة الجنسيات . فالحرية لا تتحقق إلا في إطار التكافؤ وعندما ينعدم التكافؤ تنعدم الحرية ، تحكمت الشركات في السوق و أفقدت الحرية للباقي ؛ لتتحكم بالسوق العالمي ، وبدأ يتضح هدف العولمة وهو فرض سطوة الشركات العالمية . وضمان سيطرتها .

منطق الليبرالية الجديدة في جوهرها . منطق الرأسمالية وسمتها الأساسية حيث تقديس السوق ، الربح . هذا المنطق الذي كان ومازال أساس التمركز أدى إلى الاحتكار ونشوء و الشركات الاحتكارية العملاقة وضخامتها . التي قامت على أنقاض شركات تأسست سابقاً بالدول الرأسمالية .

وعندما يعم منطق السوق في ظل وجود هذه الشركات الاحتكارية ، سيكون مصير كل الفاعليات الاقتصادية بالدول الأخرى في اضطراب اقتصادي كبير. فخطاب الليبرالية الجديدة الداعي إلى حرية السوق ؛ ألغى هذه الحرية وأقام مكانها الديكتاتورية ؛ وبالتالي ظهر زيف هذا الخطاب وطابعه الأيديولوجي.

فهي راغبة في احتكار السوق العالمي ، الذي يتسبب في انهيار البنى الاقتصادية بباقي الدول ، وزيادة النهب الذي يخدم مصالح تلك الشركات ؛ هذا المنطق الليبرالي الذي ألغى دولة الرفاه التي نشأت نتيجة أزمة الرأسمالية ذاتها ، ونتيجة لامتداد الاشتراكية .

---

(1) المرجع السابق : ما العولمة ، ص 136 .

تتحول الآن إلى مؤسسات دولية وإلى ممارسة تحددت من خلال مهمات صندوق النقد الدولي في نهاية السبعينيات من القرن الماضي ، وفي إعادة صياغة اقتصاديات الدول بالعالم بما يحقق إلغاء الخصخصة .

من هنا يتعمم النمط الأمريكي . بل نمط الهيمنة ؛ الذي أصبح الآن نمط نقد ؛ فالعولمة لا تعني الهيمنة الأمريكية المطلقة وحسب ، بل إن دكتاتوريتها هي دكتاتورية السوق .

إن آليات العولمة ومترادفاتها السياسية تظهر أن العالم يصاغ في إطار عولمة متوحشة. تفقر وتدمر وتتوسع في النهب ، وتسبب أزمة لدول العالم الثالث ؛ بل وأزمة حتى للدول الرأسمالية ذاتها .

لأن حرية السوق المطلقة تعزز وضع المنافسة الأمريكية في مواجهة الرأسماليات الأخرى، وتفرض الاقتصاد الأمريكي في قطاعات ضعيفة لدى تلك الرأسماليات ؛ الأمر الذي يشعر بخطر الهيمنة الأمريكية ، ويؤسس لرفضها.

أن ما حدث من انفلات لهذه الليبرالية المتوحشة أدى إلى أزمة إنسانية واجتماعية في البلدان الرأسمالية ذاتها ، وأكد على أن خطاب العولمة خطر بمجمله ؛ ومع هذا الخطر مازالت الليبرالية الجديدة تحمله كخطاب وشعار يُطرح لحل المشاكل التي يتعرض لها العالم ، ومع هذا التأثير التدميري الذي أحدثته العولمة في الدول المتخلفة ؛ إلا إننا نجد خطابها يبرر لها أفعالها ، ويوهم بأنها ستجلب التقدم والتحديث والرخاء .

لهذا أصبحت السوق الحرة هي المطلب ؛ والخصخصة هي الهدف ؛ و وهم العالمية هي الغاية ؛ و أدين مقابل ذلك الانغلاق أو أي محاولة لتأسيس فاعلية داخلية لأي دولة تحاول تحقيق التطور بذاتها . [1]

يذكر السيد يس في هذا الصدد " أن العولمة عملية مستمرة تكشف كل يوم عن وجه جديد من وجوهها المتعددة " . [2]

---

(1) سلامة كيلة : " ملخص الفصل السادس من كتاب العولمة الراهنة : آليات إعادة إنتاج النمط الرأسمالي العالمي " ، ( مجلة البديل . 17 أيار . سنة 2005 . الانترنت ) .

(2) السيد يس : في مفهوم العولمة (المستقبل العربي . بيروت . العدد 228 . 1998/2 )، ص 60 .

## منطقية الخطاب الليبرالي :

الاختبارات الحياتية عبر التجربة الإنسانية لخطاب الفكر فرض تغيرات ابستمولوجية عليه . صار على الفكر الفلسفي أن يتخلص من الإنشاء الفارغ ، والعبارات غير المتعينه ؛ وقد حدث هذا التغير كحصائل للنقد الفلسفي والاجتماعي في القرن التاسع عشر .

وكانت جذور هذا النقد تأسست فلسفياً مع ( عمانوئيل كانط ) 1720-1804 الذي فكر في أساس عملية المعرفة ، لكي يمنحها انقلاباً كوبرينكياً ، انطلاقاً من حدوس الإحساس ؛ ومقولات الإدراك ومبادئ العقل القبلية . باعتبارها أساساً علمياً لتحديد الحقيقة.

وكان أيضاً النقد الهيجلي للفهم التقليدي للعقل عندما ابتكر المنطق ؛ وجاء كذلك ماركس ليعطي نقداً اجتماعياً ينطلق من ضرورة فهم العلاقة بين الوعي الاجتماعي والأساس المادي للتشكيلة الاقتصادية ، الاجتماعية .

تحول العقل الإنساني من تضاريس خطاب الفكر النقدي هذا ، وكرس تأويلاً جديداً لعملية التعقل ، وفتح استراتيجية جديدة للتفكير الإنساني . من هذا المنطلق قال هانس جورج غادامير : " يمثل القرن التاسع عشر حقبة فقدت فيها الفلسفة الميتافيزيقية سلطانها لصالح الوضعية المنطقية " .[1]

اهتمت الوضعية المنطقية.[*] بقواعد التفكير السليم ، والوصول إلى لغة أو طريقة تعبير محددة لأفكارنا فكل إنسان يفكر ويعبر عن أفكاره ، وكلما كانت أفكاره واضحة محددة كان تعبيره دقيقاً لغةً ومعنىً ؛ ومن ثم يتم التفاهم بين الأفراد بصورة منطقية .

وهنا نواجه خطاباً زائف اللغة و المعنى ، وغير واضح يتلاعب بالألفاظ الزائفة، فيدعي انتماءه إلى لغة الحرية ومنح الحقوق ، وهو في حقيقته واقفـــاً ضد هذه الحريات ؛ فهو غير منطقي عندما يجعل الإنسان عبداً للتقنية و التكنولوجيا ، وتملك المعرفة السلطة التي تقمع الإنسان وحريته ، فهي تستخدم خطاباً غامضاً فضفاضاً منقطع الصلة بالواقع والوقائع .

---

(1) هانز جورج غادامير : بداية الفلسفة ، بدون طبعة (دار الكتاب الجديدة المتحدة . بيروت . 2002) ص 17 .

(*) تأسست الوضعية المنطقية في حلقة عرفت بحلقة فيينا اهتمت هذه الحلقة بفكرة " وحدة العلم " وطالبت بلغة موحده يمكن التعبير بها عن كل قضية علمية . رجب بودبوس:محاضرات في الفلسفة المعاصرة ،الطبعة الأولى (دار الأنيس للطباعة والنشر والتوزيع. مصراته. 1996).ص 175-176.

وما يجري على الواقع تحت هذا الشعار هو ما تقوم على أساسه أفكار هذا الخطاب الرأسمالي الأصل ؛ فهذا الخطاب يدعي الواقعية والاعتماد على وحدة العلم والتجربة إلا أنه في الحقيقة غير ذلك ، لإن لغة المنطق ، والتفكير السليم والواقعي لا تعني منطقية الواقع بقدر ما تعني فرض المنطق على الواقع.

إن الخطاب الليبرالي الجديد لا ينطلق من وضعية منطقية فهو يحمل النقد في ذاته وعندما يقوم بطرح أفكاره وخطاباته بهذه الطريقة القسعية فهو في الحقيقة تسلطي وغير واقعي. الوسيلة في طرح هذا الخطاب بالطريقة العسكرية ما هو إلا تسلط واستعباد ؛ فهو خطاب التكنولوجيا التي أعمت الإنسان أمام الخيارات المتاحة ، والتي منها أصبحت هي من تعرض الشئ الذي تريده ؛ ويجد الإنسان نفسه لا وسيله له إلا اتباع ما هو معروض ؛ ولا يبحث ولا يحاول البحث عن غيره .

حاول مؤسس الوضعية المنطقية ( فتجنشتاين )1889-1951: وضع تعريف لحدود إمكانية أي خطاب و رأى بأنه محاولة التعبير من خلال تحليل بنى اللغة القائمة . يقول بهذا الصدد [ " **حدود لغتي هي حدود عالمي** " ] .[1]

فيجب أن تكون بنى أي خطاب واضحة ودقيقة لغة ومعنى ليكون واقعياً ؛ وفي اعتقادي خطاب الليبرالية الجديدة قائم على غموض اللغة والأفكار ؛ يستخدم الألفاظ لتحقيق مصالحة وراء زيف معاني الألفاظ .

فالحرية التي تعني امتلاك الإنسان الحق في العيش دون أي نوع من أنواع الاستعباد يحمله هذا الخطاب بمعنى مغاير ؛ فالحرية أصبحت حرية الاختيار بين العديد من الأشياء ، وفي ذات الوقت يحمل شيئاً يجد الإنسان نفسه أمامه عبداً مستعبداً .

---

1- المرجع السابق : رجب بودبوس : محاضرات في الفلسفة المعاصرة ، ص 180.

وبرأي ( كرناب )-1891- 1970: أن العبارة أو القضية ( الخطاب ) إن لم تكشف عن تحقق معناها الواقعي والتجريبي فهي عبارة أو قضية ( خطاب ) زائف وخال من المعنى .[1]

أفادت الليبرالية الجديدة - في إطار تشكلها كخطاب — من الوضعية المنطقية ، وذلك عندما قلصت القول (الكلام) إلى حدود الحقائق الواقعية الجامدة ، وخصصت الخطاب فقط لتشريع المصلحة والقوة .

هنا تكون الوضعية المنطقية قد هيأت لليبرالية الجديدة إمكانية استثمار المعرفة التي أحرزتها لإبراز اقنومي : المصلحة والقوة بصورة واضحة ، بعيداً عن الزوائد العاطفية أو الأقوال الغائمة التي كانت محمولة في عملية المعرفة ، قبل ظهور الوضعية المنطقية . بكلمة واحدة تم إدماج منجزات الأخيرة واستثمارها في خطاب الليبرالية الجديدة . وغني عن القول إن هذا لا يتم بصورة إرادية واعية من قبل فئة من البشر ، بل هو يأتي في سياق تحولات الخطاب وتغيراته التاريخية .

(1) المرجع السابق : محاضرات في الفلسفة المعاصرة ، ص 181 .

## الليبرالية الجديدة و الإنسان :

لقد ابتعد الفكر عن الإنسان : فبعد أن مر الإنسان عبر مراحل الفكر والتاريخ والتقدم؛ وتطوره من شكل الإنسان القبلي إلى الإنسان الإقطاعي ، حتى الإنسان البرجوازي ، وصولاً إلى الإنسان التقني . .

هذا التشكل للفرد عبر التاريخ ( كإنسان ) متأثرا بالأنظمة الثقافية ، والفكرية والاجتماعية يوحي بتطور الإنسان وتقدمه ؛ لكن مع هذا التقدم خسر ( الفرد ) كينونته الحقيقية ؛ ويرجع ذلك لابتعاد الفرد عن إنسانيته ، واندماجه في مشاكل الحياة والتطور والتقدم التقني .

بناءً على ذلك فقد قدمت العديد من الأيديولوجيات أفكاراً وخطابات تريد انتشال الفرد من ركام هذه التقنيات ومن سيطرتها عليه . ومن استخدامه كآله لها ، وهي التي كانت السبب أساساً في ابتعاده عن إنسانيته وكينونته .

من هذه الإيديولوجيات ( خطاب الليبرالية الجديدة ) الذي تقدم بطرح فكري يدعي منح الحقوق الإنسانية ، وتحقيق الحرية ؛ وإيجاد الطريق للوجود الإنساني من خلال تحقيق كينونته الأصيلة وحماية نفسه من أي سيطرة فوقية ؛ وعندما نتبع خطوته أي ( الفكر ) نجد أن كل حضارة ظهرت حملت معها شعار تحقيق الإنسانية ؛ سواء منها الحضارات القديمة أم الحضارات الحديثة ، وحتى المعاصرة .

فالإنسان على مر العصور لا يكون إنسانا إلا إذا ارتبطت إنسانيته بحريته ؛ وامتلك حقوقه التي تصنع منه مواطناً داخله وطنه . المواطن الذي هو ذلك الفرد ( كإنسان ) بمجتمعه ممنوحاً حقوقه وحريته .

و **التساؤل المطروح**: هل يستطيع ( الفرد ) أن يحقق وجوده وكينونته ؛ على سطح الأرض مع كل هذا التقدم والتطور الحضاري والتكنولوجي ، وبعد تخليه عن معالم السيطرة الدينية بالذات ؟

يخلص هربرت ماركيوز في كتابه : ( الإنسان ذو البعد الواحد ) . إلى أن المجتمع هو نمط جديد من الإستبداد ! لأنه أصبح يتقبل كل شيء جديد دون أي نقد أو اعتراض؛ وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على انتفاء الوعي على كافة الأصعدة الاجتماعية ، والفكرية، والثقافية ... الخ .

فقد اتسم هذا المجتمع الجديد ( بالصناعي ) وظهرت معه السلطة على الفرد من قبل المجتمع الذي فرض أفكاره من خلال مؤسساته ؛ وقيمة الثقافية ، وذلك من أجل استلاب الفرد وإعادة صياغته ( كإنسان ذي بعد واحد ) إنسان ليس له القدرة على التفكير والتعبير بل عبارة عن إنسان نمطي .

وهذا ما تسعى إليه الهيمنة الغربية في خطابه الليبرالي الجديد ، صنع مجتمع مفلس بالكامل من أي محاولة للتقدم ، ولو كان تحقيق أهم نتاجه ( الإنسان ) الذي فقد القدرة على تنمية خصوصيته وتميزه كفرد ؛ وبالتالي فقد إنسانيته في ظل هذا المجتمع الصناعي الحداثوي .

أصبح إنساناً يسير وفق خطاب مرسوم مسبقاً له ، خطاب ليبرالي يمنعه من الانفلات ، ويجعله دائماً تحت هيمنة القوة الصناعية وسيطرتها، إن إنسانية الفرد تتحدد في قدرة عقله ، وتذهب هباءً تحت قبضة الاستلاب و التشيوء .

وقد حدد هيجل وظيفة هذا العقل من خلال ( القدرة على الرفض والنفي) إلا أن هذه القدرة لم تعد موجودة في إنسان المجتمع الصناعي الحداثوي .

لان هذا المجتمع قد عطل هذه القدرة ، وجعل رفض السائد في هذا المجتمع يعبر عن سلوك غير مقبول أو غير معقول يقول ماركيوز : " أننا لنواجه هنا واحداً من أكثر مظاهر المجتمع الصناعي المتقدم مدعاه للأسف : الطابع العقلاني للاعقلانية " .[1]

أي تقبل العقل الإنساني جميع أشكال التناقضات الفكرية، والاجتماعية، والروحية على أنها نتائج طبيعية لوجود المجتمع وتطوره؛ فيصبح الاستلاب حرية، و العسف عدلاً ؛ مما يحقق نوعاً من الانسجام المعرفي والاجتماعي في هذا المجتمع، ومن هنا يبدو كل تناقض لاعقلانياً، وكل معارضة مستحيلة؛ ولكن كيف تمكن المجتمع الصناعي من السيطرة على العقل الإنساني.

---

(1) هربرت ماركيوز : الإنسان ذو البعد الواحد ، ترجمة : جورج طرابيشي ،الطبعة الثالثة ، (دار الآداب ، بيروت ، لبنان ، 1988) ص 45 .

لدرجة أنها أعدمت قدرته على إيجاد الجديد ؛ أجاب ماركيوز عن ذلك : بأن المجتمع الصناعي يمتلك آليات جديدة ، وذات تقنية عالية تعمل من أجل تحقيق الرفاهية والوفرة الاستهلاكية ، تلك الرفاهية كانت السبب وراء شل القدرة الإنسانية في إيجاد الجديد ، وفي ذات الوقت فإن نفس التقنية التي استخدمه الإنسان من أجل السيطرة على الطبيعة . هي التي انتهت به اليوم بالسيطرة على ذاته .

إن آليات هذه التقنية انتهت إلى إفساد فعلي للكائن ؛ فهي تستهدف صناعة ( إنسان السوق ) ؛ وذلك من خلال امتلاكه حاجات زائفة يلهث الفرد لتوفيرها ؛ وما هذه إلا طريقة جديدة لأنظمة الاستلاب التي تترأسها الإمبريالية الأمريكية وشركاتها العملاقة . إن استلاب الكائن الإنساني هكذا . يكشف حقيقة هذا الخطاب الذي يدعي منح الحرية والحقوق للفرد ؛ ذكر عن ذلك ماركيوز " **فالناس يتعرفون على أنفسهم في بضائعهم** " . [1]

هذا ما وصل إليه الفكر الليبرالي من اختلال . حيث آليات التواصل والارتباط بين الإنسان ، والإنسان الآخر ، وبينه وبين مجتمعه تعلق بشكل مباشر وغير مباشر بالمنتجات الليبرالية المتعلقة بالاستهلاكية .

إن " **الآلية التي تربط الفرد بمجتمعه قد تبدلت هي نفسها** " . [2]

في حين حرية الإنسان الحقيقية تكمن في تحريره من الحاجات الزائفة التي سيطرت عليه ؛ وكبلت وعيه ، وذوقه وسلوكه ، وحولته بلغة ( إيريك فروم ) إلى كائن استهلاكي مشدود إلى الرغبة في امتلاك الأشياء . و ما جعل هذه الأشياء زائفة مغرية كما يذكر ماركيوز ناتجة عن رغبة زائفة هذه الرغبة صنعها المجتمع الصناعي من خلال الإعلام ، و وسائل السوق ؛ ومن خلال خلق الذوق العام المعمم ؛ فهذا التعميم هو الطريقة الاستلابية الخطيرة التي يمتاز بها المجتمع الصناعي المعاصر .

يمارس هذا التعميم وظيفة المحافظة على المجتمع من أي محاولة للتغيير أو التحديد ؛ الذي سيكون ضد خطط خطاب الليبرالية الجديدة التي تقوده إمبريالية رأسمالية.

---

(1) المرجع السابق : هربرت ماركيوز : الإنسان ذو البعد الواحد ، ص 45 .

(2) المرجع السابق : الإنسان ذو البعد الواحد ، ص 45 .

هكذا تحول خطاب الليبرالية الجديدة الذي حمل في السابق الدعوة إلى الحرية الفردية ، و اختيار ما يراه الفرد قد يحقق سعادته ؛ إلى مجرد شعارات زائفة يتم دمجها في منظومة إنتاجية، واستثمارها لمصلحتها من خلال منح حرية مقبولة بالنسبة لها تعمل بشروطها؛ والذي نراه جلياً في واقع الإنسان المعاصر .

فعندما يظن الفرد نفسه حراً إذا سمح له بالاختيار ، وهذا الاختيار في الحقيقة قد حدد له مسبقاً بحيث يستبعد أي بديل فعلي للواقع السائد ذلك " **أن الحرية ، المنظمة من قبل مجموع اضطهادي ، يمكن أن تصبح أداة سيطرة قوية ، فالحرية الإنسانية لا تقاس تبعاً للاختيار المتاح للفرد ، وإنما العامل الحاسم الوحيد في تحديدها هو ما يستطيع الفرد اختياره . وما يختاره** " . [1]

على هذا ، يمكن القول : إن الخطاب الليبرالي الجديد يؤلف جاهزية معرفية ، ليرى الإنسان من خلالها العالم ؛ بل تجعله يتوافق مع تشكيلته وعلاقاته القائمة ، وبالتالي يفقد الروح النقدية ، ويمتلئ بالنزعة الاستجابية الآنية الاجتماعية ( Social reflexivity ) على حد تعبير عالم الاجتماع الإنكليزي المعاصر انطوني جيدنز . [2]

**وهكذا نتساءل** كيف تصبح المعرفة في ظل سيطرة خطاب الليبرالية الجديدة أداة سيطرة وتسلط ؟

من المعروف لدينا أن المعرفة لعبت دوراً عظيماً كنتيجة حتمية لكل هذا التقدم والتطور التقني والتكنولوجي ؛ إلا أن تلك المعرفة تحولت في ظل خطاب الليبرالية الجديدة من معرفة واقعية مشهديه إلى مرآوية متجاوزة المشهديه . فأصبحت أداة سيطرة وتسلط بدلاً من أن تكون وسيلة لتحقيق الرفاهية ، وأصبحت في هذا العصر شراً لابد منه . [3]

حيث أن منتجاتها غير المنطقية على الإنسانية أصابت الإنسان والمجتمع بنوع من القيد على كافة المستويات الفكرية والثقافية و الإنسانية ؛ بالحقيقة قدمت المعرفة للعالم تكنولوجيا هائلة كان يمكن أن تستفيد بها الإنسانية لو سيطر عليها الإنسان .

---

(1) المرجع السابق : الإنسان ذو البعد الواحد ، ص 43 .

(2) انطوني جيدنز : بعيداً عن اليسار واليمين : مستقبل السياسات الراديكالية ، مرجع سابق ، ص 14.

(3) مطاع صفدي : لقد الشر المحض ، الطبعة الأولى (مركز الإنماء القومي ، بيروت ، باريس ، 2001 ) ، ص 130.

إلا أن هذه التكنولوجيا تجسدت في يد قوة إمبريالية اتخذت المعرفة وسيلة لإحكام سيطرتها على العالم .

ومع ذلك اعتمدت الحداثة التقليدية المشروع الثقافي الغربي كأرضية متميزة لبلوغ مرحلة متقدمه ؛ أما الحداثة البعدية اكتشفت أن التقدم المقدم عبارة عن خطاب، إيديولوجي من أخطر الإيديولوجيات وأقواها ؛ لأنه وجد هويته بمرآوية يومية مسيطرة هي التكنولوجيا ، كما لو كانت مرآة هائلة تعكس على سطحها أحلام الإنسان الأقدم ، والأكثر تجذراً من السيطرة على الطبيعة إلى بلوغ حالة الرفاهية والأمان .

لقد نجحت التكنولوجيا في ترسيخ هذه الصورة وفاعليتها ، وسار نجاحها موازياً لتعميم النمط الاستهلاكي على كافة الشعوب بالعالم . حتى ولو حملت جانباً سلبياً على هذه الشعوب . إلا أن ما أتضح على هذه المرآة لم تعكس واقعاً ممكناً بقدر ما تعكس كماً هائلاً من أحلام اليقظة الجماعية ، والتي لا تزال مجتمعات كثيرة تحاول الصحو منها بشتى الطرق .

مع دخول الإنسان عتبة الألفية الثالثة . فإن مسمى هذا الدخول ( المرآوية ) ، و ذلك لان كل شئ في الحياة الآن موجه من خلال المرآوي الغربي الإمبريالي ، ومن خلال خطاب أيديولوجي يدعي تفرده كحقيقة واقعية للإنسان ؛ والإنسانية . إن المعقولية تشتمل من خلالها الجديد والمتطور الذي يقدمه المجتمع كمشهدية خاص به ، يستطيع من خلاله أنجاز الأفضل والأحسن للفرد ( كإنسان ) داخل البيئة الخاصة به والتابع لها .

إلا أن المرآوية قمعت هذه المشهدية عبر تاريخ طويل من الزمن ، تجسد في الاستعمار المباشر ، وغير المباشر ؛ ولأن المشهدية دائماً مضطهده فإنها تنقلب إلى المرآوية بالخدع والمخادعة . هكذا أصبح الوضع ارتباطاً توأمياً بين المشهدية و المرآوية " ذلك أن إسقاط المشهدية ، أو تقليص دورها يتيح للمرآوية أن تكتسب كل أرصدة المشهدية لصالح استهلاك المرآوية ، مع ضياع الآمل نهائياً . ويوماً ما يكشف استهلاكها العدمي الهائل تحت اسم المشهدية الذي تقتنع به " . [1]

---

(1) المرجع السابق : نقد الشر المحض ، ص 132

هكذا كان للخطاب الليبرالي الجديد القوة التي اكتسبه بفضل المعرفة التي رافقته حتى الآن ، والتي أعطت له وسيلة السيطرة من خلال تكنولوجيا جبارة أحكمت به السيطرة على العالم من حولها بخطابات زائفة تحمل شعارات واهية . أو التهديد باستعمال تكنولوجيا مدمرة، وهي تحاول دائماً عدم كسب هذه المعرفة عند غيرها ، حتى لا تقف أمام تقدمها السلطوي.

في أوقات كثيرة وبمجتمعات وحضارات زاهرة كادت المشهدية أن تحقق تطوراً بعيداً عن أي سلطة قامعة ، وكادت أن تحقق خطاباً تقدمياً خاصاً بها . إلا أن المرآوية كانت لها بالمرصاد على كافة الأصعدة الفكرية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والتكنولوجية، و الاستراتيجية ؛ بل تذهب أبعد من ذلك عندما تحاول تقديم خطاب يحمل ما تسعى إليه هذه الشعوب من حرية ، ورفاهية ، وخطاب جاهزية يخدم مصالحها وسيطرتها على المجتمعات " **إي في الوقت الذي تستطيع فيه المرآوية أن تقتنص عزيمتها الحاسمة – غير القابلة للاقتناص – وهي المشهدية . تقتنصها من مشهديتها الخاصة ، وتجعلها : تحترف مشهديات المرآوية ، كما لو كانت هي مشهديتها – بالذات** " . [1]

ولأن المشهدية فقدت قدرتها على التميز أمام سوق الاستهلاك المعروضة ، تناست المشهدية كينونة الإنسان ؛ ومع ظهور الثورة الحاملة شعار (حرية – مساواة – إخاء ) ظهرت أدلجة حاملة خطاب تحقيق هذا الشعار في العالم . في الوقت ذاته حملت التناقض معه ؛ فهي عندما تقوم بعزل نفسها عن بقية العالم، تحاول أن تقتنص عالمية العالم كعالميه خاصة به.[2]

فهي بذلك تضع لنفسها مهمة جديدة تبرر بها مصالحها ؛ وهي تحقيق الحرية ، والديمقراطية ، وتحقيق الكينونة الأصيلة للإنسان والعالم ؛ بل ولمستقبلهم .

لكنه بهذه المهمة التي أوكلتها لنفسها تستخدم أسلوباً قمعياً ، فهي تطرح خطابها بطريقة عسكرية إيديولوجية ؛ وعندما أسست الليبرالية الجديدة خطاب العولمة ، ونهاية التاريخ، والأمركة ..الخ . من الشعارات كحقوق الإنسان ، ومنح الحريات وغيرها .

---

(1) المرجع السابق : ص 160.

(2) المرجع السابق : ص 160 .

قامت في ذات الوقت بتشبيه ذلك بمثال القنبلة الكليانية الانشطارية متتابعة التفجر مكانياً و زمانياً ؛ وما هي إلا تلوث كوني ديكتاتوري . [1]

إن هذا الخطاب في حقيقته ليس إلا بلاءً على الكرة الأرضية فقد جلب الصراع من جديد بين المشهدية و المرآوية ؛ بين الحقيقة والوهم . فالمرآوية ما هي إلا قلب الأشياء الحقيقية لدرجة اقتناع المشهدية بأن هذا المقلوب هو الحقيقة ولا شئ سواه .

مع خطاب الليبرالية الجديدة الاعتماد على هذه المرآوية كان أساساً في طرح الخطاب، وذلك لتبرير أفعالها ، وهو الذي يقلب الأدوار من كونه عدواً معتدياً إلى إقناع ضحاياه بأنهم هم الأعداء ، وأنه جاء من أجل السلام والإخاء للإنسانية .

وبذلك عد عصر خطاب الليبرالية الجديدة عصراً مرآوياً كونه يحمل الاعتداء على العالم ، وفي ذات الوقت كان له عدو دائم ( بقية العالم ) كونها ترى في نفسها مواقعية معاكسة ( لبقية العالم ) .

أما المشهدية والتي هي إعادة الصورة الحقيقية ، وإبعاد الخطاب المخطط له مسبقاً ؛ والدعوة التي تسعى للتحقق من هذا الخطاب و إيجاد حقيقته ، فإنها تعد العودة إلى الوجود وإلى الواقع .[2]

هنا تشابكت الحقائق ؛ وأصبح هذا الخطاب المرآوي كما لو أنه هو الحقيقة من خلال شعارات تحقيق ( السلام ، الحرية ) ، وفرض الديمقراطية الليبرالية كنظام سياسي يصل بالإنسانية إلى الرفاهية ، في حين هذه المشهدية هي الدمار الحقيقي للإنسانية . وهكذا يصبح الواقعي وهماً ، والوهم يتحول إلى حقيقة .

لآن ما تعتقد انه خطاب لتحقيق الإنسانية ؛ ما هو إلا دمار لهذه الإنسانية ، فما يحمله هذا الخطاب الجديد لا يتماشى مع معتقداتنا ، وحياتنا ؛ وإن كان ذا جدوى لحقوق الإنسان في مواقعيته هو. فهو ليس كذلك بالنسبة لنا ( بقية العالم ) ؛ وليس إلا تبريراً للاستعمار والسعي وراء السيطرة ، وخدمة مصالح ( أمريكا ) بالعالم .

---

(1) المرجع السابق : مطاع صفدي ، نقد الشر المحض ، ص 163 .

(2) المرجع السابق : ص 173 - 176 .

## الليبرالية الجديدة و السياسة :

النظام السياسي بالمجتمعات القديمة اتسم بالقدسية ( للإله ) ، وهذه القدسية جعلت منه نظاماً يتعذر المساس به . إلا أن المجتمعات قامت بتحطيم قيود هذه القدسية ؛ وظهرت مجتمعات جديدة متحررة من قوانين الطبيعة والميتافيزيقا ، وكان لهذا التحرر الفضل في قيام التطور والتقدم العلمي والتقني الذي حرمنا منه بعصر الخنوع الكنسي .

ففي العصر الحديث والمعاصر ظهرت بالغرب الفلسفة السياسية ، والنظريات الدستورية التي كانت وراء تأسيس ووجود الدولة الليبرالية ( دولة الحقوق ) ؛ ويعود هذا التميز للقرون الأخيرة التي اتسمت بالاكتمال والتقدم الفكري ، مقارنه مع القرون السابقة

فقد قام مفكرو هذه العصور بتأسيس نماذج عديدة للتنظيم الاجتماعي ، وعد النموذج الغربي النموذج السامي لتنظيم العلاقات بين البشر ، وكان للأفكار الجديدة ( حقوق الإنسان – حرية السوق – الديمقراطية – المؤسسات الحرة ....الخ ) . الطريق إلى تشييد مؤسسات جديدة قائمة على القانون ، والنظام التعددي ، ودعم ذلك القوة العسكرية المتطورة التي جعلته ( البراديغيم ) الحلم . خصوصاً بعد انهيار النظام الفاشي والشيوعي .

كان التنظيم بالعصور الوسطي قائماً على مبدأين الأخلاق / القانون . رأى ( توماس هوبز ) بالقرن السادس عشر أن هناك طبيعة أخرى غير طبيعة الإنسان تتحكم بالكون ، بينما رأى هيوم أن ( العقد الاجتماعي ) هو الذي يحقق العدالة ،،وهي من صنع البشر من غير أن تكون من صياغة العقل الإنساني .

في حين (برغسون) يرى أن هناك نظاماً ينتج عن أفعال الإنسان من غير قصد أو نية. بينما أدم سميت يرى في ( اليد الخفية ) المتعلقة بحرية السوق ؛ أنه – لا يد إله ، ولا يد إنسان – ؛ بل هو المجتمع الذي ينظم ذاته بذاته . [1]

هكذا أتسمت القرون الأخيرة بمحاولة إدراك مؤسسات أكثر ( قبولاً ) لإيجاد تنظيم اجتماعي عفوي ، يحقق أفعالاً إنسانية تعـــددية تهـــدف للتوافق والتلاؤم بين البشر ، ويحقق

---

(1) تركي الحمد : " الدولة والسيادة في عصر العولمة " (مجلة العربي . الكويت .العدد 494 .يناير 2000) ص 56.

قوانين مجردة تسمح بالتنافس في الأسواق الاقتصادية آنذاك ، وتحقيق مؤسسات برلمانية ليبرالية تسمح بالحرية العلمية ، الحرية الفردية ؛ وإلغاء التسلط على الأفراد .

هذه الحريات هي التي أنتجت النموذج الغربي الذي امتد حتى اليوم إلا أن هذا ( البراديغيم ) اتخذ مسالك أخرى بتبني خطاب الليبرالية الجديدة . [1]

(1) المرجع السابق : تركي الحمد : " الدولة والسيادة في عصر العولمة " ، ص 57. 58 .

## حرية سوق أم تغول الاقتصادي :

جاء ظهور الأفكار الليبرالية مع عصر التنوير ، وحتى الثورة الصناعية ( 1750- 1850 ) بدور هام ساهم في تطور البشرية . كونها تعد انتصاراً على النظام الإقطاعي الذي ساد العصور الوسطى ، نظام الاستبداد والعبودية و قهر حرية الفرد وحقوقه ، النظام الذي شكل عائقاً أمام تطور الرأسمالية عند ظهورها .

أدرك الليبراليون نتائج هذا الانتصار ، و أدركوا ملامح عصر جديد متطور فسلحوا العقلية الرأسمالية بنظرة جديدة هي " **إعادة اكتشاف الفرد وحقوقه وقدرته على التغيير والسيطرة على الطبيعة** " . [1]

بذلك اتخذت الأفكار الليبرالية إيديولوجية منظمة تعبر عن مصلحة الرأسمالية الوليدة ، واتسع انتشارها بسرعة في العالم كان لهذا الانتشار دور في تحقيق احتياجات النظام الرأسمالي الصناعي الجديد الذي كانت مطالبه إزالة العوائق التي تقف أمام تطور الإنتاج الصناعي ، وإطلاق حرية المنافسة من أي قيد ؛ وإبعاد الدولة عن التدخل في النشاط الاقتصادي على أن يكون دورها الحماية داخل البلاد وخارجها ، في حين تتكفل حرية المنافسة ، والمبادرات الفردية وآليات السوق بتحقيق مصلحة المجتمع ، لأن الفرد عندما يسعى لتحقيق مطامحه وأهدافه. يحقق ذلك بطريقة لا إرادية مصلحة المجتمع. أكد على ذلك آدم سميث أبو الليبرالية عندما تحدث عن اليد الخفية .

جاءت الليبرالية في ذلك الوقت لتؤكد أن تطور المجتمع يحتاج إلى تمكين الفرد من مزاولة أقصى درجات التوافق بين المصلحة الفردية ، والمصلحة العامة . ولابد من انتهاج سياسة عدم التدخل ، أي حرية العمل ، وحرية التعاقد ، وحرية التجارة، وحرية التنافس، وإبقاء الحكومات والمنظمات الاجتماعية بعيدة عن التدخل في طريقة عمل هذه الحريات .

جاءت نهاية الحرب العالمية الثانية بخطر الشيوعية الذي أخذ يهدد أوربا ، وانتعشت بذلك المواجهة بين الشيوعية والغرب . فقد حققت الشيوعية موقع قوة بمعظم الدول الأوربية، ووجدت الشيوعية التأييد من الاتحاد السوفيتي بسبب الانتماء العقائدي .

---

(1) رمزي زكي : الليبرالية المتوحشة ، الطبعة الأولى ، ( دار المستقبل العربي . بيروت . 1993 ) ص 19.

استمالت الدول الغربية الأحزاب الشيوعية ، ويرجع هذا الانسجام بين الدول الغربية، والاتحاد السوفيتي ( للعدو النازي المشترك ) من ثم عانت ألمانيا من الأوضاع الاقتصادية المتردية بسبب امتلاك السوفيت للشرق الألماني ، وامتلاك الغرب للغرب الألماني ، والذي زاد من انهيار أوربا . أعطى هذا دعماً للحركة الشيوعية وهيئت ظروف وبيئة مناسبة لنشر دعوته . في هذه الفترة ظهرت الولايات المتحدة كزعيم لصنع " العالم الحر " . (1)

جاء ذلك مع إعلان وزير الخارجية جورج مارشال 5 يونيو 1947 (مشروع مارشال) القائل بوضع برنامج إعانة لأوربا اقتصادياً ، ودعا جميع الدول الأوربية لوضع خطة التعمير ، وإن الولايات المتحدة الأمريكية على استعداد لتقديم المساعدة المالية . هذا التعاون كان خوفاً من خطر الشيوعية ؛ مع اشتراك الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية عام 1941.

إلا أن هذه الحرب ساعدت على إنعاش الاقتصاد الأمريكي وخاصة بعد الأزمة العالمية 1929 . وعكس أوربا التي عانت اقتصادياً فالولايات المتحدة لم تكن في حاجة إلى تحويل الاقتصاد المدني إلى اقتصاد حرب ، وعملت على إضافة طاقة إنتاجية بأغراض الحرب ، وكانت هذه الدعوة لتعمير الاقتصاد الأوربي ؛ ورسماً لسياسة الدخول كشريك في المستقبل بالاقتصاد الأوربي. هذا ما حدث من خلال تجمع ثمان الدول الصناعية العالمية . وتحقق مشروع مارشال باجتماع ( ست عشر ) دولة أوربية ، ونشأ ما يعرف ( بالمنظمة الأوربية للتعاون الاقتصادي ) من أجل توفير استقرار اقتصادي ومالي . أحيي هذا المشروع التجارة الحرة في الدول الأوربية من خلال الأخذ بسياسة حرية التجارة متعددة الأطراف والتحرر من قيود انتقال رؤوس الأموال.. الخ .

إلا أن العداء بقي قائماً بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي ، وجاءت الحربين العالميتين بسوء داخلي للنظامين : فقد واجهت الدول الغربية الأزمة الاقتصادية العالمية عام 1929 ؛ وظهر خطر النازية الألمانية ، تحالف الاتحاد السوفيتي مع الدول الغربية ضد هذا الخطر النازي ؛

---

(1) حازم الببلاوي: " النظام الاقتصادي الدولي المعاصر . من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى نهاية الحرب الباردة " ، بدون طبعة ، (المجلس الوطني للثقافة والفنون .الكويت. مجلة عالم المعرفة . العدد 257. مايو/أيار سنة 2000) ، ص 18 .

و استفاد من الإعانة الاقتصادية الأمريكية ، وتحصل الاتحاد السوفيتي على السلاح والسلع الرأسمالية اللازمة للصناعة ، و استفادت من التكنولوجية المتطورة .

انتهت الحرب العالمية الثانية مع اكتساب الاتحاد السوفيتي مركزاً هاماً سمح باحتلال موقع بين القوى العظمى ، كما اجتازت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب منتصرة بسبب النظام الاقتصادي القائم على حرية التجارة ، واتخذت الإمبراطورية البريطانية ، وفرنسا كقوى اقتصادية من الدرجة الثانية ، واحتلت الولايات المتحدة الأمريكية المكانة الأولى اعتماداً على النظام الحر .

مع ذلك ومع قيام الحرب العالمية الثانية انقسم العالم إلى كتلتين غربية رأسمالية وشرقية اشتراكية . [1]

لقد تحقق انتصار الليبرالية الجديدة **أولاً** : مع مارغريت تاتشر في بريطانيا ، والرئيس ريغن في الولايات المتحدة . كثورتين ضد تدخل الدولة في السياسة الاقتصادية، وقيامها بثورة المحافظة الأولى ( الحد الأدنى من التدخل ) ، وكان مبدأ هذه الثورة تخفيض الظرائب على الأغنياء ليصبح الاقتصاد أكثر نمواً ونشاطاً . [2]

**ثانياً** : مع المجابهة ما بين الرأسمالية والشيوعية ، التي وضعت الولايات المتحدة في مواجهة الاتحاد السوفيتي من خلال اجتياز جدار برلين (*).

**ثالثا:** مع حرب العراق انتصرت عسكرياً الرأسمالية مدعومة بقوة الولايات المتحدة، و ( 28 ) بلد منها ثمانية بلدان إسلامية أقرت الحرب . [3]

عند ظهور الخطاب الليبرالي لم يتعلق الخطاب بحرية النشاط الاقتصادي فحسب، إنما شمل مجموعة من الحقوق الفردية ، ( كحق التعبير – الفكر – العقيدة ، وحق التمثيل النيابي والمشاركة في صنع القرار السياسي ) ... الخ .

---

(1) المرجع السابق : حازم الببلاوي: " النظام الاقتصادي الدولي المعاصر ، ص 24 –30 .

(2) ميشال آلبير : تناطح الرأسماليات في ظل النظام العالمي الجديد " الرأسمالية تناطح الرأسمالية " ، الطبعة الأولى (دار الحمراء للطباعة والنشر بيروت . . 1996 ) ص 9 .

(*) في التاسع من تشرين الثاني عام 1990. كان الشبان الألمان قد تجرؤا على اجتياز جدار برلين من الشرق ، وهم المشرون لأكثر من 300 مليون من المقموعين في البلدان الشيوعية المحرومين من الحرية، والأسواق الكبرى (الرأسمالية) ، المرجع السابق ، تناطح الرأسماليات ، ص 10 .

(3) المرجع السابق : تناطح الرأسماليات ، ص 10 .

إلا أن البرجوازية الصاعدة تمسكت بالجانب الاقتصادي من الليبرالية ، وذلك لأنه يمنحها تحقيق الإرباح والثروات الناتجة عن الجهود الفردية ، وحسن تدبيره ، حتى أنها وقفت ضد منح أي حرية للآخرين تتعارض مع حريتها ؛ أو تعطل أرباحها و امتلاكها السلطة .

كان لليبرالية الاقتصادية الفضل في تحقيق الإمكانات الهائلة للثورة الصناعية ؛ من حيث قوى الإنتاج والدخل والتراكم ؛ إلا أنه بنفس الوقت أنتجت قيوداً اجتماعية باستغلال العمال والنساء والأطفال في المراحل الأولى لثورة الصناعية ؛ وانتشرت البطالة والتفاوت بين الطبقات الاجتماعية ، أدت إلى أزمات اقتصادية بسبب اعتماد الصراع بالأسواق الخارجية ، ومناطق مواد الخام . هكذا ابتعدت عن النهج السليم لزيادة أرباحها ، حطمت المنافسة و أنتجت الاحتكار .

مع قيام الحرب العالمية الثانية دخلت الرأسمالية مرحلة جديدة من سماتها " الحد من الليبرالية المطلقة " . [1] من خلال منح الدولة دوراً بالتدخل في المجال الاقتصادي .

كانت الفترة (1945-1970) فترة ( الرفع من شأن الدولة ) التي لعبت دور الميزان بين قوى الطلب ، وقوى العرض ، وتميزت بارتفاع معدل النمو والتوظف ، والاستقرار النقدي ، وزيادة مستوى المعيشة ، وترسيخ أشكال الديمقراطية الغربية ، وبروز دور الدولة الاقتصادي والاجتماعي .

ذكر فوكوياما في مؤلفه ( نهاية التاريخ ): بأن عصر الرأسمالية هو نهاية التاريخ؛ وأنه أرقى ما وصلت إليه الإنسانية، أنقسم المدافعون عن الرأسمالية في إطار الخطاب الليبرالي الجديد إلى تيارين ؛ **الأول** : يرى في نظرية ( كينز) وهي ضرورة التدخل في الاقتصاد ، بأنه ستكون الحل لمواجهة أي أزمة اقتصادية.

**والتيار الآخر** : المدافع عن الليبرالية في شكلها الجديد ( الليبرالية الجديدة ) ، والتي تدعو لتحرر الأقصى للاقتصاد من كل العوائق الإدارية والبيروقراطية ، بمعنى انسحاب الدولة من كل دور اجتماعي واهتمامها فقط بالدور التشريعي، والسياسي وخاصة ما يتعلق (بالخارج) .

---

(1) رمزي زكي : الليبرالية المتوحشة ، مرجع سابق ، ص 21.

إن ما يميز الرأسمالية كما يقول لينين ( الربح والربح الأقصى ) ، وذلك من خلال الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ، والاستغلال الأقصى لقوى الإنتاج ( الإنسان ) .

هكذا كان دائماً نمط الإنتاج الرأسمالي يحمل بداخله التناقض فهو يدعو إلى نظام عالمي تحت مسمى خطاب الليبرالية الجديدة .

وفي نفس الوقت يكمن التناقض في زيادة رأس المال بالعمل من خلال استغلال البروليتاريا ؛ والفرق الشاسع بين رأس المال العالمي والدولي ( أو الشركات العالمية ) ؛ بينه وبين الأمم المضطهدة .

بذلك يتضح الاستغلال وعدم المساواة ، وهذا ما تنادي به الليبرالية الجديدة. إن قيام الرأسمالية على هذه التناقضات يحمل أزمة بداخليا ، وبالتالي ستؤول إلى انزياحها وزوالها .

تتعلق أزمات الرأسمالية بالهيكلية البنيوية كونه نظاماً طبقياً يقوم على الصراع الطبقي بين الملاك والأجراء ، وما يتعلق بالأزمات الدورية المرتبطة بأسلوب الاستثمار مثل أزمة فائض الإنتاج سنة 1929 ، والأزمة النفطية ، وأزمات البورصة ؛ وبعد نشؤ الاشتراكية في أواخر العقد الثاني من القرن العشرين و بعد تصلب عودها في نصفه الثاني ، وبعد الحرب العالمية الثانية صارت منافساً قوياً للرأسمالية خصوصاً بأطروحتها بشأن تحقيق العدالة الاجتماعية ، والقضاء على الفقر ، ومنح الحقوق السياسية ، ومساهمة طبقة البروليتاريا في فرض هذه الحقوق .

إذن ، وبعد قيام الحرب العالمية الثانية ، وأثر الأزمات العميقة التي شملت كل الدول الرأسمالية ( أزمة الثلاثينات ) ، والحروب من 1939 إلى 1945 . تم التأكيد على ضرورة تدخل الدولة في مستوى تنظيم الاقتصاد من أجل ضمان الحقوق الاجتماعية ، التي كان فيه ( جون مايناردكينز ) من أشهر المنظرين على اعتبار الدولة لها دور في تصحيح الأوضاع الاجتماعية ، مثل المحاولة للحد من البطالة والتضخم والركود .

كانت فترة السبعينيات وبداية الثمانينيات فترة الأزمات الشديدة على الصعيد المحلي والعالمي ، نشب الصراع بين المفكرين الاقتصاديين حول " **طبيعة السياسة الاقتصادية والاجتماعية التي يجب لدول الرأسمالية السير من خلالها** " . [1]

مع انتصار التيار الجديد الليبرالي ضد التيار الكينزي الذي يدعو إلى تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي ، هكذا بدأ الليبراليون الجدد الذين يشنون هجوماً أيديولوجياً شديداً على تدخل الدولة ، وبالاستناد على أفكار الحرية الفردية المطلقة ؛ فأن سبب هذه الكوارث والأزمات الاقتصادية التي حدثت للرأسمالية إنما تعود إلى سياسات التدخل التي عطلت آليات السوق وحدث من المبادرات الفردية ؛ ولمواجهة هذه المشاكل والأزمات أقر الليبراليون ضرورة العودة لليبرالية المطلقة التي تنادي بتحجيم دور الدولة و أطلاق آليات السوق بلا حدود .

مع بداية الثمانينيات ونهاية السبعينيات حدث تحول تاريخي بفوز المحافظين بانجلترا بانتخابات 1979 ، وفوز مارغريت تاتشر 1980 ، وفوز الرئيس ريغن برئاسة الولايات المتحدة الأمريكية . تم التخلي عن نظريات كينز في السياسة الاقتصادية للدول الرأسمالية ، والاتجاه إلى أشكال أخرى تضمن مصالح رأس المال، وتحقيق أكثر حيوية للنظام الرأسمالي . [2]

نادى بتطبيق هذه السياسة الجديدة مستشار ريغن ( ميلتون فريدمان ) ومستشار تاتشر ( فريدريك فون هايك) مؤكدان على أن الدور الجديد والوحيد للدولة هو الحفاظ على الإطار العام الرأسمالي من خلال التشريع والقوانين ؛ مؤكدان كذلك على أنه كلما تمتعت المشاريع الاستثمارية بحرية أكبر كان النمو أكبر.

بناءً على هذا التوجه الجديد أصبحت الدول الغربية في الثمانينات . تبدل جهدها من أجل تحرير رأس المال من القيود . فألغت الرقابة و التدخلات الحكومية ، وأضحت تضغط على المعارضين لهذا النهج بالتهديد والعقوبات التجارية ؛ ووسائل الضغط الأخرى.

---

(1) المرجع السابق : الليبرالية المتوحشة ، ص 20 .

(2) مقال : صوت الشعب ، العدد 225 . 23 ديسمبر ، سنة 2003 شبكة المعلومات الدولية الانترنت mailto:pcot@albadil.org

جاء خطاب الليبرالية الجديدة كإيديولوجيا تتعهد الدولة وتفرض مجال التجارة الحرة ، وحرية السوق ، وحرية الصرف الأجنبي ، كما تغيرت المنافسة بين أصحاب رؤوس الأموال عندما تخلى عن الإنتاج الذي يعتمد على اليد العاملة ، وتم الاعتماد على الإنتاج المعتمد على التقنية الجديدة ؛ وصار عدم تدخل الدولة ، وتحرير التجارة ، وحرية انتقال رؤوس الأموال ، والخصخصة ؛ بمثابة استراتيجية للحكومات والمؤسسات ، والمنظمات الدولية المسيرة من قبل هذه الحكومات ؛ وهي بالأساس البنك العالمي ، وصندوق النقد الدولي ، ومنظمة التجارة العالمية .

قد أصبحت هذه المؤسسات وسائل تحارب بها هذه الدول من اجل التحرير الأقصى لرأس المال العالمي . . أو ظهور ما يسمى بدكتاتورية السوق العالمية التي نظمتها اتفاقية ( الفات).

إلا أن المشاكل التي اعترضت تطبيق هذه الاتفاقية فيما بين الرأسماليات؛ والتناقض الحاد بينها من أجل الربح والاستثمار الأقصى فرض ذلك وتأسست منظمة التجارة العالمية ، والتي بمقتضاها لم تعد الحكومات تعارض تلك القيود .

بل صارت تركز جهودها على العوائق الأخرى التي تحد من حرية التجارة بين الدول كاحتكار بعض الدول لبعض المجالات الاقتصادية أو القيود الفنية التي تتخذها دول اخرى .

هذه هي الميزات الأساسية لليبرالية الجديدة ( المتوحشة ) التي تقوم على إطلاق العنان لرأس المال على المستوى العالمي للاستثمار ؛ و الاستثمار الأقصى .[2]

في إطار استحقاق هذه المتغيرات الاقتصادية ، كان لابد من استنفار القوى المعرفية الاجتماعية ، من مفكرين ومنظرين لنشر سياسة الليبرالية الجديدة الاقتصادية والثقافية ؛ ولعبت الصحافة ، والفضائيات . ومراكز البحوث دوراً بارزاً في نشر خطاب الليبرالية الجديدة في أرجاء المعمورة.

---

(1) المرجع السابق : صوت الشعب ، شبكة المعلومات الدولية . الانترنت mailto:pcot@albadil.org

(2) المرجع السابق : صوت الشعب ، شبكة المعلومات الدولية . الانترنت mailto:pcot@albadil.org

## المبحث الثاني : الليبرالية الجديدة – الأزمة التكوينية .

جاءت الحداثة بفكرة الحق مؤسسة إياها على الأسئلة الواقعية المباشرة عن كيفية الحياة في ظل النسقية النظرية التي تجسد العقلانية الشاملة ، من هنا نلاحظ العلاقة بين الحقيقة كاستراتيجية للعقل في تعقله لمواضيعه ، وبين الحق باعتباره حصيلة أخيرة لكل حقبة حضارية؛ تجسد ذلك في النظام القيمي المسيطر والضابط العملي للأنساق القانونية والقضائية و البنى السياسية للدولة .

على هذا لا يمكن للمدنية أن تنفصل عن مسارات الحقيقة والحق ، فتكون منشغلة دائماً بقضايا المعرفة وعلاقتها بمؤسسات الأخلاق والسياسة والقانون . والإشكالية المركزية لليبرالية الجديدة إنما تتمحور حول تصورها الشمولي عن الحضارة الإنسانية الراهنة ، و التي فشلت فيه بخلق حالة من الانسجام بين مؤسسة الحق و حكمة الحقيقة ، أو بين الخير و العقل.

**والسؤال** هو لماذا تفشل الليبرالية الجديدة الآن في جسر الهوة بين القانون الأخلاقي الإنساني الذي يعنى بقيم الخير والجمال ، و القانون العقلي الذي يهتم بالحقيقة .

إن تلمس الإجابة عن هذا التساؤل يحيل الفكر إلى الجذور الفلسفية للازمة التكوينية لخطاب الليبرالية الجديدة . بكلمات أخرى ، أزمة تكوين خطاب الليبرالية الجديدة يودي إلى الكشف عن العلة الرئيسية للمستوى الفلسفي في خطابها . تعود هذه العلة إلى تاريخ العقل أو عملية التعقل عبر سياقها الزماني التاريخي .

وهنا ميز الفكر الفلسفي بين اتجاهين : **الأول** أتبعث منذ الترجمة اللاتينية للتعريف اليوناني للإنسان بالعبارة الشهيرة : ( الحيوان العاقل ) .

ومنذ ذاك الوقت صار يفهم اللوغوس بمعنى الحساب ، وبالتالي نقل مشكلة المعقول من ناحية ( الكلام ) أو اللغة العادية ، وكما احترفه اليونان ، إلى جهة الحساب أو اللغة الصناعية التي فقدت علاقتها مع الجماعة اللغوية العيانية .

" هذا الانزياح من مقام اللوغوس / الكلام إلى اللوغوس / الحساب ، هو انزياح من تجربة " المفهومية ".. اليونانية الأصلية إلى تجربة لاتينية للمعقولية .. قامت على استبدال Logos بمعنى Ratio ، أي استبدال الكلام بـــ"الحساب" في تدبير الموجود " . [1]

منذ هذا التغير أخذ فكر الحداثة من رينيه ديكارت إلى عمانوئيل كانط يكرس عمله الدءوب على عملية الانزياح من اللوغوس إلى الراسب الأخير في بناء ماهية الموجود ، وخصوصاً الإنسان ؛ أما الاتجاه الآخر في بناء أفق المعقولية ، فقد بدأ يتخذ ملامحه الخاصة مع ظهور الحاجة إلى اعتماد المعنى الأصلي للوغوس ؛ أي معنى الكلام أو اللغة . وقد عنى هذا حدوث زحزحة في قوام الفكر الفلسفي من المعقولية المتمركزة على نموذج التفكير الرياضي ، كما يلاحظ لدى رواد العقلانية الكبرى للقرن السابع عشر ، إلى نظام تعقل يحد من صلاحية الذهن العلمي والانطلاق باتجاه حقل مفهومية يمتد فيما أبعد من الحدود الصارمة للتجربة الممكنة في العلوم .

ولكن رغم المحاولة الجادة للفكر الفلسفي الحداثي مع جهود كانط ، و هيغل من بعده، لتجاوز مبدأ الحسابية الرياضي ، من خلال إعادة الاعتبار للوغوس الكلام ، بقي الفكر الفلسفي رهين نموذج القضية المنطقية ، المستندة بدورها على البرهنة الرياضية، الأمر الذي يجعل المفهوم و الذات الإنسانية خارج الزمانية التاريخية . وهكذا استمرت سيطرة مبدأ الحسابية كضابط لنموذج التفكير الإنساني ولروح الإنسان ، إلى خطاب المرحلة المعاصرة ، أي خطاب الليبرالية الجديدة .

تبدأ من هذه الفكرة عملية التساؤل عن الأزمة التكوينية لهذا الخطاب : ولعل القوة، الحق ، السلام من المقولات المركزية في هذا الخطاب .

وهذه المقولات تتخذ دلالاتها في المرحلة المعاصرة من الفكر الانكلوسكسوني ؛ وخصوصاً منذ الأطروحات النظرية لتوماس هوبز حول ذئبية الإنسان إزاء الناس الآخرين.

لقد لعب هذا النسق الفلسفي دور الأساس في تشكيل النظرية السياسية الموجهة للدولة و المجتمع ، بل والأساس في المشروع الثقافي الغربي عموماً ، ومنه الأمريكي خصوصاً .

---

(1) فتحي المسكيني : فلسفة الإله الأخير"هيدغر أمام هيغل من فينومولوجيا الروح إلى طوبولوجيا الوجود"، ( مجلة الفكر المعاصر. مركز الإنماء القومي .العدد 126-127صيف/خريف 2003 )ص 139-159 .

ولقد جاءت ضراوة الدولة ووحشيتها ( لوياثان ) من ضرورة إقامة التوازن بين الذئبية التي تشرعن ممارسة الإكراه من أجل تحقيق مصلحة الفرد ، والسلام الاجتماعي الذي يحفظ استمرار المجتمع واستقراره .

وهكذا تتقمص المصلحة والحسابية صورة العقل الفلسفي ، وبالتالي السياسي والاجتماعي . فسلطة الدولة تقف قبالة سلبية الآخر ( أي الإنسان ) لتمنعه وتضبطه ، وبنفس الوقت هناك اعتراف وتوكيد لطبيعته الأنانية التي تسوغ الاعتداء .

وهنا يقوم الصراع بين الطبيعي الإنساني و الاجتماعي الإنساني ، أو بين حق الأمن الطبيعي وحق السلام الاجتماعي .

فالدولة هي الآخر المخيف اللا شخصي بالنسبة لكل فرد من أفراد المجتمع المنطوين في إطار شرعية سلطتها ، والعلاقة بينها وبين المحكومين هي علاقات قسر وإكراه موجه من الأول إلى البشر . والقبول بهذه المعادلة يعني شرعية دور الدولة ، خصوصاً وأنها تحكم الجميع باسم سلطة القانون العادل وتوفر بالمقابل الأمن لكل فرد .

وهذا ما يلاقي تجسيده في المرحلة المعاصرة بالدساتير والقوانين الحارسة للنظام أو الأمن العام بالمجتمع أو الوطن ، وكان من البديهي أن تنطبق هذه العلاقة الذئبية على العلاقات الدولية ، بل وعلى العلاقات بين الحضارات .

فلا يستغرب ، إذن ، الصراع بين القوميات العنصرية التي تصاعدت مع اشتداد قوة الرأسمالية تاريخياً ، ومع تطور تقنيات الإنتاج ، والسلاح منه على وجه الخصوص.

وفي هذا السياق برزت فكرة التفاوت العنصري البيولوجي بين القوى الاقتصادية الكبرى المتصارعة والمتنافسة فيما بينها حول تكثيف الإنتاج وتطوير أدواته والسيطرة على الأسواق وعلى مصادر المواد الأولية .

كل هذا كان يتم في إطار التمييز بين الحضارة الغربية وبين من يقع خارج هذه الحضارة ، انطلاقاً من مبدأ ضمني يعترف بحضارة الغرب فقط ، وما سواها تعتبر شعوباً متوحشة لأنها لم تعرف الثورة الصناعية التي عرفتها أوربا الغربية.

هذا الموقف أفرز ثنائية مفهومية ، وهي فلسفة سياسية : التقدم والتخلف ، أي البلدان أو الشعوب المتقدمة والبلدان أو الشعوب المتخلفة .

وهذا هو الذي أسس نظرياً للحروب التدميرية الاستعمارية الغربية على شعوب بلدان ما يسمى ( العالم الثالث ) و منه العالم العربي ، ولعل الأيديولوجيات الغربية مثل النازية والفاشية تمثل تجسيداً لهذا البناء النظري القائم على التفاضل العنصري المزعوم بين الشعوب أو الأعراف أو الأمم أو الثقافات .

إن موجة الشيوعية العالمية في القرن العشرين تمثل جزءاً أساسياً من النسق النظري الذي قاوم الخطاب الليبرالي الغربي . ولكن الوقائع التاريخية الفكرية و الجيوسياسية بينت خطا هذا الطرح . فقد تجلى عجز النظرية الماركسية بكونها لم تجتح العالم ، و لم تسد فيه كما كان يعتقد مؤسس الماركسية كارل ماركس وصديقه فردريك أنجلز ومن بعدهما تلميذهما لينين .

كان من الطبيعي أن تلاقي فشلها ، لأنها من حيث الأساس الفكري ، حافظت على مبدأ العقل الحسابي الذي يقوم على القوة ولو كانت القوة التاريخية للبروليتاريا ، وكذلك على المصلحة ولو زينت بالزينة الأيديولوجية وهي الطبقة البروليتارية.

كما أنها من جهة ثالثة اعتمدت على الأطلاقية وهي استراتيجية الحقيقة القطعية، التي تجمد الفكر وتحصره ضمن الصيغة المثالية الجواهرنية التي تتجلى بفكرة خضوع التاريخ لقوانين (موضوعية نهائية) كما تزعم الماركسية. [1]

انكسار الايدولوجيا الماركسية وفشلها في التصدي السياسي للإمبريالية العالمية ، ترك الساحة الدولية فكرياً وسياسياً لسطوة الخطاب الليبرالي الجديد . وقد كان من الطبيعي بنتيجة ذلك ، أن يدخل في تركيب الثقافة العالمية الراهنة مصطلح نموذج ( القطب الواحد ) المتمثل بأمريكا، باعتبارها القوة الأعظم في العالم الآن .

---

(1) مقداد عبود: بين القطيعة والخلق " الحقيقة في الخطاب العربي المعاصر" ، بدون طبعة (دار الحداثة . بيروت .1999 ) ص 114.

وقد اتخذ هذا القطب الواحد مسمى آخر وهو : " **الأمركة** " .[1] وهي مآل خطاب الليبرالية الجديدة . فالعالم يتحول إلى مجال كلي لسيطرة الواحد الأقوى ، وهو القطب الأمريكي ؛ وما يمهد لفكرة نفي الاعتراف بتعددية الكيانات السياسية والدول والحضارات ليكون الاعتراف بعالمية العالم كإمبراطورية مسجلة باسم أمريكا . وهكذا تكون ( أمبطرة العالم )[*] ذروة آل إليها فكر الليبرالية الجديدة .

---

(1) يعتبر مارتن هيدغر من أوائل الفلاسفة المعاصرين الذين عملوا على هذا المصطلح . فأعطاه بعداً مفهومياً فلسفياً ، يقول : " إن الأمركة شيء أوروبي . أنها نوع غير مفهوم بعد من الهائل الذي ما يزال بلا قيود ، غير منبثق أبداً من الماهية الميتافيزيقية التامة والجامعة للأزمنة الحديثة . [ أما] التأويل الأمريكي للأمركة بواسطة البراغماتية فهو ما يزال " خارج الميدان الميتافيزيقي ". جاء طرح هيدغر هذا في البحث التالي: فتحي المسكيني : حديث القيامة بين " الخليل " و " الهائل "، (بيروت / باريس .مجلة الفكر المعاصر.مركز الإنماء القومي.العدد 124-125. 2002)، ص 24.

(*) وفق الاشتقاق الذي وضعه مطاع صفدي: مقدمة في نظرية القطيعة الكارثية ، (مجلة الفكر العربي المعاصر . بيروت/ باريس . مركز الإنماء القومي . العدد 124-125 2002 ). ص 9.

– ثنائية كائن حق وكائن حي :

صارت العالمية سمة العصر نتيجة لانكسار الحدود بين المعارف أو الثقافات أو بين الرساميل و الاقتصاديات أو الدول و الكيانات . فالثقافات تتداخل وتتواصل بسبب تكنولوجيا المعلومات والاتصالات و الرساميل ذات الهيئة الكونية تخترق الحدود القومية، والكيانات السياسية الصغيرة تدار عبر حركة المؤسسات السياسية الدولية ( هيئة الأمم المتحدة، مجلس الأمن ) .

لا أحد يستطيع أن يقف خارج العالمية أو العولمة . وهذه العالمية فرضت على الإنسان المعاصر مشهداً جديداً ، يتشكل من جانبين متقابلين : الأمبطرة ، وتعني إخضاع العالم لأمريكا؛ والعبودية ، وتعني خضوع بقية العالم لأمريكا .

هذا الوضع الكوني فرض استراتيجيتين فلسفيتين على المصير الإنساني : فإما أن يتحول الإنسان إلى مجرد كائن حي أي حيوان أو كائن طبيعي بدون خصائص التعقل والحقوق أو أن يتمسك بحقيقة كونه كائناً ذا مبادئ عقلية وحقوق اجتماعية . إن هذه الوضعية تستحضر التعريف الفلسفي اليوناني للإنسان ؛ الإنسان حيوان عاقل ، لكنها بنفس الآن تظهر كيف يتم إسقاط العقل للإبقاء على الحيوانية .

وهذا ما يتحصل عن خطاب الليبرالية الجديدة التي تبقي على المصلحة أو على ذئبية الإنسان في سبيل تحقيقها ( المصلحة ) .

وهكذا يطاح بالحرية التي تميز الإنسان كما بين الإرث الفلسفي الكانطي ، للمحافظة على الطبيعي الحيواني كما يذهب خطاب هوبز الفلسفي .

وهنا يفسح المجال للتمييز بين الحضارة المدنية ؛ التي تقوم على مبدأ إنسان العقل والحقوق ، و العولمية العبودية التي تقوم على مبدأ الكائن الطبيعي ، أي الإنسان المفصول عن بعده العقلي و المستعبد لحيوانيته .

لقد بين عمانوئيل كانط في كتابه ( نقد العقل العملي ) أن العقل الذي يتميز به الكائن الطبيعي ، هو الذي ينقله من خانة التصنيف الحيواني ؛ إلى حالة الإنسانية ؛ التي بها يتحدد ككائن إنساني أخلاقي . وباعتبار أن العقل هو " **هذه الملكة التي تسن القوانين من دون واسطة في ملكة الرغبة** " ، فإنه يعتبر " **عقلاً خالصاً عملياً** " . **وهذا العقل يقوم على**

**الإرادة الحرة ، ما يعني أن " القانون الأخلاقي " يفضي بنا إلى مفهوم الحرية ، " فبالقانون الأخلاقي نعرف أننا أحرار " .**[1]

ويميز كانط بين أدراك الكائن الإنساني وإدراك الظاهرات الطبيعية . فالأخيرة ندركها كما تتبدى ضمن شروط المكان والزمان ، أي ضمن خضوعها لقانون السببية الطبيعي . أما الحرية ، فقد حددها كانط في نقد العقل المحض ، بالقدرة " **على أن تبدأ من ذاتها وضعاً ، لا تدخل سببيته بدورها ( كما في القانون الطبيعي ) في سبب آخر يحددها في الزمن** " .[2]

و لكن لا يعني ذلك أن كانط افقد الحرية طابعها الموضوعي كحقيقة ، بل بين أن العقل العملي يمنح الحرية طابع الحقيقة الموضوعية . إن ذلك يتحقق من البرهنة الفلسفية على أننا كائنات عاقلة ، وأننا قادرين على أن نفكر أنفسنا كأعضاء عالم معقول أو فوق محسوس، موهوبين بسببية حرة .

يقول كانط في نقد العقل العملي: " **إن القانون الأخلاقي ، هو قانون السببية بالحرية، إذاً قانون إمكانية طبيعية ما فوق محسوسة** ". [3]

وعلى هذا يميز كانط تشريعين وميدانين مطابقين : ( التشريع بمفاهيم طبيعية ) ويشرع فيه الإدراك معيناً هذه المفاهيم في ملكة المعرفة ، وميدانه الظاهرات كمـــواضيع للتجربة الممكنة ، وبوصفها تكون طبيعة محسوسة ؛ و ( التشريع بمفهوم الحرية ) الذي يشرع فيه العقل ، ويحدد هذا المفهوم في ملكة الرغبة ، وميدانه البشر كطبيعة ما فوق محسوسة . [4]
وهنا الفارق النوعي بين الميدانين : الطبيعة الصماء و الطبيعة العاقلة . تشكل البرهنة الفلسفية الكانطية على البعد الطبيعي ما فوق المحسوس للإنسان ، وأيضاً على دور الذات الإنسانية في التشريع المعرفي والأخلاقي ، كما جاء في نقد العقل المحض ونقد العقل العملي ؛ تشكل (الثورة الكوبرنيكية ) التي جاء بها كانط ، و تشكل أيضاً المجال الذي انبنت في إطاره نظريته في الغائية ، عبر علم الجمال ، والغائية القيمية الأخلاقية ، باعتبارها إمكانية تحقيق الخير الأعظم ، أي تلاؤم المحسوس مع الغاية العليا .

---

(1) جيل دولوز : فلسفة كانط النقدية ، مرجع سابق ، ص **48،49**.

(2) المرجع السابق : ص **50**.

(3) المرجع السابق : جيل دولوز ، فلسفة كانط النقدية ، ص **52** .

(4) المرجع السابق : ص **52،53** .

فهناك غاية أخيرة وهدف نهائي للمعرفة والإنسان . فغاية التفكير هي المعرفة ، لكن هذه الغاية لا تعني شيئاً ، لو أن وجود من يعرف ( أي الإنسان ) لم يكن قد بات هدفاً نهائياً.

إن الإنسان ، ككائن أخلاقي ، **" وجوده ينطوي في ذاته على الغاية القصوى "** . [1] ، كما يقول كانط في كتابه نقد الحكم . وهذه الغاية العليا هي تنظيم الناس تحت سيادة القانون الأخلاقي ، أو الحرية في الكائن العاقل .

والطبيعة لا تحقق الحرية ، ولكن مفهوم الحرية هو الذي يتحقق في الطبيعة ، عبر علاقة نهائية للطبيعة والإنسان ، وهذا هو معنى فكرة الغاية الأخيرة . وهذه العلاقة تتحقق عبر العلاقة التأليفية الأصلية للإنسان : إنها التاريخ كفاعلية إنسانية غائية بامتياز. وفي مستوى وجوده الطبيعي الحسي ككائن حيواني ، والإنسان في مستوى وجوده ككائن فوق حسي ، عاقل.

وتتجلى العلاقة الغائية في وضع **" دستور مدني كامل : وهذا الدستور هو الموضوع الأسمى للثقافة ، غاية التاريخ أو الخير الأعظم الدنيوي بالضبط "**. [2]

لم تعترف الليبرالية الجديدة بهذا الطرح الفلسفي الكانطي ، الذي هو الوجه الإيجابي لليبرالية الكلاسيكية ، بل استثمرت الجانب السلبي فيه ، وهو الحسابية المصلحية والقوة اللا مشروطة إلا بالحاجة الطبيعية .

لهذا كان من الطبيعي أن يقف المحافظون الجدد ، أو الأمبطرة الأمريكية، ضد الكونية المدنية التي هي لكل الإنسانية ، من أجل أن تسخر العالم لمصلحتها الخاصة المستعبدة للكون عبر إخضاع القارات أو الحضارات لحضارتها هي دون غيرها .

لذلك يحق القول : إن الأمركة هي ضد المدنية الإنسانية ، والضدية تتجلى بإشعال الحروب ودفع وتيرة التسلح والحروب الاستباقية التي تشرعن لها (قانونياً) عبر المؤسسات الدولية وتنظر لها الليبرالية الجديدة ثقافياً وفلسفياً .

---

(1) المرجع السابق : جيل دولوز ، فلسفة كانط النقدية ، ص 118 .

(2) المرجع السابق : ص 122 .

من هنا تصنع الأمبطرة لنفسها سلطة القاضي الدولي ، أو الحكومة العالمية المسئولة عن العالم . وفي هذا الإطار يتم إخضاع هيئة الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن الدولي والبنك الدولي لسلطة الليبراليين الجدد ، أو المحافظين الجدد لكي يتخذ السلطان الطغياني صفة ( القانونية ) و( الشرعية ) ، ليصبح مصير العالم خاص بالإمبراطورية الأمريكية وإذا كانت الليبرالية الجديدة المتمثلة في القوة الرأسمالية الأمريكية المهولة والعسكرية العملاقة استثمرت فلسفة ميكافيلي وتوماس هوبز في ثقافتها الراهنة الممزوجة بالصهيونية المسيحية ، فلكي تؤكد الروح الشايلوكية التي جاءت في مسرحية ( تاجر البندقية ) لشكسبير ولتمجد الفردية وتسوغ حربها على الحالة المدنية التي تريدها الحضارة الإنسانية الراهنة ، ولتبرر التوتر الكوني والسيطرة على شعوب ( بقية العالم )

وإن النسق النظري الذي يقر بحرية الفرد المطلقة المنفلتة من الالتزامات الأخلاقية والقانونية المحددة من قبل الجماعة المجتمعية ، إلا بما يجسد المصلحة الفردية ، ويستوجب توفير أمنه من قبل النظام السياسي ، وهو الذي يجيز لليبرالية الجديدة مبدأ حساب المصلحة و ( مشروعية) سلطان الأقوى ليكون ناظما للعلاقات الدولية.

تظهر الأزمة التكوينية لخطاب الليبرالية الجديدة في الجذور التاريخية لتشكله ، إي في خطاب الليبرالية الكلاسيكية ، هذا من جهة ، كما ترجع من جهة ثانية ، إلى الطبيعة المعاصرة لهذا الخطاب حيث عمل على تسليع الإنسان والمعرفة في إطار تحديد مبدأ القوة والمصلحة وهذا التناقض المركزي الذي يشكل ماهيته .

وقد امتد ليشمل جوانب الوجود الإنساني ، إي المستوى المعرفي الفلسفي ، والمستوى السياسي ، والمستوى الاقتصادي ، وكل ذلك في إطار تحقيق الهيمنة الأمريكية على العالم ؛ بل و تسويغ أمركته.

**على المستوى الفلسفي المعرفي :**

لقد تمت الإشارة أعلاه إلى أن الخصائص المميزة للخطاب الفلسفي لليبرالية الجديدة ، لم تحدث قطيعة معرفية حقيقية مع أرومتها التاريخية : الليبرالية الكلاسيكية . فقد بقي خطابها يتمسك بالواقعية الفكرية ، ولكن ليست الواقعية التي كانت فيها الكلمات تمثل الأشياء ، كما كان سائداً حتى قيام اللسانيات الحديثة على يد دي سوسير، وصدور محاضراته في أوائل القرن

العشرين ، وليست الواقعية السويسرية التي تم البرهان فيها على أن الدال اللغوي يربط بين الصورة الذهنية والصورة السمعية لتلفظه .[1]

بل هي الواقعية المرآوية التي هي صورة الصورة نحو المشهدية وليست صورة المشهد . لقد صارت الواقعية مع فلسفة الليبرالية الجديدة ترتكز إلى الاختصار الشديد والتقليص إلى أقل كم من القول ، وأكثر اعتماداً على تحويل اللغة إلى رمز رياضي أهم بحيث يزول الفارق الدلالي و الانطولوجي بين العدد والكلمة .

وبالتالي تصبح اللغة والأصوات ومعاني الممارسات الإنسانية محالة إلى شبكة الموجات الالكترونية ، وهكذا يصبح الفكر والإنسان والأشياء في قبضة النقلة الإلكترونية والصاعقة الليزرية ، وتقضي المشهدية أو راهنية الموجود أمام سيطرة الاختزال ، والإشعاعات وأمواج الرقائق السيليكونية .

أين الكائن الإنساني ؟ إنه في هذه الغابة . وعليه أن يقبل العيش فيها ، إذا أراد أن يكون واقعياً ، وأراد أن يحقق مصلحته ، هذا جواب خطاب الليبرالية الجديدة له .

إذن جملة المعايير والمقاييس التي شكلت بصورة لا شعورية العقل الليبرالي الجديد الذي يقدم خصوصية في وعي الإنسان والعالم ، وهي خصوصية الإمعان في نسيان كينونة الإنسان ، من خلال العقل التحليلي التقني الذي يتوه في شعاب البحث العلمي، وينسى الكائن الإنساني.

كل ذلك يتم تحت مسميات اغتصبت لنفسها مشروعية جماعية من أذهان الناس فمن هذه المسميات : حقائق العلم ، وأولوية المصلحة ، وموضوعية الحقيقة ... وغيرها .

وبعبارة أخرى : يضع الإنسان بفعل براغماتية خطاب الليبرالية الجديدة و دغمائيته ، المزودين بميديولوجية عملاقة ، قادرة على التحكم بالروح والجسد .

**المستوى الفلسفي السياسي :**

قدم الخطاب الليبرالي الجديد نفسه كممثل للمشروع الثقافي الغربي ، الذي يؤسس سياسياً لإمكانية تميز الحضارة عما سواها من بقية شعوب العالم . وعليه يريد أن يقنع العالم

---

(1) حافيظ اسماعيلي علوي ، اللسانيات البينية ، مرجع سابق . ص **122 - 126** .

بقبوله كفاعل تاريخي قادر على تحقيق العبور من الحضارة الإنسانية الراهنة ، التي تحتوي فسيفساء الحضارات البشرية ، إلى المدنية الكونية . وهذا المشروع الجيوسياسي الجديد ، من شأنه أن يعيد صياغة العالم بما يحقق سيطرته عليه .

وقد اقتضت إستراتجية السيطرة السياسية هذه ، إنتاج أفتك الأسلحة التدميرية . لذلك تشيد قلاع الميديولوجيا الهائلة القوة والتأثير على العقل الإنساني لقولبة الذهنية والرأي العام العالمي . وفق المسلمات الرئيسية للفلسفة السياسية للمحافظين الجدد باعتبارهم معتنقي ومروجي خطاب الليبرالية الجديدة ، ولعل سلاح التدمير النووي المرعب يمثل القوة العسكرية المترافقة مع السلاح الإعلامي و الداعم له لضمان السيطرة الكونية .

وهناك فارق في الدلالة بين الكونية والمدنية ، وهو يتحدد داخل نظام المعرفة الذي يشترط مقاربتها . لأن مناقشة هذه الإشكالية سوف تكتمل في الفصل اللاحق ، فيمكن الاكتفاء بإشارة سريعة إلى الفارق الرئيس بينهما .

الكونية التي يتمرس خلفها خطاب الليبرالية الجديدة ، تعني العولمة الجارية تحت أشراف الغرب وبقيادته ، وعلى رأسه أمريكا .

أما المدنية ، فتعني استحقاق الاستجابة [ " **للإرادة العامة** " ] .[1] باعتبارها مصلحة للناس من حيث هم مواطنون ، الأمر الذي يفسح المجال للتأسيس الفكري للحضارة المدنية . وهذا هو الفارق بين الحضارة المدنية والكونية العالمية .

**وتعود على المستوى الاقتصادي :**

كما تنظر إليه الليبرالية الجديدة ، إلى ( اليد الخفية ) التي قال بها آدم سميث ، وتتراجع بذلك أمامها نظرية جون مانيردكينز ، والتي كانت تذهب إلى ضرورة تدخل مؤسسة الدولة من حفظ توزان النسق الاقتصادي في المجتمع . ويبرر منظرو الليبرالية الجديدة هذا الموقف بكون الدولة قد فشلت في لعب دور الموازن الموضوعي بين تقلبات قوى العرض الكلي ، وقوى الطلب الكلي .

---

(1) مطاع صفدي ، نقد الشر المحض ، الكتاب الأول ، نظرية الاستبداد في عتبة الألفية الثالثة ، الطبعة الأولى ،( مركز الإنماء القومي . بيروت / باريس . **2001** ) ، ص **278** .

وهكذا حسم الصراع بين التيار الكينـزي وتيار الليبرالية الجديدة ، بعد أن شن هذا الأخير هجوماً أيديولوجياً على تدخل الدولة في العملية الاقتصادية التي تنحل بعفويتها . وقد استند في ذلك على ( أفكار الحرية الفردية المطلقة ) . التي جاء بها الاقتصاد السياسي الكلاسيكي منذ زمن آدم سميث ، وريكاردو ، والتي ترتكز على آليات السوق وحرية المبادرات الفردية .

في هذا السياق التاريخي نجحت مرغريت تاتشر في بريطانيا عام 1979 إلى سدة ارتقاء الحكم ( رئاسة الوزراء ) ، وكذلك وصل رونالد ريغان في أوائل الثمانينات 1982 إلى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية .[1]

هكذا تم انتصار تيار الليبراليين الجدد أو المحافظين الجدد ، لتبدأ محاولة اجتياحه العالم .

(1) رمزي زكي : الليبرالية المتوحشة ، مرجع سابق ، ص 23 .

## المبحث الثالث : شخصيات ومفكرون ومؤسسات البحث

تقوم الليبرالية الجديدة على أطروحات المفكرين الذين أسسوا ونظروا لها ، وكذلك على دور مراكز البحوث والمعاهد التي تدرس قضاياها .

و ينقسم المفكرون والمحللون السياسيون إلى جيلين متميزين. [1] **الأول** وقد مثله كلا من نورمان بودهوريتز المحرر السابق لمجلة كومنتاري الصادرة عن اللجنة اليهودية الأمريكية ، إيرفينج كريستول مؤسس المصلحة العامة ( ذا بابليك إنتريست ) . الذي تأسس في فترة الستينيات من القرن العشرين وجاءت أفكاره كرد فعل للظروف الدولية وتحديات الداخلية التي تعرضت لها الولايات المتحدة الأمريكية خلال الفترة الممتدة من الحرب العالمية الأولى حتى نهاية حرب فيتنام في منتصف السبعينيات من القرن الماضي ، وقد أمنوا بدور الأفكار في تغيير الواقع ، وسعيهم الدائم للتأثير على مسار الجدل الأمريكي .

وتقوم أفكارهم على الأتي : إن الشر ظاهرة حقيقية واقعية ، وأن القوة العسكرية أداة أساسية لمواجهته ، ويرون وجوب بقاء القوة العسكرية كأساس رئيسي للسياسة الخارجية الأمريكية .

وقد رفضوا تراجع الولايات المتحدة الأمريكية عن دورها التاريخي كقائد للعالم الحر والحامية له ، والمنادية بالديمقراطية والحرية عبر العالم .

أما **الجيل الثاني** فقد ظهر في التسعينيات من القرن نفسه وجاءت أفكاره لتعبر عن الظروف الأمريكية والدولية في هذه الفترة ، فمع نهاية الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتي فشل هولاء المفكرين في العثور على عدو جديد .

تميز هذا الجيل بنزعة إيديولوجية وحركية وجماهيرية مع الانتصار في الحرب الباردة، وعودة أمريكا لموقعها الدولي ( كقطب العالم الأوحد ) لتحقيق أهدافها وتشكيل العالم وفق رؤيتها .

---

(1) ملخص عن كتاب ( أندروا باسفيتش: النزعة العسكرية الأمريكية . فبراير **2006** ف ) بقلم علاء بيومي: مدير الشئون العربية بكبر. الانترنت شبكة المعلومات الدولية .

وتقوم أفكارهم على الأتي : إن الولايات المتحدة الأمريكية مصدر استقرار النظام العالمي . وإن القوة العسكرية غير المسبوقة أداة رئيسية لحفاظ أمريكا على مكانتها فيجب أن لا ينظر إليها كخيار أخير ، فالحرب أداة لخدمة أهداف كبرى .

كان لهذين الجيلين دور هام في السياسة الأمريكية ، ويعتقد أن نجاحها فيما وصلت إليه نتاج نشاطهم الفكري ، وسيطرتهم على العديد من المعاهد والمراكز البحثية.

## شخصيات ومفكرون وباحثون ليبراليون جدد :

لقد تم محاولة حصر بعض أهم المفكرين والباحثين والشخصيات من الليبراليون الجدد ، وذلك استناداً إلى عدة مصادر منها : الكتب والمجلات ، والشبكة الإلكترونية ( الانترنت )، هذا بالإضافة إلى وسائل الإعلام التي نتابعها بشكل مباشر.

**ليوشتراوس** : من أهم منظري الليبرالية الجديدة . عرض أراءه في كتابه : ( الفلسفة السياسية لهوبز ) . وقد أول الهوبزية كتبرير عقلاني يشكل النظرية ( الواقعية ) الأنغلوأمريكية ، وبذلك شكل أيديولوجيتها أساساً للنظر والعمل ، وصاغ الأسس الإستراتيجية الشمولية للدولة الأقوى في العالم : ( أمريكا ) وهو الذي وضع نظرية ضرورة وجود الخطر الخارجي كشرط للاستقرار السياسي الأمريكي ، وليوشتراوس من أصل ألماني مهاجر إلى أمريكا خلال الحرب الباردة ، في محاولة للاشتراك في الصراع الفكري ضد الماركسية . وقد دُرس أجيالاً من الشباب الأمريكي طيلة ثلاثة أرباع القرن العشرين ، وكان له تأثير حاسم في نشوء فئة اليمين المتطرف المسيطر على استراتيجية البيت الأبيض خلال عهد بوش الابن .[1]

**رونالد ريغن** : من المؤسسين الأوائل لليبرالية الجديدة وهو ( عضو لجنة الخطر ) التي أُسست بأشراف دونالد رامسفيلد في عام 1976 ، والذي اعتمد على عدد كبير من أعضائها بعد فوزه بمنصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في بداية الثمانينيات من القرن العشرين . وقد كان محافظاً أكثر من كل الرؤساء ، وصاحب الشعارات الأكثر تطرفا . وهو الذي دعا للقضاء على ( إمبراطورية الشر ) أي الاتحاد السوفيتي . وكان متمسكاً بالقوة العسكرية التي تضمن انتصار مشاريعه .

**مارغريت تاتشر** ، : رئيسة وزراء بريطانيا 1979.

**رامسفيلد** ،: وزير الدفاع الأمريكي في إدارة بوش الابن أثناء غزو الولايات المتحدة الأمريكية للعراق. وهو من الصقور في الإدارة الأمريكية الذين يتمسكون بالمبادئ الأساسية لليبرالية الجديدة . وفي هذا الإطار شن حربه على العراق وأكد في خطبه ومؤتمراته الصحفية الكذبة

---

(1) مجلة الفكر العربي المعاصر ، (مركز الإنماء القومي . بيروت / باريس . العدد 127/126 . صيف/ خريف . 2003 ف ) ، مرجع سابق ، ص 134 – ص 136 .

التي اخترعها هو والمحافظون الجدد في أمريكا و العالم ، بأنهم يدافعون عن الديمقراطية ضد الاستبداد ، وضد امتلاك أسلحة التدمير الشامل.

**جورج بوش الابن** : زعيم الليبراليين الجدد سياسياً ، ورئيس الولايات المتحدة الأمريكية، الذي خلط الحلم بالدين والسياسة ، لكي يمهد للمسيحية المتصهينة . خاض الحرب على العراق تحت أكاذيب ومزاعم ، لكنها كلها تعكس حقيقة خطاب الليبرالية والتفوق والسيطرة، اللذين ينطلق منهما .

**ريتشارد بيرل** ، : زميل وولفوفتير ، وهما صهيونيان متطرفان ، وقد كان عضواً مثل زميله في ( لجنة الخطر ) التي أساسها رامسفيلد .

**ديك تشيني** : وزير دفاع سابقاً ، نائب الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن ، وهو من المتشددين في الإدارة الأمريكية . صاحب شركات نفط عملاقة .

**صموئيل هنتنغتون** : مفكر وكاتب أمريكي ، من أشهر منظري الليبرالية الجديدة وضع كتاب صدام الحضارات ، الذي يقول فيه ؛ لا يوجد بين الحضارات إلا علاقات القوة التي يؤكدها عبر أيديولوجيا صدام الحضارات ، ما ينتج عنه تكريس العرقية والقومية والطائفية الدينية . وكل هذا يؤكد عبارة مبدأ الغاب الإنساني الذي تنادي به الليبرالية الجديدة .

**فردريك هاييك** ، : يرى أن الدولة لابد أن تتدخل في العملية الاقتصادية بل والمجتمعية برمتها، ولذلك هناك ضرورة لإلغائها في محصلة التطور الليبرالي .

**ميلتون فريدمان** ، : تلميذ هاييك . وهو صاحب مقولة ( المجتمع العالمي قرية) .

## معاهد ومؤسسات البحث :

تعد مؤسسات الفكر والرأي والسياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية ؛ مجموعة مهمة تخدم المصالح الغربية ، والخطاب الليبرالي في صورته الجديدة ، وتحصى هذه المؤسسات بحوالي 1500 مؤسسة ، من هذه المؤسسات :

– **معهد الأمن الدولي الأمريكي** [1] : الذي يعد من أحد ابرز المراكز البحثية . تأسس عام 1972 إبان الحرب الباردة ، وهو يعنى بتوفير تحليلات سياسية وافيه للشئون الدولية ، والتي تختص بالقضايا الأمنية ، وقد يعد متخطٍ للأسلوب الأمني التقليدي ، وذلك عندما لم يعتد إلا برأيه منفرداً في قرار الحرب على العراق .

ينقسم هذا المعهد إلى عدة مراكز : مركز معلومات الدفاع ، ومركز للإنتاج الإعلامي، الإعلام الدولي ، والبرامج الدولية . تعمل معاً من أجل توفير تغطية شاملة للمعلومات ، والتطورات ، والتحليلات السياسية لكافة النواحي الاقتصادية والبيئية والسياسية والعسكرية للأمن الدولي .

يرأس هذا المعهد بروس بلير ، الذي عمل بالسلاح الجوي الأمريكي ، وشارك في معهد بروكنيغز في برنامج الدراسات السياسية الخارجية ؛ ألف العديد من الكتب والمقالات التي نشرت في أهم الصحف الأمريكية أمثال نيويورك تايمز ، وواشنطن بوست، والسينفيك أمريكان .

هدف هذا المركز تعزيز الأمن ، وعدم الاعتماد على الأعمال العسكري أحادية الجانب لحل الصراعات ، والحد من استخدام الأسلحة النووية .

من أشهر الخبراء العاملين به انتوني زيني الذي كان رئيساً للقيادة العسكرية المركزية في الفترة من 1997- 2000 . ومسؤلاً عن القوات الأمريكية في الشرق الأوسط ووسط أسيا ، والآن من ابرز المشاركين في مناقشات حرب العراق والسلام والأمن في الشرق الأوسط .

---

(1) شبكة البناء المعلوماتية شبكة المعلومات الدولية ( الانترنت ) WWW.ANNABAA.ORG ، 2006/12/29 م .

– **معهد واشنطن لسياسات الشرق الأوسط** [1] : يؤكد هذا على دعم الإصلاح في المنطقة ( الشرق الأوسط ) ويعد مركزاً هاماً في توجهات الإدارة الأمريكية في فترة الرئيس جورج بوش الابن ، يتبنى هذا المركز الشعارات التالية ( الأمن – الإصلاح – السلام ) وتعد هذه الأعمدة الثلاثة للإستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط .

يرأس هذا المركز دنيس روس المبعوث الأمريكي السابق إلى الشرق الأوسط ، والمتحدث الرئيسي عن السياسات الإسرائيلية في الدوائر الأمريكية العليا .

في أحد جولات هذا المعهد قام سبعة وثلاثون عضواً من بينهم فرنسيس فوكوياما ، وروبرت كيجان ، ومارتن انديك . بجولة طافت الشرق الأوسط عام 2005 .أكدت على أن الديمقراطية والتحرر السياسي ، و الإصلاح الاقتصادي ؛ لابد أن تكون جميعها مكونات محورية في العلاقات الثنائية التي تربط الولايات المتحدة الأمريكية بالدول الرئيسية في منطقة الشرق الأوسط .

وخاصة بعدما أصبحت مصالحها مهدده من قبل ( الأصولية الإسلامية ) ، والإرهاب، وأكدت على أن تكون منطقة الشرق الأوسط مشروعاً محورياً للأمن القومي الأمريكي .

وقد عد الترويج لخطاب الرئيس الأمريكي عن الحريات ، والديمقراطية تحولاً إيجابياً يخدم مصالح السياسة الأمريكية ، التي تحاول إقناع منطقة الشرق الأوسط بأنها ملزمة بمحاربة الإرهاب ، والقضاء على أسلحة الدمار الشامل ، ووضع الحلول السلمية للصراع العربي الإسرائيلي ، وتطبيق الإصلاحات السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

– **وهذا المعهد عدة مبادئ منها :**

ـــ الاحتفاظ بهدف كبير وراء تحقيق الأهداف المتنوعة .

– اقتناص الفرصة والضغط من أجل التغيير في أي جزء من المنطقة .

– تقديم الدعم المادي للجماعات والحركات المروجة للحرية والديمقراطية في المجتمعات المغلقة .

– العمل على تطبيق عملية هلسنكي التي أسهمت في تطور الديمقراطية بأوربا في عقد السبعينيات.على أن تشمل هذه العملية حوض البحر المتوسط وشمال أفريقيا والشرق الأوسط.

---

(1) مقال عزت إبراهيم : مجلة الأهرام . مصر . 2005/3/23 ف .

وقد شملت مفوضات هلسنكي ست دول وهي: مصر . المغرب . الجزائر . تونس . سوريا . إسرائيل ؛ وذلك للحصول على عضوية كاملة بالتنسيق مابين الاتحاد الأوربي والولايات المتحدة ودول قمة الثماني الكبرى .

كما يهدف هذا المعهد على دعوة الإدارة الأمريكية الأخذ بزمام المبادرة لترويج قيم الأمركة كما يزعم ، وفي مقدمته قيم ( الحرية . الليبرالية . المساواة) . وفي ذات الوقت نجدها تنتهك حقوق الإنسان كيفما تريد .

ولذا نراها تقوم بدعاية ايجابية للرأي العام من خلال تقديم المساعدات السخية لضحايا كارثة تسونامي في جنوب شرق أسيا والتدخل بوقف الإبادة الجماعية في إقليم دارفور بالسودان، ومحاولة وضع حلول للقضية الفلسطينية من خلال خطة فك الارتباط، والتي توعد بأنه ستحقق وجود حكومة فلسطينية شرعية والتي به سيتم استكمال مشروع خارطة الطريق، ومنها تحقيق السيادة الفلسطينية .

كل هذه الوعود ، وإظهار قيم المساندة ، والتعاون في السياسة الأمريكية ؛ من أجل تحسين صورة الولايات المتحدة الأمريكية ، وكسب الرأي العام لصالحها.

– **معهد أمريكان إنتربرايز لأبحاث السياسة الخارجية** [1] : الذي تأسس سنة 1943 برئاسة كريستوفر سي دينوت. ينادي بتعزيز أسس الحرية متمثلة في حكومة محددة السلطات ، ومؤسسات أعمال خاصة ثقافية ، وسياسية ، وحيوية ، وخارجية ، والدفاع القومي ؛ يقوم هذا المعهد بتقديم الأبحاث السياسية والنقاش المفتوح ، وإصدار المطبوعات .

يحكم هذا المعهد مجلس أمناء من أربعة وعشرين عضو مؤلف من رجال أعمال ، ومديرين تنفيذيين ماليين ، ويقوم بمراجعة برنامج الأبحاث لديه مجلس من المستشارين الأكاديميين الذي يضم مجموعة باحثين من خارج المعهد .

– **معهد كاتو** : تأسس سنة 1977 .كمؤسسة أبحاث غير ربحية في السياسة العامة، وإفساح المجال أمام دراسته المبادئ التقليدية للسياسة الأمريكية ، وتتركز على الحكومة المحددة السلطات والحرية الفردية ، والأسواق الحرة والسلام ، وتهدف إلى تحقيق اشتراك عامة أفراد الشعب بشكل أكبر في المشاركة السياسية ؛ يشرف على هذه الموسسة إدوارد ايتش كرين .

---

(1) جريدة المدى:( الانترنت) WWW.AL-MADADAILY NEWSPAPER.2006/10/5م .

– **مركز دراسات منع انتشار الأسلحة** : الذي تأسس سنة 1989 . بإدارة الدكتور وليام بوتر . يدعو لمكافحة أسلحة الدمار الشامل ، وهي أكبر منظمة في الولايات المتحدة مكرسة حصرياً للأبحاث حول قضايا منع انتشار أسلحة الدمار الشامل.

– **معهد هدسون** : تأسس سنة 1961 . يقوم بتقديم أبحاث للمشاركة بها في النقاش حول افكار السياسة العامة ، ويقدم المشورة والإرشاد للسياسة الأمريكية . ومن مجلس أمنائه بيرل ، وتدير ميراف قسم الشرق الأوسط فيه .

وما يظهر في الواجهة عن هذه المراكز والمعاهد إنها قائمة على الدعم الذي تقدمه للمؤسسات ، و الشركات ،.وللأفراد ، وأنها بعيدة عن أي تدخل حكومي .

والحقيقة أن كل من يعمل بتلك المؤسسات أو الشركات هم ذاتهم أصحاب رؤوس الأموال المهيمنة على العالم ، والتي تقوم بالدعم لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية.

## المبحث الرابع : ديمقراطية الليبرالية الجديدة – بين الوعود والأوهام.

الديمقراطية حاجة ضرورية من حاجات الجماعات البشرية والتي من خلالها تؤمن التطور الإنساني و الحضاري للمجتمع ، والحرية الحقيقية للفرد .

لقد انتقلت العديد من الدول بفترة السبعينات والثمانينات من النظم التسلطية إلى النظم الديمقراطية ، يعود ذلك للتطور الاقتصادي الذي ساهم بشكل واضح في تبني النظام الديمقراطي .

أخذت مسألة الديمقراطية والحرية والحقوق تشغل حيزاً من الوجود السياسي ، وخاصةً بعد سقوط الأنظمة المسماة بالاشتراكية ؛ فمع تطور الأحداث وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي . اعتقدت الولايات المتحدة " **بأن الثورة الديمقراطية الجارية الآن هي .. مفاهيم الغرب حول حقوق الإنسان** ". [1]

استُخدام هذا المصطلح ( الديمقراطية ) للحصول على الشرعية السياسية لأي حزب أو طبقة أو أي نظام يحاول أن يحقق غاياته .

جاء هذا الاهتمام بالديمقراطية مترافقاً مع ظهور الخطاب الليبرالي ، وذلك لاستخدامه كوسيلة دفاع ضد خصومه آن ذاك . فالديمقراطية وحقوق الإنسان لم تكن تعني أكثر من سلاح ضد السوفيت وباقية الدول التي رفضت الخضوع للهيمنة الأمريكية.

ولقد اختلف معنى الديمقراطية اليوم عن ما كان عليه في العصور الماضية . ديمقراطية اليوم تعني صندوق الاقتراع ، والاقتصاد الحر . هذا المعنى قدمته الرأسمالية بعد سيطرتها على العالم .

من الناحية التاريخية قد يرجع ظهور الديمقراطية إلى حوالي 2500 عام ؛ ومع ظهور الجمهورية اليونانية القديمة التي عدت شكل للدولة يناقض الأرستقراطية أو الاوليجارشية ( سيطرة القلة من الأثرياء والنبلاء ) .

---

(1) صموئيل هنتنغتون : صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي . ترجمة مالك عبد أبوشهيوة ، محمود محمد خلف .الطبعة الاولى (منشورات الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان . مصراتة .الجماهيرية . 1999 ) ص 348 .

يعد المرجع الأساسي لخطاب الديمقراطية الذي يُنادى بتطبيقها اليوم على الساحة العالمية ، إلى خطاب الديمقراطية الليبرالية الجديدة ، والتي تعد مقاربة لفكر الديمقراطية الليبرالية أو مذهب الحريين(*) . هذا المذهب الذي سمي بالفوضوي كونه قائم على " **لا حكومة " أي حالة شعب يحكم نفسه دون سلطة مؤسسة ودون حكومة** " . (1)

حيث كان السائد في ذاك الوقت اعتماد الحكومة كمؤسسة ضرورية لقيام حياة اجتماعية منظمة . ويهدف هذا المذهب إلى تحطيم أي استغلال من الإنسان للإنسان .

فقد نشأ هذا المذهب على أصول الإيديولوجية الليبرالية التي سادت بالقرن التاسع عشر ، والتي ترى أن الإنسان يتملكه العقل منذ نشأته له كل الحقوق التي تضمن حريته قبل أي تنظيم اجتماعي أو سياسي .

وهذا ما جاءت به العديد من المذاهب التي تنادي بالحرية الفردية مقابل الحرية الجماعية على يد كل من جون لوك ، وفولتير، جان جاك روسو ،.. وغيرهم .

عبر جان جاك روسو عام 1755 في كتابة (بحث في أصل اللامساواة بين الناس) عن الرفض الصريح للنظام السائد؛ والذي يقوم على لا مساواة بين أفراد المجتمع الفرنسي . ويوضح فيه " **العلاقة بين سعادة " الحفنة " وبؤس العامة ... يذهب إلى أن القوة والثروة والعظمة لا تطلب لذاتها . وإنما لحرمان الآخرين منها** " . (2)

جاء ماركس وقسم تاريخ العالم إلى مرحلتين :( اللا حرية ، الحرية ) : مرحلة اللا حرية والتي كانت فيها البشرية تمثل جزءاً من التاريخ الطبيعي وتشمل العصر الإقطاعي حيث عدم المساواة الصفة السائدة ؛ والعلاقات العدائية بين الطبقات وكل واحده تحيا على حساب الأخرى .

---

(*) شاع تسميته بمذهب الحريين ، استخلاصاً من جوهره الذي يتحصل أساساً في (الحرية) ، مجموعة باحثين : تطور الفكر السياسي، مراجعة عبدالسلام المؤذني، حبيب داغة ، الطبعة الثانية ، (المركز العالمي لدراسات الكتاب الأخضر . طرابلس . 1990) ، ص 390 .

(1) المرجع السابق : ص 398 .

(2) رجب بودبوس: نقد العقل الاقتصادي"الاجتماعية- الاشتراكية" ، مرجع سابق ، ص 146.

ومرحلة أخرى يرى فيه " أن مستقبل المجتمع هو عالم الحرية الفعلية الواقعية، حيث لا وجود للتقسيم المصطنع للناس إلى " أنواع " . والدولة هنا هي نتاج للانقسام الذاتي للشعب، وهي ليست تمثيلاً للشعب من قبل شخص غريب عنه ، بل هي " التمثيل الذاتي للشعب " أي الديمقراطية " . [1]

لقد كانت الليبرالية في بداية ظهورها على اختلاف مع مبادئ الديمقراطية ، فعند تأكيد الفكر الليبرالي على الحرية لم يقصد بذلك منحه لكافة الطبقات السائدة ، وإنما منحها للذين ( يملكون الأملاك ) . فيما بعد ساد التوافق بين الليبرالية والديمقراطية .

فقد ظل التصويت قاصراً على الطبقة العليا من المجتمع ، وعندما تحققت الإصلاحات الانتخابية بقي العمال محرومين من التصويت ؛ في حين لم تنل المرأة هذا الحق بأمريكا وانجلترا إلا عامي 1920 – 1928 .

إن تطور الديمقراطية مع ظهور مفهوم ( الدولة ) ، و انقسام المجتمعات إلى طبقات ، جعل من الضروري تحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية بينها .

والسؤال الذي ينطلق منه هذا المبحث هو : هل تعد دولة ما ديمقراطية من خلال إرادة شعبها تقرير مصيره ووجوده في هذا العالم ؟ أو عن طريق الهيمنة الغربية وطرح خطابها خطاب الديمقراطية الليبرالية ؟

ففي حين تعد الديمقراطية إعادة إحياء للجمهورية ، فإنها تتطلب أفراداً قادرين على تكوين الأحكام والتفكير الواضح والواقعي . وعندما قامت الثورة الفرنسية ضد الحكومة الرأسمالية الفاسدة ، أوصلت الثورة الفرنسية البرجوازية إلى السلطة عام 1789 ، وهي الراغبة في هدم النظام القديم ، وقيدت الملكية الدستورية ، ورفعت شعار الحرية ، المساواة ، الإخاء . وصلت البرجوازية للسلطة بإرادة الشعب الفرنسي ، وأقامت دكتاتوريتها / ديمقراطيتها بإرادة الشعب ؛ و باعتبارها جزءاً من الشعب فإن كل ما تقوم به على كافة الأصعدة الاجتماعي والاقتصادي والسياسي كان بإرادة الشعب الفرنسي .

---

(1) جماعة من العلماء السوفييت : الفلسفة الماركسية في القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ص 69.

تولي البرجوازية السلطة في تلك الفترة يرجع لاعتبارها طبقة تنويرية نشطة ، أخذت على عاتقها النضال من أجل تحقيق نظام جديد ضد مؤسسات فرنسا والقوى الرجعية بأوربا. فإرادة أي شعب لتحقيق حريته يجب أن تنبع من احتياجاته هو ، وليس عن طريق قوة عدوانية تفرض خطاباً يخدم مصالحها .

أسهمت سياسات الولايات المتحدة والقوى الأوربية في تبني هذا النظام، وتحققت هذه الديمقراطية الغربية في آسيا ، والبرتغال ، والفلبين ، وكوريا الجنوبية ، وأوربا الشرقية، وتعتقد الولايات المتحدة أن الديمقراطية تكون أكثر تحققاً واستقراراً في الدول المسيحية عن غيرها من الدول الإسلامية أو دول أمريكا اللاتينية ودول أفريقيا ، فهي ترى أن قيام ديمقراطية في غير الدول المسيحية أمر مشكوك به .

لذا نراها تعمل على تحقيق هذا الخطاب الديمقراطي الغربي بالعالم ، وتعزيزه كهدف أولي للغرب " **صادقت على هذا إدارة الرئيس الأمريكي بوش ووزير خارجية جيمس بيكر. حيث أعلن في أبريل 1990 بأن السياسة الجديدة هي تعزيز الديمقراطية وتقويتها. وفي عام 1992 الرئيس الأمريكي كلينتون كرر قائلاً بتعزيز الديمقراطية ، والديمقراطية ستكون القضية الأساسية للسياسة الخارجية الأمريكية . على مستوى الحركة السياسية فيما بعد** ". [1]

كما لعبت الدول الأوربية دوراً هاماً في محاولة انتشار الخطاب الديمقراطي الليبرالي، و ذلك من خلال القيام بمنح القروض للمؤسسات المالية التي يسيطر عليها الغرب. مع كل هذه الجهود الأمريكية والأوربية فإنه باءت عدة محاولات بالفشل في العديد من الدول التي لم تستطع تحقيق أهدافها به ، ولقت منه مقاومة للخطاب الديمقراطي الليبرالي ، سواء كانت دول أسلامية أم غير أسلامية .

لقد بدأ العالم اليوم يفكر جدياً في إشكالية الديمقراطية وأزمتها ، وذلك بعد ظهور التفعيل الليبرالي داخله . ومطالبتها بتحقيق حقوق الإنسان ، والإيمان بالتعددية على كافة المستويات من الحق في المشاركة السياسية ، وحق الرأي ، وحق تعدد الأحزاب والتنظيمات وحق هذه الأخيرة في التعبير عن نفسها .

---

(1) صموئيل هنتنغتون ، صدام الحضارات ، مرجع سابق ، ص 348 .

كما تشكل حرية الإنسان السياسية أحد أهم المشاكل التي تواجه الفكر السياسي من بداية الوعي به ، ولذا ظهرت العديد من النظريات والأفكار التي تناولها العديد من مفكري الفكر البشري ، ومن هذه الأفكار ما تقدمت به السياسة الرأسمالية التي ترى الحرية السياسية تؤمن بصورة جيد للبشرية من خلال خطاب الديمقراطية الليبرالية .

أخذ أصحاب هذه الأفكار تعبئة الجماهير ، رفعوا شعارات الحرية والعدالة والمساواة ، وقاموا بتخطيط لسياسة الحروب لتحقيق أهدافها ؛ هكذا دمجت الديمقراطية الأمم بعضها بعضاً بواسطة إيديولوجية سياسية .

انتقدت الديمقراطية الليبرالية من قبل العديد . خاصة في المفارقة فيما بين جانبه النظري والعملي .

**" وتبدو هذه الهوة أوضح ما تكون بين الحريات التي تدافع عنها الديمقراطية الليبرالية وعدم قدرة النظام الرأسمالي على تحقيق المساواة الاجتماعية "** . [1]

وحتى التعددية التي تنادي بها الديمقراطية الليبرالية تخفي وراءها مصالح وأهدافاً واحدة. أما ما تنادي به بخصوص ( حرية الاختيار ) فما هو إلا وهم واضح وجلي ؛ فهي تستخدم وسائل الإعلام بشتى مجالاتها ، وذلك لتأثير على خيارات العامة .

وبالتالي ينتج عن ( حرية الاختيار ) بالمفهوم الليبرالية ( تقييد ) ؛ لدرجة أدى هذا إلى العزوف عن المشاركة السياسية في تلك الدول المنطلقة على أساس هذا الخطاب ، فقد أنفى هذا الخطاب الليبرالي القيم الأساسية للديمقراطية بداية من المشاركة السياسية؛ ومن الانتقادات التي وجهت للديمقراطية الليبرالية ( عدم احترامها لمبدأ الأغلبية ) إلا في حدود مصلحتها أي **" ضمن تداور السلطة وتداولها ضمن النخب المتشابهة فكرياً واجتماعياً واقتصادياً "** . [2]

---

(1) مجموعة باحثين : ندوة الفكر السياسي المعاصر " الديموقراطية : المفهوم والممارسة" ومنشورات المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر . الجماهيرية . 1996 ) ، ص 37 .

(2) المرجع السابق : ص 38 .

فقد دعمت الولايات المتحدة الأمريكية الراعية لخطاب الديمقراطية الليبرالية العديد من الانقلابات على منتخبين تم وصولهم للسلطة عن طريق " آلية الديمقراطية الليبرالية " . [1]

تقوم الديمقراطية على المساواة بين أفراد المجتمع دون إي فوارق مابين متعلم وجاهل ، ابيض واسود ، غني وفقير ، فأفراد المجتمع هم من تقوم بهم الديمقراطية الغربية ( ديمقراطية الترشيح ) وبهم يصل المنتخبون إلى كراسي الانتخاب . يحمل هذا التصريح جانبين أحداهما إيجابي يتمثل في حق الأفراد على اختلافهم في الانتخاب ، والآخر سلبي وهو ( عدم المشاركة الفعلية ) للأفراد سياسياً في تنظيم حياتهم.

قد يرى البعض في الديمقراطية الليبرالية الحل الحقيقي لتحقيق الحرية ، إلا أن ما يحدث على الساحة العالمية بالمجتمعات الغربية ، أو المجتمعات التي تبنت خطاب الديمقراطية الليبرالية غير ذلك ؛ فما صراعات الانتخاب ، وتملق المرشحين ، والمبالغ الضخمة المصروفة على الحملات الدعائية للمرشحين ، والتي قد يكون الأجدر صرفها على مجاعات العالم إلا حقيقة واقعية لهذا الخطاب .

هذه الديمقراطية الليبرالية أقرت لأفرادها حقوق المساواة ، كحق التعليم ، وحق الملكية، وحق حرية الرأي والتعبير ، وحق الاعتراض ، وحق العدالة والمساواة أمام القانون . بالإضافة إلى تقديس رأي أفراد المجتمع . في حين واقع هذه الديمقراطية اللامساواة في الثروة بسبب ( سياسة عدم التدخل في حجم ممتلكات الأفراد ) . لحق هذا التفاوت و اللامساواة كافة جوانب الحياة سياسياً واجتماعياً . فالنظام الاقتصادي الذي يعد القاعدة الأساسية للديمقراطية الليبرالية الجديدة يؤكد واقع التفاوت بين الأفراد ، ففي ذات الوقت الذي تؤكد فيه الديمقراطية مبدأ المساواة فهي تتناقض مع اللا مساواة الرأسمالية الجديدة .

وهذا إن أكد على شئ فيؤكد على عدم مصداقية بنية هذا الخطاب ، ووهم تحقيق الحرية والمساواة والعدالة التي تنادي بها ؛ بل وتتولى مسؤولية تحقيقها كحل نهائي لمشكلة التنظيمات السياسية بالعالم .

---

(1) المرجع السابق : ندوة الفكر السياسي المعاصر " الديموقراطية : المفهوم والممارسة"، ص 38 .

ولذا [ " تكون الحرية وهماً إذا كان بإمكان طبقة من الناس تجويع طبقة أخرى بدون إي عقوبة ، أن المساواة وهم مادام الأثرياء بواسطة الاحتكار يمارسون حق الحياة والموت على المواطنين " ] . [1]

إن ادعاءات الليبرالية الجديدة القائمة على عدم التدخل في النشاط الاقتصادي ، وعلى مبدأ الحرية . في الحقيقة ادعاءات واهية فسياستها توجه التدخل لمصالح فئات بعينها ، كذلك مبدأ الحرية يخدم مصالح الفئات ذاتها أكثر من باقي أفراد المجتمع .

الديمقراطية كنظام " نوجز ، فنقول ، أخذين التشبيه من ماركس ، إن ثمة نوعين من النظام . يمكن تسمية أحدهما بـــ " النظام اللازم اجتماعياً "، والثاني بـــ " فائض النظام " " . [2]

فقد قاومت العديد من الدول هذا الخطاب الديمقراطي الغربي ورأت فيه [ " إمبريالية حقوق الإنسان " ] . [3]

هناك اختلاف بين الغرب والحضارات الأخرى حول قضية حقوق الإنسان . فقد اجتمعت العديد من الدول قبل مؤتمر فيينا من أجل هذا الاختلاف المتمثل في العديد من القضايا ، ورأت بأن حقوق الإنسان يجب أن تقوم على خصوصية القوميات والأديان والموروث الثقافي الإقليمي لكل دولة على حده؛ وذلك لتعدد الأديان والثقافات ، بالإضافة إلى حقوق الإنسان وفي ذات الوقت يجب مراعاة سيادة حقوق الدول .

فقدرة الغرب على تحقيق أهدافها ( حقوق الإنسان ) في مؤتمر ( فيينا ) يونيو 1993 كانت محدودة ، وذلك لاختلاف الواقع الاقتصادي ، والاجتماعي ، والسياسي ، والثقافي ، والفكري ، بين الدول .

---

(1) رجب بودبوس : مواقف 3 ، الطبعة الأولى ، (دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان . مصراتة . الجماهيرية . 1994 )، ص 129 .

(2) الفن توفلر : تحول السلطة بين العنف والثروة والمعرفة ، تعريب فتحي بن شتوان ، نبيل عثمان ، الطبعة الأولى ( الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان . الجماهيرية . 1992 ) ، ص 601 .

(3) صموئيل هنتنغتون ، صدام الحضارات ، مرجع سابق ، ص 351 .

فجاء " **إعلان فينا يحتوى على تعزيز واضح لحقوق حرية التعبير والصحافة والتجمع والدين ، ولهذا وللعديد من الاعتبارات فهو أضعف من إعلان حقوق الإنسان العالمي للأمم المتحدة لسنة 1948 هذا التعبير يعكس انهيار قوة الغرب** " . [1]

هذه الهزيمة التي لحقت بالغرب في مؤتمر فيينا لحقوق الإنسان وأماكن أخرى دليل على ضعف الغرب ، ودليل على التناقض الظاهري والباطني للخطاب الديمقراطي، فقد قامت الدول الغربية ( الولايات المتحدة الأمريكية ) على خدمة مصالحها بالتعاون مع تجاوزات لبعض العملاء و التي تتعارض مع حقوق الإنسان؛ وهذا ما يؤكده القول " **لماذا لا تعمل مع صديق ديكتاتور اقل وحشية إذا كان البديل ديكتاتورا غير صديق ووحشياً** ". [2]

يؤكد هذا أن الخطاب الديمقراطي الغربي قائم في الأساس على خدمة المصالح الرأسمالية الغربية في باقي دول العالم .

هنتنغتون يقدم الديمقراطية في كتابه صدام الحضارات على أنها " **شكلا من أشكال الحتمية بين التطور والديمقراطية الغربية و التي تتضمن اتجاه كل بلدان العالم نحو المثل الأعلى الديمقراطي في صورته الغربية** " . [3]

لقد أنحاز هنتنغتون للديمقراطية الغربية بشكل واضح ، و أكد على ضرورة محاصرة نشؤ أي ديمقراطية غير غربية " **أو عدم السماح بوجود ديمقراطية في البلدان غير الغربية** ".[4]

وذلك لأنه يرى في ممارسة الديمقراطية الغربية في الدول غير الغربية ؛ قد يؤدى لوصول الأهالي والحكومات السياسية المعادية للغرب للسلطة ، وستكون بالتالي ضد مصالحها وأهدافها . وقد خص الدول الإسلامية بالذات بعدم السماح لها ممارسة الديمقراطية الغربية ورأى أن الدول المسيحية ستكون الديمقراطية فيها أكثر نجحاً .

---

(1) المرجع السابق : صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي ، ص 353.

(2) المرجع السابق : ص 354 .

(3) المرجع السابق : صدام الحضارات ، ص 55 .

(4) المرجع السابق : ص 53 .

و بالتالي " فان خطاب صدام الحضارات ، خطاب منحاز ثقافياً وقيمياً للحضارة الغربية ومصالحها المختلفة : فالمفهوم الذي يستخدمه هنتنغتون هو المفهوم الغربي للديمقراطية ، والمعروف في البلدان الرأسمالية الغربية والتي تسمى عادة بالديمقراطية النيابية ". [1]

وفي الحقيقة " أن تطبيق الديمقراطية ليس مسألة قرار اداري من طرف السلطة ".[2] وباستثناء إدانة العراق في عام 1990 قدمت السويد قراراً يدين النظام العسكري في ماينامار، ولكن معارضة دول آسيوية ودول أخرى أعدم القرار. و قرارت آخري تدين تجاوز إيران لحقوق الإنسان لم يحصل على موافقة كاملة ؛ واستطاعت الصين هزيمة قرارات مؤيدة في الغرب تعبر عن قلقها حول مخالفاتها لحقوق الإنسان . وفي عام 1994 وضعت الباكستان بجدول أعمال لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان قراراً يدين المخالفات الهندية لحقوق الإنسان. إلا أن البلدان الصديقة للهند وقفت ضد هذا القرار ، ساعد ذلك تجنب العديد من الدول الأخرى الإدانة مثل تركيا وكولومبيا ... الخ . [3]

لذا تقدم الخطاب الليبرالي الجديد بمبدأ " إقرار حياة ديمقراطية في العديد من دول العالم ،...والتي " أقنعتنا " بأنه موجود بحكم وجود " الانتخابات " وانتشار الظاهرة الحزبية... ونحو " الدستورانية " ونحن في خضم هذه الضبابية التي تزين غشاوتها أجهزة الأعلام والدعاية حجبنا نظرنا حول القضية الحقيقية التي هي قضية بنى عميقة وتطور تاريخي ، وشروط موضوعية فعالة لها تأثيرها في أسس الواقع ، وحول أن الديمقراطية الحقيقية ببروز جماهير الحقيقية ، وليس بظهور جماهير قررت الصحافة أو أطراف الحياة السياسية لمصلحة ما أن تنعتها بـــ"الجماهير" وهي في حقيقتها غائبة عن ممارستها للسلطة وحياتها الديمقراطية ... " . [4]

ولعل فكر الكتاب الأخضر النظرية العالمية الثالثة من أوجد الجماهير الحقيقية .

---

(1) المرجع السابق : صدام الحضارات ، ص 55.

(2) مجموعة باحثين : ندوة الفكر السياسي المعاصر " الديموقراطية : المفهوم والممارسة" ، مرجع سابق ، ص 38 .

(3) صموئيل هنتنغتون : صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي ، مرجع السابق ، ص 351 .

(4) المرجع السابق : صدام الحضارات ، ص 38.

## المبحث الخامس : ظواهر مستجدة / آليات سيطرة .

بنى خطاب الليبرالية الجديدة على الثنائيات كمسلمة مركزية قائمة في الخطاب الغربي ، منذ أفلاطون إلى الآن . فمنذ الكهف الذي أقامه تم تأسيس فكرة الفصل بين الأشياء الشاحبة أو الوهمية ، والأصول الثابتة الحقيقية . وبذلك أصيب وجود الإنسان في صميمه ، فانقسم إلى عالمين ؛ أحدهما يعيش فيه وينكره باستمرار ، والآخر يتصوره تصوراً ويقيمه خارج عالمه الأول ، يصبو إليه دون أن يبلغه .

وهكذا ظهرت ثنائية الجوهر والعرض ، والنسبي والمطلق ، والذاتي والموضوعي ، والصحيح والخاطئ ... إلخ ، التي حكمت تاريخ التفلسف الإنساني عبر مفاصل الحضارة الإنسانية ما بين عصور الأديان ، إلى عصور الأيديولوجيات الكبرى المعروفة ( الليبرالية الرأسمالية ، الشيوعية ، النازية ، الفاشية ...إلخ ) .

ولم يتعرض لخلفية نظام المعرفة التي تحكم عملية تكون المعرفة إلا في مرحلة الحداثة، عندما صار من الممكن التفكير فيها من الناحية الإبستمولوجية ( مبادئ المعرفة ، فروضها ، نتائجها ..) والأنطولوجية (وجودها ، تاريخية تشكلها ، علاقتها بكينونة الإنسان).

على ذلك ، صار من الممكن التعامل مع المعارف المباشرة ، دون الحاجة إلى نسبها لمبادئ إطلاقية . وبالتالي ، فإن هذا التحول أجبر هذه المبادئ على مبارحة مفارقتها الكلية ، وعلوها المنطقي ، والنزول إلى حلبة الظواهر نفسها . فالمتعالي الميتافيزيقي والمنطقي والأخلاقي كظاهرة لا قيمة له ، إن لم يجر شده إلى عالم الحياة ، والتعامل معه كظواهر .

من هنا ، كان لخطاب الليبرالية الجديدة أن يستثمر الخزين الثقافي الإنساني ، باعتباره إرثاً يستخدم في لعبة تشكيل الحقائق الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ...إلخ ، فكان له أن يعيد تشكيل هذه الثنائيات وفق الاستراتيجية المركزية لخطابها . فالانطولوجيا المشطورة إلى ميتافيزيقا متعالية وكينونة مشردة ممنوعة من وعي ذاتها ، كما عند أحد أبرع وأهم مؤسسيها : أفلاطون ؛ حورت كموروث ثقافي ، داخل خطاب الليبرالية الجديدة عبر التوظيفات الحياتية للأديان ، والاستثمارات السياسية للفلسفة ؛ وهكذا ظهرت الأحزاب الدينية ( المعاصرة ) والأيديولوجيات ، والفرقاء والعدوات في مجتمع الإنسانية .

إن ابتداع **محور الشر** في الخطاب الغربي كان انطلاقاً من ثنائية : العدو / الصديق . تشكل هذه الثنائية مشروعاً أساسياً في استراتيجية الليبرالية الجديدة . فهي تحاول من جهة أن تزرع الرعب والخوف في العالم من ( العدو ) الذي يهدد ( السلام ) العالمي و ( الديمقراطية ) ؛ وهذا العدو هو ( الأصولية الإسلامية ) بحسب خطابها . وتحاول ، من جهة ثانية أن تحدد معسكر ( الصديق ) على أنه كل إنسان وكل قوة في هذا العالم تقف ضد ( الإرهاب ) الكوني، و ( الديمقراطية الليبرالية ) الأمريكية على رأسها .

وهكذا ينقسم العالم وفق هندسة الثنائيات المستدمجة في هذا الخطاب إلى جبهتين متناقضتين : الإرهاب ، والحرية ؛ على مستوى الأيديولوجيا السياسية التي تريد لها الليبرالية الجديدة أن تكون شاملة لأصقاع العالم .

ولكي يتم فرض هذا الخطاب الأيديولوجي في الحضارة الراهنة ، لابد من تأسيسه فلسفياً – كما يفعل الليبراليون الجدد وممثلوهم المثقفين – الأمر الذي يعطيه من وجهة نظرهم – مشروعية ثقافية ؛ ما يحقق إمكانية التقبل والانتشار في صفوف الناس . في هذا الإطار يقول فرنسيس فوكوياما أحد أشهر المفكرين الممثلين لليبرالية الجديدة : " **سوف لا يبقى في نهاية التاريخ أي منافس حقيقي للديمقراطية الليبرالية ... عدا العالم الإسلامي ، وثمة على ما يبدو بروز اتفاق عام يقبل بشرعية إدعاءات الديمقراطية الليبرالية في أن تكون شكل الحكم الأكثر عقلانية** " . [1]

أما القطب الآخر للثنائية فهو ( الإرهاب ) العالمي ، حسبما يرى هذا الاتجاه ، وخصوصاً الرئيس الأمريكي الحالي (جورج بوش الابن ) .

إن فكرة السلطة تقوم على طرفين خاضع ومخضع ، بحسب ما يبين خطاب فلسفة السياسة المعاصر. ولذا ، تحقيق سيطرة الليبرالية الجديدة أو المحافظون الجدد في الإدارة الأمريكية يتطلب إبراز مقولة ( العدو ) الذي يمثله ( الإسلاميون ) ، والتمسك بها لإجراء التعبئة الكونية ضدهم ، وتبرير الحرب عليهم .

من جهة ثانية ، كان لابد ( للإسلاميين ) المتشددين من استثمار حلف وغطرسة المحافظين

---

(1) فرنسيس فوكوياما : نهاية التاريخ والإنسان الأخير ، مرجع سابق ، ص 205 .

الجدد بما يخدم أيديولوجيتهم السياسية المتزمتة ، وفلسفتهم المسماة ( دينية ) لتبرير دعوتهم إلى ضرورة قيام ( الخلافة الإسلامية ) أو ( حاكمية الله ) على الأرض ، ضد ( الكفر) الغربي ، وضد ( الكفر والإلحاد العلماني ) في العالم العربي .

وبالنتيجة ، فإن هذين الطرفين المتعاديين المتصارعين ، ينشران الخوف والرعب في العالم ، ويجعلان من الناس وقوداً في حربهما المجنونة .

***

إن اختراع وممارسة فكرة السجون السرية ، لا تقل خطورة عن أطروحة ( العدو / الصديق ) ، بل هي تأتي في نفس إطار إجراءات وعمليات السيطرة على العالم . لقد دخلت الإدارة الأمريكية من نافذة الإرهاب التي أسهمت بقسط أكبر من ( تنظيم القاعدة ) في فتحها، إلى مجال التحكم والهيمنة على العالم ؛ فجاءت بالإجراء الرهيب والجديد : السجون السرية في العالم .

وهو إجراء رهيب لما فيه من قسوة وفظاعة ضد الموقوفين فيها. ولعل معتقل ( غوانتانامو ) في الجزيرة الكوبية ، وسجن ( أبوغريب) في العراق ، عدا عن السجون الموزعة في أوربا الشرقية التي كُشف الستار عنها مؤخراً ، توضح مدى فظاعة المعاملة التي تنتهك أبسط حقوق الإنسان ، المقرة في القوانين الدولية .

ويلاحظ في هذا عملية اختراق لقواعد القانون الدولي ، عبر محاولة نشر فلسفة قانونية تشرع لانتهاك سيادة الدول سواء أكان عن طريق الإذعان التي تسلكه دول العالم مع القوة الأمريكية المتفوقة ، أم عن طريق الاتفاق بين الدولة المعنية وأمريكا ، بسبب أيضاً عدم تكافؤ القوى بينها .

والفكرة الأساس هنا هي مد السلطة القانونية للدولة الأمريكية على أرض دولة أخرى غير أمريكية ، وبالتالي عدم وجود حدود في العالم أمام صلاحية السلطة القانونية للقانون الأمريكي .

وهذا هو الجديد المخيف حقاً ، على مستوى المؤسسة القانونية ، من حيث طبيعتها ومفهومها في العالم .

***

وقضية الرسوم المسيئة للإسلام ونبيه الكريم ، تعتبر آلية جديدة يبينها الإعلام الغربي في إطار الاستراتيجية الثقافية التي ملأ بها المحافظون الجدد الفضاء الفكري العالمي . فجميع الإجراءات السياسية المؤكدة على الخصومة بين فريق يمثله الغرب وفريق آخر ، يعنونه بالإسلام ؛ إنما تحتاج إلى تسويغات ثقافية تصوغ الرأي العام العالمي . من هنا جاء بعض الفنانين الغربيين ليقدموا رسوماً تسيء إلى المقدس الإسلامي ، وكان الإعلام الغربي الواقع في قبضة الليبراليين الجدد سواء بشكل مباشر أم غير مباشر ، عبر الصحف والفضائيات ، أن يسوق هذه العملية المغرضة .

لكن التفسير السطحي لهذه القضية في العالمين العربي والإسلامي ، لم ير منها إلا وجهها العقيدي . ولذلك كان الرد عليها ذا طابع نفسي انفعالي صاخب ، وصل إلى حد تدمير ممتلكات خاصة وعامة من قبل المتظاهرين في معظم البلدان العربية والإسلامية . ولم يقتصر رد الفعل على المظاهرات ، بل تميز بطابع أيديولوجي بعيداً عن التأصيل العقلي الفلسفي، لذلك شدد البعض على فكرة أيديولوجية مفادها أن الغرب يكره الإسلام . وهناك حرب على الإسلام .

هناك مسافة بين القراءة الفلسفية لما يحدث في العالم والقراءة الأيديولوجية . فالأولى تفكر بالفكرة وكيف تتكون ، وتصف كيف تشتغل داخل الخطاب لتحديد دور المعرفة والعقل إي تشكيل الحقيقة عن هذا الذي يحدث في العالم ؛ في حين أن الأخرى تنطلق من نسق أيديولوجي ذي طبيعة شمولية تقدم الحقيقة كأساس لفهم العالم والإنسان عن منطلق كلي تأملي ، يهدف إلى جر الصيرورة التاريخية ليتطابق معها ، وبهذا تتخفى المصلحة بالأوهام العقلية والانفعالات النفسية ، وتتشكل لدى البشر كفاعلين اجتماعيين على أنها حقيقة نهائية قطعية .

صحيح القول : إن مسار التاريخ موضوعي . ولكن الموضوعية العلمية التي يدافع عنها البعض لامتلاك المنهج العلمي ؛ تختلف عن الموضوعية التي تذهب إلى أن الحركة التاريخية تقوم كحصيلة لنشاط البشر وإرادتهم الذاتية ، مع العلم أن هذه الإرادة مشروطة بنظام المعرفة الذي يشترط ممارساتهم وتوجهاتهم .

وبهذا المعنى تختلف هذه الموضوعية عن الموضوعية عندما يتعلق الأمر بدراسة الطبيعة . " **فالعلوم الطبيعية تتوسل طريقة موضوعية ، بينما تتوسل العلوم الإنسانية سبل التشارك والحوار** " . [1] كما يقول هانز جورج غادامير . وبكلمات أخرى لا يمكن إقصاء وجهة النظر الذاتية رغم أن الإنسان يكافح من أجلها ، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالمستوى الثقافي والحياة الاجتماعية ؛ عليه ، لا تتشابه الموضوعية التي لا تعترف بدور وجهة نظر الذات وتحيزها ، والفهم الهيرمنوطيقي الذي يعتد بالموضوعية من أفق التبادلية والتواصل بين الناس .

بقي أن يتم التمييز بين الذاتية ، التي تعني إمكانية الاختيار انطلاقاً من تعقل الذات الداخلي المشروط موضوعياً بلعبة اللغة والخطاب ، وبين الذاتية التي تتوهم إمكانية اختراق الشروط التاريخية الموضوعية للمسؤولية والإرادة ، وهي بهذا تصبح متعالية .

وبالعودة إلى الانشغال الأساس هنا بالرسوم المسيئة للرسول العربي الكريم (ص) ، فإن المحافظين الجدد يتحملون مسؤولية في تصنيع هذه الإساءة وإخراجها . أنهم ينطلقون – في ذلك من مبدأ معاداة . إن الفعل المتعلق بالمستوى الداخلي للإنسان ذو طابع ذاتي . عليه ، يمارس الليبراليون دورهم انطلاقاً من فهمهم لمصالحهم الذاتية ، وبالتالي لا يمكن إغفال مسؤوليتهم الثقافية والسياسية بالمشاركة فيما يؤول إليه المصير التاريخي الإنساني. ولكن طريقة الفهم وشروط الإسهام مرهونة بنسق اللغة ، وبنية الخطاب الذي يشكل لهم الأفق المعرفي لتعقل العالم ، وبهذا يتجلى الطابع الموضوعي لحركة التاريخ .

إن الرسوم الشائنة استهدفت استفزاز العرب والمسلمين من أجل جعلهم يغرقون في مشكلتين : اجتماعية – سياسية ثقافية . فهم في جو الشحن الانفعالي والتعبئة الوجدانية، وعبر المظاهرات يتوهون عن التركيز السياسي العقلاني على القضايا الأساسية التي من شأنها أن تسهم في بناء المجتمع العربي القوي ، ومواجهة تحديات الحاضر . فالحصائل السياسية التي تتأتى عن هذه الوضعية تؤدي إلى منع أمكانية بناء الدولة المؤسساتية الحديثة ، من منظورهم . ما يحرم العالم العربي من الدينامية السياسية القادرة على تسيير المجتمع وفق استحقاق العصر؛ ويبقيه في وضع ضعيف عاجز عن المواجهة مع الغرب الذي يقوده المحافظون الجدد .

---

(1) هانز جورج غادامير : بداية الفلسفة ، ترجمة علي حاكم – حسن ناظم ، بدون طبعة ،دار الكتاب الجديد المتحدة ،بيروت . لبنان. 2002 ، ص 39 .

تعميق الشعور الديني الناتج عن الآلية الاستفزازية يهيئ للذهنية التصنيفية ، ما يكرس الفئوية والطائفية في العالمين العربي والإسلامي . وهذا يخلق الشروط للصراع والاقتتال وتفتيت اللحمتين الاجتماعية والسياسية فيهما ، فيبقيان أضعف في موازين القوى مع الغرب .

إستراتيجية المحافظة على القوة لدى الليبراليين الجدد أو المحافظين الجدد ، وحرمان الآخر منها – وهو هنا العالمان العربي والإسلامي – تتحقق عبر الشرط الثقافي ، الذي يعني إيجاد جاهزية معرفية لدى هذين العالمين ملائمة لهذه الاستراتيجية .

والرسوم الاستفزازية ، أتت في هذا الإطار من أجل جعل العرب والمسلمين يتمسكون بخطابهم الثقافي التقليدي ، والدين في المركز منه ، وليس نتيجة الكراهية العاطفية أو العداء الأخلاقي ، كما يذهب التأويل السطحي لهذه القضية رغم أنه صحيح على المستوى المباشر . كيف ذلك ؟

الليبراليون الجدد يعتبرون الدين نسقاً ثقافياً تقليدياً ، لأنه كان مسيطراً قبل الحداثة، وهو كما يعتقدون لا يتوافق مع استحقاق الحاضر . فهم يدركون – وفقاً لعقليتهم الأداتية والبراجماتية – أن المقدس ، إذا كان مشرعاً للحياة المجتمعية سوف يصطدم بتفاصيلها الدنيوية، ولايمكنه أن يحيط بتشعباتها ؛ لأنه بالأصل مفارق ؛ هذا من جهة . ومن جهة ثانية ، إذا نجح فعلاً في النزول إلى الدنيا فقد كف عن كونه مقدساً ، كما يبين الانتروبولوجيون والفلاسفة ( إميل دوركايم ، مثلاً ) . فقد وصل الغرب إلى العلمانية بعد عزل المقدس عن الدولة ، ويعتبرها مكسباً حضارياً كبيراً ، وشرطاً لبناء المجتمع الحديث ، وإقامة حداثته الثقافية ومصدر قوته السياسية . وهو لا يريد للعالم العربي ذلك، لذا لا يمكن أن يكون ؛ حقيقة ضد المقدس في الحياة الروحية العربية ، بل هو يستخدمه من أجل خلق الفوضى والصراعات و التوترات الاجتماعية ؛ لأنه يريد للعالم العربي أن يبقى متخلفاً وعاجزاً أمامه .

ولكننا نحن العرب نتمسك بديننا الإسلامي لأنه يشكل عنصراً جوهرياً في ثقافتنا وأصالتنا البعيدتين عن التقوقع و الانغلاق .

باختصار ؛ القراءة النقدية العميقة لخطاب الليبرالية الجديدة تكشف عن الآليات الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تهدف إلى مد ثقافتهم وتحقيق قوتهم وتأمين استمرار سيطرتهم على العالم .

# الفصل الثالث

## النظرية العالمية الثالثة : الوجود الحقيقي-

## نقض خطاب الليبرالية الجديدة

## المبحث الأول: السياسي : المسافة النوعية بين الليبرالية الجديدة و النظرية العالمية الثالثة

### التوجه السياسي لليبرالية الجديدة .

يدعي خطاب الليبرالية الجديدة بأنه يعترف بجميع حقوق الإنسان بشكل شامل ، وأنه يقوم بتأمين هذه الحقوق وحمايتها . من حق المواطنة ، وحق الملكية ، وحق الرأي والتعبير عنه، وحق المشاركة في الحكم ( من خلال التصويت في الانتخابات ) .

هذا هو الحكم الديمقراطي من وجهة النظر الليبرالية ، وهو يحقق السيادة ، ويحقق المشاركة السياسية وهذا يعد من وجهة نظرها انتصار للإنسان . على اعتبار أنه هو من انزل الإله إلى الأرض داخل البرلمانات والقصور ، وفي بيروقراطيات الدولة الحديثة .

إن الليبرالية الجديدة الصاعدة مع الرأسمالية الأمريكية و التي تجاوزت العقبة الاشتراكية والشيوعية تتوجه نحو أحادية السيطرة المتمثلة في الدولة . إلا أن هذه الأخيرة ( الدولة ) تزعم أنها تعكس سياساتها مصلحة الأفراد وحقوقهم الطبيعية والمكتسبة . وإن دورها هو تحقيق الأمن " **فيكاد مفهوم الأمن يبرر للفرد ، أو للمجتمع الليبرالي ، اختراق أية منظومات من القيم والقوانين** " . [1]

هذه الأفكار التي تنطلق منها الليبرالية الجديدة ما هي إلا فوضى سياسية . وتعتقد مع كل هذا أن السياسة بالطريقة الأمريكية هي السعادة . لذا تعمل على فرض خطابها وتصديره بطريقتها تحت شعار أمركة العالم .

في الحقيقة إن ما يسعى إليه الخطاب الليبرالي الجديد هو التمكن بطريقة أو بأخرى السيطرة على العالم وخاصة المنطقة العربية وذلك لعدة اعتبارات أهمها الثروة النفطية .

فهي تحاول الآن إعادة تشكيل المنطقة وفق رؤيتها الاستراتجية للعالم ، وهي واضحة في أهدافها وسبل تحقيقها . إذا أن ترتيب المنطقة أمريكياً ليس له سوى معنى واحد . ألا وهو إيجاد التطابق بين أهداف الهيمنة والاستغلال والسيطرة ، وسبل تحقيق هذه الأهداف . [2]

---

(1) مطاع صفدي : المقدمة في نظرية القطيعة الكارثية ، مجلة الفكر العربي المعاصر، مرجع سابق ، ص 10 .

(2) المرجع السابق : ، ص 10 .

ولعل خطاب الديمقراطية الليبرالية مجرد مطلب أمريكي أوربي ، يخدم مصالح القوى الغربية ، فنراها تعرض على الساحة العربية ما يسمى بالإصلاح السياسي ، والذي به تكسب مؤيدين لسياستها من خلال طرح خطاب الحرية .

إن النظم السياسية التي يُعمل بها اليوم في الأساس نظم قديمة اخترعت مع بدايات العصور الوسطى ، وبالتالي لن تكون فاعلة في مجرى الحياة اليوم ومشاكلها ولن تتغلب على المصاعب التي يتعرض لها الأفراد .

وفي المجتمع الرأسمالي الجديد يشارك الفرد تحت مسمى الديمقراطية الليبرالية بانتخاب أحد المرشحين ، وفي ذات الوقت فإن دعم هذا المرشح من قبل المرشحين له لن يستمر أكثر من بضعه أشهر ، وذلك لأن ما أن يتوصل هذا المرشح إلى وضع القرارات فإنه لن يكون لديه الوقت الكافي لتحقيق مطامح المرشحين لها ، وفي نفس الوقت لن تتحقق القرارات التي أخذ كل الوقت في إعدادها فـــالجماهير " .. **قد تتوحد لمدة كافية لانتخاب رئيس ما تم تنفصل بعد الانتخاب تاركة إياه بدون قاعدة دعم لتنفيذ برامجه ... فهم محاصرون بجماهير الناخبين الجديدة والتي لا تحصى عدداً والسلسلة التنظيم والتي تطالب بالانتباه الفوري لحاجاتها الواقعية والضيقة غير المألوفة ..**".[1]

أن الخطاب الليبرالي يدعو لبناء المؤسسات والقيم والمبادئ الديمقراطية الغربية، وتحقيقها بالقوة الامبريالية . وإن هذا يعتبر نتيجة منطقية وضرورية للعولمة .

---

(1) الفن توفلر : حضارة الموجة الثالثة ، مرجع سابق ، ص 450،451.

## الديمقراطية وحقوق الإنسان السياسية :

إن عودة الخطاب الليبرالي جددت إشكالية النظام السياسي القائم على العدالة والمساواة المزعومتين بمقاربة فلسفية لما كان سائداً ما قبل فكر فرنسيس فوكوياما ( نهاية التاريخ ). فقد بنت الليبرالية الجديدة تفكيرها السياسي مقارباً لتفكير كانط ، والنفعية الأنغلوسكسونية، وذلك بتزوع كليهما إلى تأسيس خطاب يقدم الحجة والبرهان على أنه الحل لأي إشكال سياسي ولكن ليس بالطريقة السلمية بل بفرض هذه الحلول كأنها نهائية .

وإذا كانت حركة التاريخ تحقق التقدم ( الديمقراطية الليبرالية الغربية ) الذي قصده المفكر فرنسيس فوكوياما في كتاب نهاية التاريخ ، فهل هذه الديمقراطية تحمل مبادئ الحرية والمساواة ؟ الأساس الحقيقية لأي ديمقراطية صحيحة .

فما جاءت به الليبرالية الجديدة بعد انهيار الشيوعية من إيديولوجية ديمقراطية تشكل الانتصار النهائي للتاريخ والإنسان الأخير يعد مغالطة بين الخطاب السياسي ، والمفهوم الفلسفي الشمولي ؛ حيث إن محاولة فرنسيس فوكوياما الوصول إلى عقلانية واقعية عن مصير التاريخ لم يصغ معنى التاريخ وحقيقة حركته وغايته . **" فالتاريخ خط حركي له بداية ونهاية، و الأحداث تتلاحق فيه بحيث يبدو كأنها تصنع كمالاً ما ، وهذا الكمال سيعنى نهاية التاريخ "** . [1]

يسعى فرنسيس فوكوياما ، متأثراً بقراءة كوجيف لهيغل لالتقاط محرك التاريخ، فيرى أن هناك حقيقة واقعية له . وهي أن نهايته هي الليبرالية الديمقراطية . وبهذه الفكرة المركزية في عمارته الفكرية يكون قد انطلق من الدغمائية الفلسفية ، التي تنفي إمكانية تجدد الفكره وتطوره ، وبالتالي تطور التاريخ وتغيره .

أما عن تصوره عن المجتمع ، فهو يرى أن فكرة تحقيق مجتمع مدني تتحقق فيه ماهية النفس الإنسانية تحت مسمى العدالة والمساواة والحرية ، كغاية لأي مجتمع ليبرالي ؛ لا تبتعد كثيراً عن ما تناوله أفلاطون عندما رأى أن **" فكرة الاعتراف الذاتي التي تجسد غائية التراتبية الثلاثية (الطبيعانية أو = الفطرية) للنفس الإنسانية ... إعادة التوازن بين**

---

1- فرنسيس فوكوياما ، نهاية التاريخ والإنسان الأخير ، مرجع سابق ، ص 8 .

**العقل ( اللوغوس) والتيموس (Thimos) – أي مركز الانفعالات والشهوات معاً – يرفع مستوى تحقق الذات من النموذج العنفي (الحيواني والشهواني) إلى نموذج العقلاني " .** [1]

كما أنه لا تبتعد عن فكرة الكانطية الأخلاقية ، ولا الروسوية في العقد الاجتماعي **" فلو لم يقم وعي للفرد باستقلاليته – بكونه حراً في ذاته ، ... لو لم يقيم هذا الوعي الذي يسميه كانط شكلانية الآمر المطلق الأخلاقي ، لما أمكن إشادة ( العقد الاجتماعي ) بين هذه الذوات الحرة ، من أجل تنظيم حدود حرية لكل فرد عندما تبدأ حرية كل آخر " .** [2]

إن الطرح الأيديولوجي والأفكار السياسية السابقة لا تؤسس في الحقيقة ، بناء نظام سياسي يحقق حرية وسعادة الإنسان على الأرض . وإذا كانت الليبرالية تحمل شعارات الحرية والمساواة والعدالة . إلا أنها لم تحقق لها في الواقع إلا جزئية من التفوق الاقتصادي ( الرأسمالية ) في مراحل متقطعة بين ( أزمات ، ومحاولات أصلاح ) ؛ فهي لم تحقق هذه العدالة ، والمساواة رغم محاولات إقامة النظام الحر سياسياً ، فالخطاب الليبرالي يجاهد على أن يصور ذاته انتصاراً للإنسانية ، وفي الحقيقة يتخطى هذا الخطاب كل بناء معرفي سياسي شمولي . حيث ما تقوم به في العالم من فرض لنظامها مدعيه أنه لا يمكن عقلنه أي مجتمع سلمياً بل بفرض نظمها باستخدام العنف ؛ وهي ترى في ذلك إنصافا للمجتمعات الإنسانية ، كما اعتمدت القانون كطريقة عملية لهذا الإنصاف .

في الأول/من شهر الفاتح /1369 و.ر تحدث المفكر معمر القذافي في مؤتمر الشعب العام وذكر بأن ".. **القوالب القديمة كلها أصبحت الآن غير ذات جدوى ... الحكومات البرلمانات الأحزاب الانتخابات هذه الهياكل أو القوالب الموروثة من القرن الثامن عشر والتاسع عشر الآن وجدت نفسها في عالم غريب ... عاجزة عن التعامل مع العالم الجديد ومعطياته ومتطلباته وتحدياته وهذا جزء من الأزمة العالمية الآن..لأن الآن العالم متأزم...".** [3]

---

(1) مطاع صفدي ، نقد الشر المحض بحثاً عن الشخصية المفهومية . مرجع سابق. ص **113، 114** .

(2) المرجع السابق : ص **113** .

(3) السجل القومي : بيانات وخطب وأحاديث العقيد معمر القذافي (المجلد السنوي الثالث والثلاثون . المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر . طرابلس . الجماهيرية . **2002/2001** ف ) ، ص **19**.

لذا فأن الخطاب الليبرالي يحاول جاهداً إيجاد الشرعية لخطابه السياسي فيرى أن ( الوضع الأصلي ) الذي تتحقق به العدالة يكون فقط بالمجتمع المدني ومؤسساته ذات الصيغة الغربية ( الأمريكية بالتحديد ) حتى يكون ذو مفهوميه وعقلانية ، كل ما يحدث ضمنها من نظم سياسية فهي المحصلة النهائية لمصير الإنسانية . بل عدت هذا النظام المدني الإله الجديد الذي بحثت عنه كل أساطير وأفكار الخطابات السابقة ؛ وترى أنه تجسد نهائياً مع خطاب الليبرالية الجديدة كما يصورها فكر فوكوياما. [1]

أن القضية الجوهرية في علاقة العالم الغربي ببقية العالم قائمة على التنافر بين سعى الخطاب الليبرالي على فرض ثقافة عالمية ذات طابع غربي وبين قدراتها التي انهارت بسبب زيف خطاب الحرية وحقوق الإنسان .

يرى فوكوياما أن محرك التاريخ هو عنصر( البسيكيولوجيا ) وحدها ويذكر عن ذلك انه ".. **انتزع من الأفلاطونية الترسمية التبسيطية التي أتى بها مؤسس العقلانية الإغريقية أفلاطون ، ليصور من خلالها صراع الميول والقيم في ذات الفرد الإنساني . واختار جانب الميول، أو ما كان أطلق عليه أفلاطون اسم التيموس (Thimos) وهو هذا الجزء الراغب من النفس والطامح إلى تأكيد الذات ، وانتزاع اعتراف الآخرين بها** " . [2]

لقد رأى فوكوياما في هذا ( التيموس) جزءاً من النفس وبنية المجتمع ، وعده حركة من حركات التاريخ و جعله أساسا وبديلاً عن أي منفعة ، وقام بربطه بهدف أحادى نهائي للكينونة الإنسانية . انه النظام السياسي والاقتصادي ( الرأسمالي الجديد) " **باعتباره أعلى تجسيد للرغبة التيموسة** " . [3]

لقد رغب في إثبات حقيقة واحدة وهى انتصار الليبرالية الجديدة ، هذا التناقض مابين تحديد ( التيموس ) كماهية ثابتة للإنسان ومحرك للتاريخ ، ورد مبدأ الصراع الفردي والجماعي للاعتراف بالذات لنفس (التيموس ) . فإنه في ذات الوقت يرى به الأساس الحيوي القابل لبناء الديمقراطية من خلال نظام اجتماعي سياسي يحكمه الخطاب الليبرالي .

---

(1) مطاع صفدي : لقد الشر المحض بحثاً عن الشخصية المفهومية . مرجع سابق . ص **121** .

(2) فرنسيس فوكوياما ، نهاية التاريخ والإنسان الأخير ، مرجع سابق ، ص **8** .

(3) المرجع السابق : نهاية التاريخ والإنسان الأخير ، ص 8 .

التناقض في جعله ( التيموس ) مبدأ للصراع ومحققاً لنظام عقلاني (مجتمع الحرية و المساواة والديمقراطية ) ، و متناسياً ما يتعلق بإثبات واقعية نهاية التاريخ التي ربطها بالنظام الليبرالي الأمريكي بالذات ، وان نهاية التاريخ في الحقيقة الأمريكية التي يرى فيها كمال التاريخ. الكمال المتحقق في النموذج الأمريكي عن تضامن مفهوم (المساواة والعدالة والسعادة ) مع خطاب ( النظام السياسي والاقتصادي) الذي حقق الحكومة الشمولية المنسجمة الكولونيالية . إلا أن حقيقة الولايات المتحدة الأمريكية ونظامها العالمي الجديد . حقيقة وحشيه عبر التاريخ . ( وهم الخلود ) كما يسميه توينبي. الاعتقاد بأن حضارتهم هي شكل نهائي للمجتمع الإنساني . مرت به العديد من الحضارات السابقة . إلا انها انهارت ونشأت بعده حضارات أخرى جديدة . (1)

النهاية التي تتمتع فيه الحضارة الأمريكية في ظل الخطاب الليبرالي الجديد مبنية على عدم المساواة وعدم الاعتراف بحق الآخرين ، وذلك عن خطاب فوكوياما بأن العالم منقسم إلي مجتمعين مجتمع أسير التاريخ ومجتمع ما بعد التاريخ .

رأى بالأول مجتمعاً ميئوساً منه ويصعب وصوله للحرية وقصد به المجتمعات غير الغربية وخاصة مجتمعات العالم العربي ( الإسلامي ) ، و رأى في المجتمع الآخر . انه تجاوز مرحلة الصراع الذي تحدث عنها صموئيل هنتنغتون بقولة : " **أن الثقافة أو الهوية الثقافية ، و التي هي في أوسع معانيها الهوية الحضارية ، هي التي تشكل نماذج التماسك ، والتفكك ، والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة** " . (2)

وان هذا المجتمع ينعم بطبيعة هادئة ، وحقوق ، وحرية ، وانه يجب اللازم العالم بالاعتراف به كمتفوق .

---

(1) صموئيل هنتنغتون : صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي ، مرجع سابق،ص 503 .

(2) المرجع السابق : صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي ، ص71 .

هذه الأيديولوجية السياسية للخطاب الغربي تحرم البقية من تصنيفهم كمجتمعات قادرة على فرض الاعتراف بها ، وتحقيق كينونتها الخاصة بعيداً عن التبعية للخطاب الليبرالي الأمريكي الذي يرى في ذاته الانتصار الأخير للإنسانية . متناسيه ما فعلته بالعالم عبر التاريخ من آثام ومظالم .

وعندما يطرح فوكوياما القول بأن النخبة التي سوف تدخل التاريخ هي التي يتحقق للإنسان فيها تطبيق القانون ، والتطابق بين الواقعي والطبيعي ؛ فإن خطاب الليبرالية الجديدة لا تعد تلك النخبة التي ترى في نفسها نهاية للتاريخ وشموليته ؛ لأن ما هو طبيعي للإنسان والمجتمع من حقوق إنسانية وسياسية واقتصادية وثقافية ؛ يحاول الخطاب الليبرالي بشعارات زائفة قامعة واقعياً أن يكون مجرد محاولة تجريبية على العالم ، تريد أن تضمن به الولايات المتحدة الأمريكية مصالحها داخل المناطق الاستراتيجية .

ولعل عقلنه الحروب التي يقوم بها الاتجاه الليبرالي تحت مسمى تحقيق الديمقراطية الليبرالية في المنطقة العربية باستخدام القوة العسكرية . أكبر دليل على وحشية السياسة الأمريكية .

وبمنطلق آخر يقوم الفكر الليبرالي على الترويج لمبدأ التعددية ، والتأكيد على مبادئه من خلال طرح فكرة التمثيل كنظرية تحقق وسيلة الحكم التي من خلالها يتم التعبير عن إرادة المجتمع .

أن ما قدمه فرنسيس فوكوياما في كتابه ( نهاية التاريخ ) التي تتلخص حسب رؤيته بأن الليبرالية الغربية الحالية تمثل أرقى ما وصل إليه الفكر الإنساني ؛ وإمكانية اختراع النظم الصالحة للحياة بشكل عام سواء على مستوى السياسة أم على مستوى الاجتماع ، وبالتالي فسيأتي اليوم الذي تقوم فيه المجتمعات الإنسانية الأخرى خارج منظومة المجتمعات الغربية بتطبيق هذا النموذج الليبرالي ؛ باعتباره– كما يرى – الأصلح والأرقى لقيادة الحياة البشرية على الأرض من خلال تطبيق مبادئ ونظم الديمقراطية الحق في الحكم ، ومن خلال تطبيق مبادئ الليبرالية المدنية التي تقوم على حرية الضمير كأساس لتدشين نظام العلاقة بين الأفراد داخل المجتمع.

لذا ترى أن الانتخابات البرلمانية ، واختيار ممثلين من أفراد المجتمع يحققان الاستقرار السياسي . حيث أن مطلب الاعتراف مصدر للفضائل ، ومقاومة للظلم ، وسبب في اختيار الديمقراطية الليبرالية . فقد ولد ( التيموس ) لأي إنسان لتقدير قيمته الشخصية هذا التواضع لتيموس يعد احتراماً للذات وتقديراً لها ؛ من خلالها نستطيع امتلاك القوة والثروة .

كما أن الرغبة في المساواة تعد منحى طبيعياً لدى التيموس إلا أن الرغبة في الاعتراف كمتفوق على الآخرين كما يرى خطاب الليبرالية الجديدة في نفسه ذلك يعد غلواً في تقدير الذات . " **هذه الرغبة بأن يعترف بنا كمتفوقين على الآخرين نعطيها اسماً جديداً ذا جذر يوناني الميغالوتيميا Megalothymia** " . [1]

إذاً خطاب الليبرالية هو رغبة اعتراف ميغالوتيمية تسعى إلى امبريالية شمولية على كافة مجالات الحياة الإنسانية .

وفي الحقيقة فإن مجتمعات العالم العقلانية والواقعية لا ترى في الغرب ومؤسساته السياسية إنها ذات تصور لائق إنساني وهي لا تسير على واقع الديمقراطية الحقيقية .

فقد شكلت سياسة الخطاب الليبرالي الجديد تسلطاً توليتارياً داعماً لأحزاب سياسية وإيديولوجية تحاول السيطرة على العالم وأوجه الحياة الإنسانية ، وتنطلق من مشروع " **السيطرة على العالم** " . [2]

كما يذكر فوكوياما أنه " **سوف لا يبقى في نهاية التاريخ أي منافس حقيقي للديمقراطية الليبرالية** " . [3]

وهو هنا ينفي وجود أي ديمقراطية يمكن أن تتحقق داخل أي حضارة . غير الحضارة الأمريكية .

---

(1) فرنسيس فوكوياما ، نهاية التاريخ والإنسان الأخير ، مرجع سابق : ص 182 .

(2) المرجع السابق : ، ص 39 .

(3) المرجع السابق : ص 205 .

إلا أن هذه الديمقراطية لم تحقق لأفرادها الحرية ، وتولي السلطة الحقيقية . والتي نادت بها النظرية العالمية الثالثة ( **الديمقراطية الحقيقية** ) **في فكر الكتاب الأخضر** .

تتفاءل شعوب العالم بمستقبل تعم الحرية فضاءه . بعد أن حاصرته العصور السابقة بالعديد من الاتجاهات ، التي تبنت تقديم حلول عدة لوصول الإنسان إلى الحياة المستقرة ، وليتحقق للإنسان كينونته على وجه الأرض .

احتفظت القوة الغربية بالأمل الدائم الذي يحقق هذه الكينونة ، فهي ترى بأن العالم لن يصل إلى المستقبل والحرية إلا بتطبيق ما يسمى في الغرب بـ " **مؤسسات سياسية لائقة و إنسانية ، أي الديمقراطية الليبرالية** " . [1]

جاءت النظرية العالمية الثالثة في جانبها السياسي لتؤكد أن " **أداة الحكم هي المشكلة السياسية الأولى التي تواجه الجماعات البشرية** " . [2] ، وجوهر المشكل السياسي ، ما يرتبط أساسا بمفهوم الديمقراطية .

لقد جاءت أفكار هذه النظرية تحطيماً للنظريات الإيديولوجية الغربية المطروحة على الساحة العالمية ، والتي ترى في أطروحتها نهاية التاريخ ، نهاية الإنسان .

وتجد في خطابها أنها محققة الدرجة الأرقى لوعي الإنسان من خلال التطور السياسي الذي أنتج خطاب الديمقراطية الليبرالية الجديدة ؛ و رداً على هذه الديمقراطية الزائفة قامت العديد من الدول في العالم على إنتاج نظم سياسية تحقق تنظيم مجتمعاتها ؛ وذلك بما يتلاءم ووضعها الثقافي والاجتماعي والأخلاقي السائد به .

يرى أنصار التمثيل والانتخابات الحرة أن الديمقراطية النيابية تضمن للإفراد حق التصويت . إلا أن هذا الحق لا يلزم الأفراد بالتصويت . فأحيانا يمتنع بعض الأفراد عن التصويت لأحد المنتخبين وهذا ما حدث في التصويت لرئيس الولايات المتحدة الحالي بوش .

---

(1) المرجع السابق : فرنسيس فوكوياما ، نهاية التاريخ والإنسان الأخير ، ص 37 .

(2) الكتاب الأخضر : حل مشكلة الديمقراطية ، ص 5 .

إلا أن خطاب الليبرالية الجديدة الذي يحمل الحرية في التصويت يتعرض إلى مشكلة " أن المشكلة هي في جوهر الرؤية الفكرية لفلسفة ومذهب الديمقراطية النيابية باتجاه مفهوم الحرية . فالحرية عندهم مطلقة . لكنها شكلية . نعم أنت حر أن تختـــار من تشاء من النواب ومن يمتلك ولكن هذه الحرية شكلية " . [1]

لان الفرد في ظل هذه الحرية يعوق التمتع بها العديد من العوامل ؛ اقتصادية واجتماعية واعلامية ...الخ . ففي الانتخابات تمنع الناس من ممارسة حريتهم المطلقة في الانتخاب أو عدمه ؛ وفوز الناخبين في المجتمع النيابي الرأسمالي تملكه عوامل أخرى مثل الإعلام والمال ومراكز القوة والعوامل الاجتماعية .

يذكر ألفن توفلر في هذا الصدد في كتابه حضارة الموجة الثالثة : أن السياسة الأمريكية مازالت عاجزة عن إقامة سياسة مدنية شمولية ، وإن هذا الأمر عكس عليها صبغة الهيار صنع القرار ، وأدى ذلك إلى العديد من المشاكل السياسية من عدم استقرار في المؤسسات القائمة بها . [2]

وبذلك ظلت معضلة أداة الحكم قائمة ، تبرر الأنظمة السياسية عدم قدرتها على تحقيق الديمقراطية الواقعية باستحالة جمع كل أفراد المجتمع ، وصعوبة اتخاذ قرار يعبر عن إرادة جميع أفراد المجتمع وذلك لاختلاف المصالح وغيرها من المبررات ؛ ورأت أن ذلك لن يتحقق في غير النظم النيابية كبديل عن الديمقراطية ذاتها .

إن ما يجري على الساحة العالمية الآن لهميش لكل المحاولات الديمقراطية الحقيقية . فقد أكد هنتنغتون على ضرورة محاصرة نشؤ أي ديمقراطية غير غربية ، وعدم السماح بوجود إي ديمقراطية حقيقية جديدة في العالم . وذلك لأنه يرى في ممارسة الديمقراطية الغربية في الدول غير الغربية يؤدى لوصول الأهالي والحكومات السياسية المعادية للغرب للسلطة وستكون بالتالي ضد مصالحها وأهدافها .

---

(1) مجموعة باحثين : ندوة الفكر السياسي المعاصر" الديمقراطية : المفهوم والممارسة " ، مرجع سابق، ص 201 .

(2) الفن توفلر ، تحول السلطة بين العنف والثروة والمعرفة ، مرجع سابق ، ص 434 .

فكر النظرية العالمية الثالثة القائم في أساسه على مبدأ الحرية ، والمشاركة السياسية . يؤكد أنه " **لا نيابة عن الشعب والتمثيل تدجيل** " . [1]

فالأنظمة الإصلاحية التي يسعى الخطاب الليبرالي الديمقراطي إلى فرضها على المجتمعات غير الغربية أنظمة تلفيقية ؛ فالنظام الرأسمالي قائم على تكديس الثروة خلق بمجتمعاً ذا فوارق مختلفة . ترى **النظرية العالمية الثالثة** في سياسة الخطاب الليبرالي الديمقراطي محض تزييف ، وديكتاتورية ، فإن أي فئة قليلة مهما كان نوعها : حزب ، برلمان ، طبقة ، تتحكم بالسلطة تعد استغلالاً لباقي أفراد المجتمع ، وأنها سوف تستأثر بثروات المجتمع . [2]

كما أن النظام التمثيلي الذي يقوم عليه النظام السياسي الليبرالي ؛ هو في الحقيقة إبعاد الشعب عن ممارسة السلطة والمشاركة السياسية الفعلية . والحل هو القضاء على كافة أدوات الحكم الديكتاتورية حزباً أو مجالس أو نيابة . وإقامة سلطة الشعب الجماهيرية.

فالديمقراطية الجماهيرية ترتكز على ممارسة الحكم من خلال السيطرة الكاملة لأفراد المجتمع على مقدراته . يملك الحرية في اتخاذ القرارات التي تسير حياته وتخدم مصالحه .

إن مبادئ الحرية والمساواة والعدالة لن تتحقق إلا في إطار المجتمع الجماهيري حيث تنتفي الأداة الديكتاتورية ، وذلك بامتلاك الشعب السلطة والثروة والسلاح .

وتعتبر المؤتمرات الشعبية الهيكل التنظيمي الحقيقي للمشاركة السياسية الفعلية والتي من خلالها تتحقق سلطة الشعب في ممارسة الديمقراطية الحقيقية دون نيابة عن الشعب .

وبتطبيق هذا الطرح الحضاري . تنتفي كافة أدوات الحكم الديكتاتورية ليحل محلها أداة حكم جماهيرية . حيث " **لا ديمقراطية بدون مؤتمرات شعبية** " . [3]

إن الاعتقاد باستحالة تطبيق الديمقراطية المباشرة يقوم على مغالطات واهية وغير علمية وهذا ما كشفه الفكر الجماهيري ... فكر " الكتاب الأخضر " من إمكان قيام سلطة الشعب المباشرة المعمول بها في الجماهيرية العظمى ؛ دون وسيط أو بديل ، والتي تثبت أن الديمقراطية المباشرة ليست منطقية فحسب بل هي الحل الحاسم لقضية الحرية .

---

(1) معمر القذافي : الكتاب الأخضر : مرجع سابق ، ص 11 .

(2) شروح الكتاب الأخضر – الجزء الأول . الطبعة السادسة ، (المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر . طرابلس . الجماهيرية . 1924 م ) ، ص 77 .

(3) معمر القذافي : الكتاب الأخضر : مرجع سابق ، ص 45 .

## المبحث الثاني: الاقتصادي وصراع الاتجاهين: الليبـــرالي الجـــديد و الجماهيري

### طبيعة الاقتصاد الليبرالي الجديد :

لقد كان لانهيار الحكومات القوية المسيطرة خلال العقدين الأخيرين الفضل في انتشار المبادئ الاقتصادية لليبرالية – السوق الحرة – . حيث اعتقدت العديد من المجتمعات آنذاك أن هذا التوجه الليبرالي قد يحقق الازدهار الرأسمالي ، وذلك لاعتقادهم بأن الرأسمالية والديمقراطية ترتبطان بشكل قوي .

اعتمدت الرأسمالية الحرية الاقتصادية المطلقة من اجل تحقيق الازدهار الاقتصادي ، الحرية التي عرفها توماس هوبس بالقول : [ " **تعني الحرية غياب المعارضة – وأعني بالمعارضة العوائق الخارجية أمام العمل – ويمكنها أن تطبق على المخلوقات اللاعقلانية وغير الحية مثلما تطبق على المخلوقات العقلانية** "] . [1]

الحرية الاقتصادية بأن يكون الأفراد أحراراً في اختيار النشاط الاقتصادي الذي يحقق لهم المصلحة الشخصية ، ولضمان تحقيق ذلك يتطلب عدم تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي ؛ شعار حمله الخطاب الليبرالي . لخدمة مصالحه على كافة المستويات ؛ و تأكيده على ضرورة الملكية الخاصة . رأت الليبرالية الجديدة بأن يُعطى للفرد كامل الحرية في امتلاك ما شاء ، وكيفما شاء ، والحرية الكاملة بالتصرف فيما يملكه ولو كان ذلك قد يسبب ضرراً للآخرين .

وكل ذلك من وجهة نظر الخطاب الليبرالي حتى يُدفع الأفراد لزيادة الإنتاج ، ومن ثم الربح . حيث يعتقد هذا الخطاب أن الربح يؤدي بالضرورة إلى زيادة الإنتاج ، والعكس إلى انخفاضه . وقيام هذا النظام على المنافسة الحرة ؛ والتي قصد به الحرية الممنوحة للأفراد في اختيار أي نشاط يشاءون هو ما سيخلق منافسة كاملة ؛ تمنع هذه المنافسة الاستغلال بينهم .

---

1- فرانسيس فوكوياما ، نهاية التاريخ و الإنسان الأخير ، مرجع سابق ، ص **155** .

إلا أن مع كل شعارات هذا الخطاب فقد تعرض الاقتصاد إلى أزمات وتقلبات عديدة. اقتصادياً رأى فوكوياما أن المجتمعات الغربية نموذج ستسعى إليه الأجيال مستقبلاً كونه عصر الازدهار الذهبي فقد " **وضع نهاية لحواجز التجارة الداخلية ، ... وبناء نظام اتفاق حكومي مرتبط ببناء الإمبراطورية الشاملة أو العالمية** " .[1]

تحقق لهذه المجتمعات القدرة الاقتصادية وراء رغبة برغماتية تعتمد على آلية توسعية ذات طابع اقتصادي منفعي مصلحي ؛ وذلك لتحقيق فائض رأسمالي . إلا أن هذا الفائض تسبب في أزمات اقتصادية عالمية ؛ وذلك بسبب تكدس الإنتاج الرأسمالي ؛ أدى هذا إلى تخوف الخطاب الليبرالي الجديد من احتمال وقوع انهيار اقتصادي ؛ فعملت على البحث عن مجتمعات أكثر ديناميكية اقتصادياً وسكانياً .

فالخطاب الليبرالي اقتصاديا يسير وفق قوانين أساسية مبرمجة لتحقيق الربح بعيداً عن أي معارضة وبأي وسيلة . متناسية أن هذه الحرية المطلقة تختلف من إنسان إلى آخر ؛ وبين ذات طبيعية وذات مادية متوحشة .

والليبرالية الاقتصادية قد تحقق إشباع الحاجات الضرورية لدى مجموعة من الأفراد ، في حين تحقق السيطرة والاستغلال لدى مجموعة أخرى .( مؤسسات وشركات عملاقة تحتكر الإنتاج ورأس المال لخدمة مصالحه ) .

اعتقد فرنسيس فوكوياما أن التكنولوجيا الغربية والتطور الاقتصادي الهائل الذي تتمتع به الدول الرأسمالية الجديدة هو الغاية النهائية للإنسان .

ولكن لماذا يجب أن نعتقد أن التوجه الليبرالي اقتصاديا هو ما يحقق هذا التقدم ؛ في حين رأى العديد من المفكرين أن التخطيط الاقتصادي المسبق هو أكثر فعالية من العمل في ظل السوق الحر ، وأن الصناعات المؤممة أكثر نجاحا صناعياً من صناعات القطاع الخاص .

إن طغيان نظام السوق الحر يقودنا إلى فوضى اقتصادية ، والذي أكد عليه فوكوياما (بحتمية الرأسمالية )؛ وأنها انتصار نهائي كنظام اقتصادي وحيد . إلا أنه أصيب بالفشل مع الأزمات الاقتصادية الرأسمالية .

---

(1) المرجع السابق : فرنسيس فوكوياما ، نهاية التاريخ و الإنسان الأخير ، ص **109** .

ويذكر بهذا الصدد " **أن درجة حرية المجتمعات تقاس بمقدرتها على ضبط وتخطيط اقتصاد من النمط الرأسمالي** " . [1]

وحاول طرح عناصر الثقافة الرأسمالية بشمولية كولونيالية ، وهي السماح بالتنافس الاقتصادي ، وترك الأسعار تتحدد بحرية حسب متطلبات السوق للوصول إلى الحداثة الاقتصادية الكاملة .

يعد تحقيق الرفاهية غاية للخطاب الليبرالي الاقتصادي ، وعامل تغيير رئيسي لهذه المعادلة . فهو العامل الذي يعيد تشكيل المجتمع من أفراد يتميزون بما عندهم من أشياء طبيعية أو مادية ، وما يملكون من ممتلكات تحقق الثروة ، وليس بما هم عليه .

فالفرد يتحقق له الاستقلال الذاتي بقدرته على الامتلاك ؛ على أن تكون موارد معيشته تحت تصرفه لا يتحكم به أحد خارجي . وباعتقاد الخطاب الليبرالي الجديد أن هذا الفرد المستقل والمكتفي بذاته لن يتحقق بأي مجتمع سوى المجتمع الليبرالي المعاصر ؛ ولكن هذا الفرد المستقل يحاول الفكر الليبرالي الجديد إعادة تشكيله حسب ما تجدد من أفكار غربية ، وذلك لخدمة مصالحة داخل المجتمعات غير الغربية .

بعد انهيار الفكر الشيوعي الماركسي ؛ وانهيار عمليات التقدم الاقتصادي التي تقدم به، وتبني العديد من الإيديولوجيات محاولة الوصول إلى حل يحقق هذا التقدم . انبثق الخطاب الليبرالي الجديد مجدداً للمفهوم الإمبريالي ؛ مدعياً بأن انهيار الأبنية التنظيرية و الإيديولوجية التي تدارست مفهوم التقدم الاقتصادي كان سبب تحقق هذا التقدم حتمياً مع الليبرالية الاقتصادية الجديدة . فقام بتقديم خطاب يقيم " **البرهان " الواقعي " على انتفاء التقدم أصلاً ، وإرجاعه إلى مفهوم أكثر إجرائية هو الصراع** ". [2]

ولا يرغب هذا الخطاب إي محاولة تعقيلية تعطي له شرعية ، بل يتوجه بطريقة آلية و وحشية ؛ وذلك من خلال استخدام كافة أدوات الصراع ( الإنسان ، والاقتصاد ،

---

(1) مطاع صفدي ، نقد الشر المحض بحثاً عن الشخصية المفهومية . مرجع سابق . ص **109**.

(2) المرجع السابق : ص **113** .

والتكنولوجيا الحربية ) محاولاً أثبات أنها هي عناصر التقدم الحقيقي تاريخياً هذا من جهة . ومن جهة أخرى يرى الخطاب الليبرالي أن أي محاولة إصلاح اقتصادي تتبنى إيديولوجية اقتصادية لنظام سابق عنها ، أمراً واقعاً سـوف يبلى بالفشل ؛ وسيكون عاجزاً عن الإصلاح والتغيير . وسيكون حسب نظرية ( نهاية التاريخ ) الليبرالية الجديدة الملجأ لهذا الإصلاح .

وبناء على التفسير السابق عن امبريالية الخطاب الليبرالي وتوجهه الاستعماري فإنه " **ينبغي القول أن الأسس الميتافيزيقية التي اعتمدها الخطاب الليبرالي ... أن الإنسان " ذئب لأخيه الإنسان " "** .[1]

ولذا رأت بأن جوهر العلاقات البشرية ( الصراع ) ، وأن مجال تحسين الأوضاع قائم على تغيير أحادي يملك أدوات وصيغ هذا الصراع .. تواجدت هذه الأدوات دائماً في الفلسفة الأنغلوسكسونية ، و مبادئ خطابها التي حكمت توازنات القوى، وكل ذلك يرجع إلى مفهوم المنفعة ؛ والذي حدده الخطاب واقعياً واجتماعياً بالملكية الفردية التي ستحقق تطور الملكية بالسيطرة على وسائل الإنتاج ؛ ومن ثم السيطرة على الميديولوجيا . [2]

ولعل هذا الخطاب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية يسعى في الأساس إلى جعل العالم من حوله في وضع ( تبعية دائمة ) سوى بالتحكم في الحاجات الإنسانية ؛ أو عن طريق الترويج ( للكماليات الاستهلاكية ) ، ولم يكتف هذا الخطاب بذلك بل عمل على عولمة الإنتاج بشتى الوسائل من أجل إعادة استعماره بطريقة جديدة . إلا أن فشل الرأسمالية المستمر في تحقيق إنتاج اقتصادي عالمي ، أسهم في البحث عن نظام جديد يسهم في حل المشاكل الاقتصادية تمثل ذلك في ( النظام الاشتراكي ) .

نشأ خطاب الليبرالية الذي يدعو إلى حرية السوق متبني أفكار السوق ، وكيفية الربح، واعتمد زيادة رأس المال ، وأن كان ضد مصلحة الفرد الذي يدعو إلى ضمان حقوقه ، وهي قديماً من قامت باستعباد العامل بزيادة ساعات العمل واستغلال جهده ، واليوم استغنت عنه من خلال اعتماد نظام الآلات والتكنولوجيا كبديل .

---

(1) المرجع السابق : نقد الشر المحض بحثاً عن الشخصية المفهومية ، ص **112**.

(2) المرجع السابق : ص **112** .

[ " أن السماح لآلية السوق أن تسيطر وحدها على مصير الكائنات البشرية ووسطها الطبيعي ... يؤدي في النهاية إلى تدمير المجتمع " ]. [1]

فقد جعلت الليبرالية الاقتصادية المجتمعات على محك ؛ فأحياناً تتبنى تدخل الدول ، وأحيانا ترفض هذا التدخل ، وتدخل بذلك الاقتصاد في أزمات متتالية تعود على العالم بتأثيراتها السلبية .

يسير الخطاب الليبرالي الجديدة على طريق نظم الرأسمالية الاقتصادية هذه النظم التي يتصف بالملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ؛ وتسخير هذه الوسائل من قبل الأفراد لتحقيق الربح تحت ظروف الحرية الاقتصادية والمنافسة الكاملة .

لقد أسهم الاقتصاد الجديد في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة في حل مشاكل الحاجة الطبيعية ؛ إلا أن مشكلة الغذاء والمأوى والعديد من الحاجات الطبيعية مازالت تنقص هذه المجتمعات ، ومع كون هذه المجتمعات مجتمعات غنية ولها القدرة على الاهتمام بمشاكل الإنسان اقتصادياً لم تعمل على ذلك ، بل زاد الفقر في ظل التطور الاقتصادي الليبرالي .

في ظل الخطاب الليبرالي الجديد يعد " **الاكتفاء الذاتي فوق كل شي** " .[2] وفي الحقيقة تتعرض مجتمعات هذه الخطاب إلى ظلم حقيقي بسبب الفقر ، واللامساواة الاقتصادية ناتجة عن الواقع الرأسمالي الذي تسبب في عدم التكافؤ الإنساني .

كما أن مشكلة حقوق العمال ، واللامساواة الاقتصادية بتوظيف حسب الجنس والعرق . عدت مشاكل توجه الليبرالية الجديدة ؛ تعذر إيجاد حلول لها في ظل هذا الخطاب الليبرالي .

---

(1) سيرج لاتوش : تغريب العالم ، ترجمة هاشم صالح ، الطبعة الأولى (المؤسسة العربية للنشر والإبداع ، دار البيضاء ، المغرب ، 1993 ) ص 87 .

(2) فرانسيس فوكوياما : نهاية التاريخ ، مرجع سابق ، ص 269 .

في حين عمل الكتاب الأخضر على التأكيد بأن المجتمعات التي قامت على أساس الملكية لم تستطع حل مشاكل المنتجين فهم لايزالون أجراء ، " **وأن الأجراء– مهما تحسنت أجورهم – هم نوع من العبيد** " . [1]

ورغم ما تحقق لهولاء الأجراء من مزايا في الأجرة ، والحقوق .من تشريعات ونقابات؛ مازال المشكل الاقتصادي قائماً . لذلك فإن طرح النظرية العالمية الثالثة يرى " **أن الحل النهائي هو إلغاء الأجرة ، وتحرير الإنسان من عبوديتها** " .[2]

يرى فرنسيس فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ أن المجتمع الرأسمالي " **قد حقق « مملكة الحرية » ... بالإلغاء الفعلي للحاجة الطبيعية ، وبالسماح للناس بامتلاك ما يبتغونه** " .[3]

لقد تجسد الخطاب الليبرالي اقتصادياً من خلال مبدأ الحسابية ، حيث يصنع أفراده من خلال المصلحة والملكية الفردية معيشته ؛ إلا أن " **مبدأ الحسبية كتجسيد لاقتصاد العقل لا يمكنه الاعتراف العقلي بمبدأ الكينونة بما هي تواصل أصيل للفرد مع العالم . فالحسابية أو التملك هو الدافع الأساسي لكل فعالية للفرد ، الأمر الذي يكرس البرغماتية في كل عملية تعقل وسلوك لديه** " . [4]

واعتمد الاقتصاد الليبرالي على زيادة الربح ( رأس المال ) ، لذا أسهم في تركيز القوة الاقتصادية في أيدي أقلية تضع قواعد السوق ؛ ولذا يعد النظام الاقتصادي الليبرالي نظاماً استغلالياً .

**جاء الفصل الثاني من الكتاب الأخضر ( حل المشكل الاقتصادي )** لمواجهة الفكر السائد في العالم الغربي ، فكر النظام الرأسمالي ( السوق الحر) الذي يرى أن تحقيق أكبر قدر من الأرباح يؤدي إلى وصول الإنسانية لمستوى عالٍ من الرفاهية الاجتماعية.

---

(1) معمر القذافي : الكتاب الأخضر ، حل المشكل الاقتصادي ، مرجع سابق ، ص 78 .

(2) المرجع السابق : ص 81 .

(3) فرنسيس فوكوياما : نهاية التاريخ ، مرجع سابق ، ص 271 .

(4) مقداد نديم عبود : بين القطيعة والخلق ، مرجع سابق ، ص 115 .

وهذا النظام من وجهه نظر واقعية يعد سياسة متوحشة ، قديماً تأسس النظام الاقتصادي الليبرالي الكلاسيكي على مجموعة أراء وأفكار فردية يتم تطبيقها ( كتجربة قابلة للنجاح أو الفشل ) ؛ و يعود كما ذكر آدم سميت ( ليد خفيه ) توجه السوق . مما أسهم هذا الفكر في إبراز ( النظام الطبيعي ) . إلا أن فلسفة النظام الليبرالي الجديد لم يكن يهتم بالنواحي التركيبية اللازمة لإقامة نظام أنساني ؛ كان الهدف زيادة الربح .

**ترى النظرية العالمية الثالثة أن الحل لأي مشاكل اقتصادية يتطلب الأتي : تحرير الحاجات من أي سيطرة خارجية حيث " أن حرية الإنسان ناقصة إذا تحكم إنسان آخر في حاجته ، فالحاجة قد تؤدي إلى استعباد إنسان لإنسان آخر ، و الاستغلال سببه الحاجة ، فالحاجة مشكل حقيقي والصراع ينشأ من تحكم جهة ما في حاجة الإنسان "** . [1]

إن توجه النظرية العالمية الثالثة توجه اشتراكي ، ولكن بشكل مغاير عن الاشتراكية التقليدية ، والاشتراكية الماركسية ، والاشتراكية المطبقة في الدول الغربية . إن اشتراكية النظرية العالمية الثالثة قائمة إنسانيا على تقسيم الثروة على أفراد المجتمع لامتلاكها كحق طبيعي لهم .

في النظام الرأسمالي تكون الملكية فردية أكثر منها جماعية ، وهـــذا الفرد الحرية المطلقة في ملكية الأشياء ، واستثمار هذه الملكية للمصلحة الخاصة في ظل حرية مطلقة يؤدي ذلك إلى النهب . في حين تحمل الاشتراكية الجماهيرية بعداً آخر. فثروة المجتمع ملك لكل الأفراد يديرونها حسب مصلحة الجماعة المتشاركة في إي استثمار .

ومن مقومات هذه الاشتراكية تحويل الأجراء إلى شركاء ، مما أسهم في نقلة نوعية داخل المجتمع الجماهيري .

في حين نشأ النظام الرأسمالي منذ القدم على استغلال العمال لمصلحة أصحاب الطبقة الرأسمالية . وتحويلهم إلى إجراء تستغل جهدهم دون ضمان الحق الطبيعي لهم أو إعطائهم حقوقهم المادية كاملة حسب الجهد المبذول . فعندما تكون القاعدة الرئيسية في النظام الرأسمالي الربح . فطلب هذا الربح يعني زيادة الإنتاج ؛ وفي ذات الوقت تخفيض تكاليف هذا الإنتاج لضمان الربح .

---

1- معمر القذافي : الكتاب الأخضر : حل المشكل الاقتصادي ، مرجع سابق ، ص 89،90

ولعل استخدام الآلة بشكل واسع يؤكد حقيقة الرأسمالية الغربية ، في تسببها بأزمة إنسانية عالمية ( البطالة ) .

كما قلب خطاب الليبرالية الجديدة الهيكل الاقتصادي في أنحاء العالم ، وتأثرت كافة الشعوب بآلية السوق العالمية لهذا الخطاب المعتمد على الرأسمالية كنظام قلب أساس وكيفية الإنتاج والاستهلاك ، وذلك من خلال استخدام وسائل الإعلام للإغراء بالعرض ، وتجاهل قوانين المنافسة الشريفة ، بل وصلت إلى درجة عالية من الوحشية ؛ وكل ذلك لاستهلاك الإنتاج الرأسمالي .

**" وهي بذلك أدت إلى خلق سوق عالمي و حيد يستوعب في داخله وفي آليته الواحدة الشعوب والأقوام الأكثر عزلة وتوحشاً ... وهكذا تسجن الأفراد ضمن قدر أو مصير شبه محتوم . و عندئذ تكون المتغيرات الوحيدة هي تلك التي تفرضها " الآلة " ... إن الغرب إذ دمج مختلف أجزاء العالم في السوق العالمية ، قد أدى إلى ما هو أكثر من تعديل أنماط إنتاجها . فقد دمر نظامها الاجتماعي ... وعندئذ أصبح العامل الاقتصادي حقلاً مستقلاً من حقول الحياة الاجتماعية ، وغاية بحد ذاته " .** (1)

تغنى الخطاب الليبرالي بأهداف إنسانية واقتصادية واجتماعية تحقق الكينونة المرفهة للإنسان، بينما الحقيقة سعت إلى هدف آخر يخدم مصالحها وهو التملك وكيفية تحقق الربح على حساب الآخرين ( المجتمعات النامية ) .

نقد فكر الكتاب الأخضر الرأسمالية في الفصل الثاني حل المشكل الاقتصادي منطلقاً من تحديده لقيمة الإنسان ؛ التي رأت الرأسمالية الغربية أنها تتحدد بما يملك الفرد من ثرو ة حيث **" أن قيمة الإنسان في مجتمع استغلالي متخلف أو تسيطر عليه الرأسمالية والطبقات الاجتماعية الرجعية العملية لها يكون أساسها المال " .** (2)

---

(1) سوج لاتوش : تغريب العالم ، مرجع سابق ، ص 34 .

(2) شروح الكتاب الأخضر : المجلد الأول ، مرجع سابق ، ص 158 .

هكذا تصورت الرأسمالية الغربية الإنسان من خلال قيمة الملكية ، ورأت أنها تتحدد بصورة بحته مادياً ، بما يملك ، وبما يقدم من جهد وإنتاجية ونفعيه .

ولذا نجد المجتمع الرأسمالي يجبر الأفراد على السعي المتواصل لامتلاك القيمة المالية ليحقق القيمة الفردية .

في حين قيمة الإنسان بالنظرية العالمية الثالثة " **إن الفعل الثوري التاريخي الذي هو نقيض التزييف والديماغوجية هو الذي يحقق القيمة الفعلية للإنسان التي تحد من حريته ، وبالتالي تطمس وجوده الفعال** " .[1]

---

(1) المرجع السابق : ص **179** .

## المبحث الثالث : الاجتماعي : بين قوة السيطرة وقوة الحرية : بين المجتمع المبني على العلاقات الحقانية و المجتمع القائم على علاقات القوة والسيطرة .

يتخفى الخطاب الليبرالي وراء تحقيق الكلية الشمولية في المصالح للمجتمعات وذلك من خلال تحقيق مصلحة كل فرد على حده . ولكن هذه الكليانية تأكل الترابط الحميمي بين الناس فيتحولون إلى جمع ملزم بالخضوع لنموذج من الترابط الاجتماعي محكوم بصورة إرادية أو لا شعورية بحسابات المصالح النفعية .

حيث " **إن الجمعانية تترك فراغات حقيقية بين كيانات الأفراد لتتيح لها أن تختار في حدود دنيا تماماً ، إعادة الترابط فيما بينها ، حسب تمحور ليس وحيد ساحته ولا هو ثابت الاتجاه دائماً** " . [1]

فقد طمست العولمة والتحديث هويات الشعوب ، وأصبح الإنسان الكائن الحي الذي كان ينتمي إلى عائلة طبيعية اليوم . بجهول الرابطة الاجتماعية ، والهوية والانتماء؛ وهذا في الحقيقة ما يحمله خطاب الليبرالية الجديدة . فطمس الهوية والرابطة الاجتماعية الطبيعية لدى الإنسان الطبيعي يحقق لها عدم الانتماء وبالتالي عدم الصراع ضدها للمحافظة على القومية التي ينتمي إليها .

إن أفضل إيديولوجية أو خطاب يريد الشمولية يجب أن يتميز بعقلانية اجتماعية ، وغايات علوية لمستقبل تلك المجتمعات ، كما أنه يجب أن يقوم على أيقونة كلية ، ونموذج يحقق غايات الشعوب . " **ولم تستطع حتى الرأسمالية أن تسوق فرادنيتها إلا من خلال حالة جمعانية تربط بين تحقق الذات الفردية ومستوى الرفاه العام بتوسط شعارات حقوق الإنسان ، وهي بنو ثلاثة في معادلة لا تخفي اضطرابها الواضح إلا بمزيد من الإعلام المرآوي الذي تحدثنا عن تفرد سلطانه المضطرد ، حتى يكاد يغدو السلطة الأولى في عالم اليوم** " . [2]

---

(1) مطاع صفدي : لقد الشر المحض بحثاً عن الشخصية المفهومية ، مرجع سابق ، ص **105** .

(2) المرجع السابق : ص **107** .

ينطلق خطاب الليبرالية الجديدة من منطلق الحتمية الصموئيلية وهي اعتبار صدام الحضارات وصراعها مبنيا في الأساس على الهوية الثقافية الحضارية ؛ بل وقد اعتبرها تشكل تماسك المجتمعات وصراعها في عالم اليوم .

لقد عد التاريخ البشري الإنساني تاريخاً للهويات الثقافية ، والحضارات التي تطورت وراء العديد من العوامل . ولعل الهوية الثقافية من أحد أهم عوامل تقدم الشعوب وازدهارها . وقد حددت الحضارات الكبرى المعاصرة بالصينية – اليابانية – الهندية – الإسلامية – الأرثوذكسية – الغربية – الأمريكية اللاتينية . وفق رؤية المفكر صموئيل هنتنغتون .

فهو الذي رأى أن الغلبة على هذه الحضارات تتمثل في الحضارة الغربية ، ولم يقصد هنا غلبة الهوية الثقافية أو التاريخية ؛ أنما قصد القوة والتفوق ( العنف المنظم ) .

إلا أن السياسة العالمية اليوم تتشكل حسب منطق القوة ، والمنفعة ، لذا قامت الإيديولوجيات صاحبة هذا المنطق ( الليبرالية الجديدة ) برفع شعارات واهية ، وذلك لاستقطاب دول إلى جانبها وتلك الدول تنحاز لهذه الإيديولوجيات حسب إدراك مصالحهم، خاصة حيازتها القوة العسكرية ، والتي قد تحتاجها تلك الدول في الدفاع عن مصالحها الاقتصادية والسياسية .

وبالعالم الجديد تعد " **الهوية الثقافية هي العامل الرئيسي الذي يشكل تقاربات الدولة وعداءاتها** " .[1]

إلا أنه ومع ظهور فترة التسعينيات شهد العالم أزمة هوية ، وخاصة بالدول ذات الجماعات الكبيرة صاحبة الهويات المختلفة . وعلى اعتبار " **أن المحرك الإنساني هو العامل الاجتماعي .. أي القومي** ". [2]

---

(1) صموئيل هنتنغتون ، صدام الحضارات ، مرجع سابق ، ص **237**.

(2) معمر القذافي : الكتاب الأخضر : الركن الاجتماعي للنظرية العالمية الثالثة ، مرجع سابق ، ص **115** .

فإن العالم المعاصر يمر بإحدى دورات حركة التاريخ الطبيعية ، وهي الصراع القومي انتصاراً للقوميات التي ينتمون إليها ؛ وذلك لأن القومية هي الأساس في بقاء الأمم ، وما الأقليات الموجودة في العالم اليوم إلا قوميات تمزقت داخلها الروابط الاجتماعية . لذا دافع عنها الكتاب الأخضر في ركنه الاجتماعي" **هذه الأقلية لها حقوقها الاجتماعية الذاتية... أن النظر إلى الأقلية على أنها أقلية من الناحية السياسية والاقتصادية هو دكتاتورية وظلم** ". [1]

كما أن العامل القومي ( الرابطة الاجتماعية ) للجماعات ذات القومية الواحد تعمل تلقائياً من أجل البقاء .

لقد اتسمت النظرية العالمية الثالثة برؤية ذات بعد اجتماعي طبيعي وفق حركة التاريخ والتطور الإنساني ، ويرى فكر النظرية أن المحرك للتاريخ هو العامل الاجتماعي ، وعليه يكون العامل الاجتماعي هو العامل القومي . فالعلاقات الاجتماعية بين الأفراد والمجتمع تعتمد العامل الاجتماعي الذي يسهم في تكون العلاقات بين أفراد الأمة .

والكتاب الأخضر يعتبر أن الأساس الذي أنشأ القوم هو القومية ، و إي نظام يجب أن يوازي نشؤ القوم ؛ والعلاقات بين الأفراد داخل المجتمع تخلق التضامن الاجتماعي .

لذا فإن النظرية العالمية الثالثة تؤكد على ضرورة التغيير ويرى " **أن حركة التغيير ... لابد أن يسبقها حركة هدم للأعمدة والركائز التي يستند إليها المجتمع القديم. ومن ثم يستطيع المجتمع أن يؤسس المجتمع الجديد ، على علاقات اجتماعية تختلف اختلافاً جذرياً عن علاقاته الاجتماعية القديمة** " . [2]

ولعل خطاب التعددية التي تنادي به الليبرالية الجديدة ؛ يصور نفس الاتجاه الأخير للإنسانية . كون استحالة تحقق التعددية في مجتمعات ذات الترابط الديني الواحد ( الإسلام ) فلن تحقق التعددية بالديانة الإسلامية ، وذلك لحتمية التصادم في ما بينها ، وذلك من خلال محاولة كل طرف تأكيد مشروعيته وأيديولوجيته .

---

(1) المرجع السابق : الكتاب الأخضر الركن الاجتماعي للنظرية العالمية الثالثة ،ص 175،176 .

(2) شروح الكتاب الأخضر المجلد الثالث ، الطبعة الرابعة (المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر . طرابلس . الجماهيرية 1429 ) ص 16 .

غير أن " الهويات المتعددة تتلاشى والهوية ذات المعنى بالنظر إلى الصراع تصبح هي المسيطرة ، هذه الهوية تتحدد دائماً تقريباً بالدين " .[1]

إلا أن ما يقوم به الخطاب الليبرالي في ظل هذه الأوضاع الوقوف وراء العديد من الاتجاهات الدينية الجديدة داعمة لها بشتى الطرق من أجل طرح فكرة أن لكل فرد الحق والحرية في اتخاذ الديانة والمعتقد والطائفة التي يريد .

وفي المجتمعات الإسلامية بالذات لن يكون ذلك متوافق مع الهوية والديانة الإسلامية لأنه سيكون غير سليم فالإسلام كديانة " كان دائماً منطقياً مع نفسه عندما صعد نظام الإحالات إلى ما هو فوق إرادات الأفراد جملة تفصيلا ؛ فأقام الفصل بين المفارقة والمحايثة انطولوجيا ؛ ولكنه في الآن نفسه أعاد الاتصال بينهما أخلاقياً فحسب . إذا عندما يفري إلى الحكم كينونة مفـــارقة مختلفة، فإنه يتم إتباع ودعم نظام الإحالات بمبدأ الضمانة العلوية الميتافيزيقية التي تكفي في حد ذاتها،حسب منطق التسليم بإرادة الواحد الخلاق ".[2] فأخلاق هذا الدين لا تختلف مع تعاليمه الميتافيزيقية ، بل تتلاءم القيم الميتافيزيقية؛ مع القيم الواقعية للإنسان المسلم .

ولعل ما جاء به الركن الاجتماعي للكتاب الأخضر ، يحقق مبدأ التعددية من الناحية الدينية حيث أن " القاعدة السليمة هي أن لكل قوم ديناً ، والشذوذ هو خلاف ذلك . والشذوذ هذا خلق واقعاً غير سليم صار سبباً حقيقياً في نشوب النزاعات داخل الجماعة القومية الواحدة . وليس من حل إلا الانسجام مع القاعدة الطبيعية التي هي لكل أمة دين حتى ينطبق العامل الاجتماعي مع العامل الديني فيحصل الانسجام ، وتستقر حياة الجماعات وتقوى وتنمو نمواً سليماً " .[3]

---

(1) صموئيل هنتنغتون ، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي الجديد ، مرجع سابق ، ص 237.

(2) مطاع صفدي : نقد النثر المحض ، مرجع سابق ، ص 106 .

(3) معمر القذافي : الكتاب الأخضر : في الركن الاجتماعي ، مرجع سابق ، ص 121 .

اثبت الكتاب الأخضر في ركنه الاجتماعي الطابع الإنساني العادل والحميمي للعلاقات الإنسانية والاجتماعية ؛ والذي يحقق غايات الشعوب ما يجعل الشعوب تصل إلى مستوى راقٍ من الحياة الاجتماعية .

تجلى ذلك في ( الأسرة ، والقبيلة ، والقومية ، والأمة ) . فالفرد ينمو داخل الأسرة نمواً طبيعياً ؛ **" والأسرة هي مهده ومنشؤه ومظلته الاجتماعية "** .[1]

ولعل الترابط الذي يتوزع بين الأسرة و القبيلة ،ومن ثم القومية والأمة يحقق للمجتمعات المنافع والقوة على كافة المستويات السياسية ، الاقتصادية ، والاجتماعية.

**" ولذا من المهم جداً للمجتمع الإنساني أن يحافظ على التماسك الأسري والقبلي والقومي و الأممي . ليستفيد من المنافع والمزايا والقيم والمثل التي يوفرها الترابط والتماسك والوحدة والألفة والمحبة الأسرية والقبلية والقومية والإنسانية "** .[2]

**" الثقافة الغربية تتحداها جماعات في المجتمعات الغربية ... يأتي من المهاجرين من حضارات أخرى والذين يرفضون الاحتواء ومستمرون في الارتباط مع قيم وعادات وثقافات مجتمعاتهم ، هذه الظاهرة أكثر وضوحاً بين المسلمين في أوربا، ولكن هم أقلية صغيرة ، وكذلك تظهر بدرجة أقل بين الأسبان في الولايات المتحدة والذين يشكلون أقلية واسعة "** .[3]

فالخطاب الليبرالي الجديد القائم على التعددية الثقافية ، والتي شجعت التنوع والتعدد تقف اليوم في مأزق اعتبره الآباء المؤسسون أمثال بنجامين فرانكلين ، وتوماس جفرسون ، وجون آدم ، مشكلة حقيقية وذلك لعدم المساواة العنصرية والدينية والاقتصادية والثقافية .

لذلك **" حذر تيودور روزفلت من التعدد المبالغ فيه لما يمكن أن يكون من له تأثير على المجتمع الأمريكي "** .[4]

---

(1) المرجع السابق : الكتاب الأخضر ، في الركن الاجتماعي ، ص **125** .

(2) المرجع السابق : ص **132،133** .

(3) صموئيل هنتنغتون:صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي الجديد، مرجع سابق ، ص **508** .

(4) المرجع السابق : ص **510** .

كما رأى جيمس كروت بأن الصدام الحقيقي سيكون بين الداعين للثقافات المتعددة من جهة ، والمدافعين عن العقيدة الأمريكية من جهة أخرى . فأمريكا في الحقيقة ليست لها هوية ثقافية أصيلة .

إن الدعوة لتبني الخطاب الليبرالي الجديد ومبدأ التعددية يحقق مساعي الغرب في فرض ثقافته على العالم ، فهو بهذا يحقق الانتشار السريع وذلك من خلال سيطرته التامة على كافة وسائل الاتصالات العالمية . والاقتصاد العالمي ، وصندوق النقد الدولي، والقوة العسكرية الخطيرة .

إن النظرية العالمية الثالثة تؤخذ في صورتها النهائية كوحدة واحدة ، لا يفصل فيها فصل عن آخر ، ولكن كل فصل يوضح الأركان القائمة تحت عنوانها، ولا تنفصل محتويات الفصول عن بعضها بعضاً ؛ وإنما تشكل تماسك البناء . **" هذا البناء هو البناء الديمقراطي بمختلف جوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية "** . [1]

وبهذا قدمت النظرية العالمية الثالثة الحل الحقيقي لجماهير الأرض، وبما أن الغاية النهائية للحياة هي أن يكون الإنسان حراً سعيداً . فهذه الغاية كانت دائما الرسالة التي يحملها الكتاب الأخضر إلى شعوب الأرض .

إن النظرية العالمية الثالثة تنطوي على بعد فلسفي عميق يؤسس لأفق معرفي منفتح على التجدد والاغتناء الدائمين ، ليس فقط لأنه ضد جميع أشكال التعسف التي يمكن أن يواجهها الكائن الإنساني على صعيد المعيشة ، سواء أكان تعصباً طائفياً أم أيديولوجيا أو أثنياً ، بل لأنه أيضاً ( وهو الأهم ) بموضع الحقيقة في الإنسان ، وهذا هو الأفق الأنطولوجي للمعرفة الأصيلة . من هنا أكد الكتاب الأخضر أن المعرفة الحقيقية لا تكون إلا عندما تتحقق **" لكل إنسان بالطريقة التي تناسبه "** .[1]

وهذا الإنسان يكون حراً لا تستعبده حاجاته المادية ولا قوى طبقية أو معارف أيديولوجية .

---

(1) محمد لطفي فرحات : الحقوق الطبيعية للإنسان .الطبعة الأولى .( منشورات المركز العالمي لدراسات و أبحاث الكتاب الأخضر . طرابلس . الجماهيرية . **1427** م ) .ص **13** .

(2) معمر القذافي : الكتاب الأخضر ، مرجع سابق ، ص **186** .

إنه شفاف حتى السريرة منه ، وخفيف وحر " **في التعبير عن نفسه حتى لو تصرف بجنون ليعبر عن أنه مجنون** " .[1] وبهذا يحدد الكتاب الأخضر المعنى الأصيل للمعرفة .

فالمعرفة هي الحصيلة التركيبية الروحية للتجارب التفكيرية التي يعيشها الإنسان ، فهي المادة التي تشتغل بها الحقيقة لتكون مفهمة لمعنى العالم . وهي لا يمكن أن تتجلى بدون اللغة أو العبارة التي تنصها ، لذلك لا انفكاك للحقيقة عن سكنها في نسيج اللغة ، ووجود اللغة لا ينفك عن وجود الإنسان في العالم ، وهذا هو البعد الانطولوجي المحايث للمعرفة والحقيقة .

إذن ، لا قيمة للمعرفة إن لم تكن متصلة بالإنسان ومناسبة له ، ولا وجود لها إن لم تكن نابعة من وجوده . هذا هو المعنى الأصيل للوجود الحقيقي ، كما تحدده النظرية العالمية الثالثة ، الذي يتجاوز المذاهب الفلسفية التقليدية والليبرالية فيما يخص المعرفة والحقيقة والإنسان .

---

(1) المرجع السابق : الكتاب الأخضر ، ص 67 .

# الخاتمة

جاءت الليبرالية الجديدة في إطار التحولات المادية والثقافية الهائلة ، في نهايات النصف الأول من القرن العشرين لتعطي صورة جديدة للإنسان والاجتماع والثقافة ، و الاقتصاد عالمياً .

إلا أنها حملت خطاباً إيديولوجياً مدعوماً من القوة الاقتصادية والسياسية ، الاستعمارية الامبريالية ، وذلك لفرض خطابها على شعوب العالم من خلال عدة مسميات التقنية والتكنولوجيا ، الحداثة ، والعولمة ، والحرية ...الخ .

وباعتبارها المآل التاريخي الأخير للحضارة الإنسانية كما يدعي فوكوياما ، فقد جددت الخطاب الفكري والثقافي والسياسي لليبرالية الكلاسيكية . بعد أن خلصتها من طابعها الإيجابي " التقدمي " تاريخياً ، فأصبحت صورة مشوهة عنها ، لكي تأخذ قواماً فلسفياً مختلفاً فيما يخص المعرفة والسياسة والاجتماع .

أما فيما يخص عالمنا العربي ، فإن طابعها لا يمت بصلة لهويتنا العربية الإسلامية . إن الحرية الحقيقية هي الممارسة الفعلية والواقعية للحقوق الإنسانية الطبيعية على أن تحقق السعادة للفرد والمجتمع على السواء ، و لا تسبب الضرر للآخرين . ولكي تتحقق هذه السعادة الإنسانية ؛ يجب على العالم العربي أن يعيد بناء فضائه الثقافي بحيث يأخذ المستجدات العالمية بعين الاعتبار ، ويقيم موقفاً نقدياً من الخطاب الثقافي الغربي . وذلك في إطار خطاب تقدمي إنساني يضمن تنمية مادية وروحية حقيقيتين لعالمنا العربي ؛ خطاب قائم على أسس أصيلة نابعة من وجودنا الواقعي سياسياً واقتصادياً وثقافياً .

لان الخطاب الغربي الليبرالي الجديد هو محاولة لتجديد الاستعمار . وطمس الهوية العربية الإسلامية من خلال جاهزية معرفية تمتلك ديناميات تعطيل عملية التنمية والتقدم ، ما يبقي العالم العربي في حالته المتخلفة .

ومن خلال ما عرض بهذه الأطروحة يمكن استخلاص الآتي :

- من خلال المقاربة الفلسفية لخطاب الليبرالية الجديدة يتضح لنا بأنه ليس سوى إعادة تبني خطاب الليبرالية الكلاسيكية القديمة بطرق و وسائل جديدة .

- وإنه خطاب استعماري توليتاري يسعى من خلال شعارات الحرية وحقوق الإنسان للسيطرة على العالم ، والعالم العربي بالتحديد .

- كما فشل هذا الخطاب في تحقيق الديمقراطية الغربية الليبرالية بصورة سلمية ، وتبنى القوة والحرب والاستعمار لفرض هذا النظام الزائف .

- تسببت الليبرالية الجديدة بأزمات حقيقية للإنسان الكائن الحي ، والفكر ، والاقتصاد، والسياسة . وفشلت في تحقيق سعادة الفرد ورفاهيته .

- كما اتضح لنا أن الحل الحقيقي لمشاكل الإنسان المعاصر ؛ تكمن في توجهات فكر النظرية العالمية الثالثة . فكر المفكر معمر القذافي . الكتاب الأخضر بجوانبه الثلاثة : السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

. . .

# المصادر والمراجع .

## أولاً : المصادر : .


1- ابن المنظور الأفريقي المصري ( أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكارم ) – **لسان العرب** : – المجلد الرابع – دار صادر – بيروت .

2- اندريه لالاند : **موسوعة لالاند الفلسفية** – منشورات عويدات – الطبعة الأولى – المجلد الثاني –بيروت – باريس – سنة 1996.

3- السجل القومي : **بيانات وخطب وأحاديث العقيد معمر القذافي** – المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر – المجلد السنوي الثالث والثلاثون طرابلس . الجماهيرية – 2002/2001 .

4- عبد الوهاب الكيالي وآخرون : **الموسوعة السياسية** – المؤسسة العربية لدراسات النشر – الجزء الخامس – الطبعة الثانية – سنة 1990

5- المفكر معمر القذافي : **الكتاب الأخضر** – منشورات المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر – الطبعة السادسة والعشرون – طرابلس .الجماهيرية العظمى – 1999.

6- **الموسوعة الفلسفية العربية** : معهد الإنماء العربي – المجلد الثاني – الطبعة الأولى – سنة 1988 .

## ثانياً : المراجع العربية والمترجمة :


7- آلفن توفلر: **حضارة الموجة الثالثة** – ترجمة عصام الشيخ قاسم – الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان – الطبعة الأولى –مصراتة – الجماهيرية – 1990 .

8- آلفن توفلر : **تحول السلطة بين العنف والثروة والمعرفة** – تعريب فتحي بن شتوان و نبيل عثمان – دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان – الطبعة الأولى –1992 .

9- أرنست بلوخ : **فلسفة عصر النهضة** – ترجمة اليأس مرقص – دار الحقيقة للطباعة والنشر – الطبعة الأولى – بيروت –1980.

10- انطواني مقدسي : **الثقافة والإبداع** – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – بدون طبعة – تونس – 1992 .

11- ايزايا برلين : **حدود الحرية** – ترجمة جمانا طالب – دار الساقي – الطبعة الأولى – بيروت – لبنان – 1992 .

12- السيد يس : **العولمة والطريق الثالث** – ميريت للنشر والمعلومات – بدون طبعة – القاهرة – 1999 .

13- بول ريكو : **محاضرات في الايدولوجيا و اليوتوبيا** – ترجمة فلاح رحيم – دار الكتاب الجديدة المتحدة – بدون طبعه – بيروت – بدون تاريخ.

14- جماعة من العلماء السوفيات : **الفلسفة الماركسية في القرن التاسع عشر** – ترجمة حسان حيدر – دار الفارابي – الجزء الأول – الطبعة الأولى – بيروت . لبنان – 1990 .

15- جيل دولز : **فلسفة كانط النقدية** – تعريب أسامة الحاج – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر – بدون طبعة – بيروت – 1997 .

16- حازم الببلاوي : **النظام الاقتصادي الدولي المعاصر من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى نهاية الحرب الباردة** – المجلس الوطني للثقافة والفنون – مجلة عالم المعرفة – بدون طبعة – الكويت – العدد 257 – مايو/أيار – 2000 .

17- حسن حنفي و صادق جلال العظم: **ما العولمة** – دار الفكر المعاصر – الطبعة الثانية – بيروت . لبنان – 2002 .

18- حسن محمد حسن : **النظرية النقدية عند هربرت ماركيوز** – دار التنوير للطباعة والنشر – الطبعة الأولى – بيروت لبنان – 1993 .

19- رجب بودبوس : **نقد العقل الاقتصادي** – دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان – الجزء الأول – الطبعة الأولي – مصراتة – ليبيا – 2000 .

20- رجب بودبوس : **نقد العقل الاقتصادي " والاجتماعية , والاشتراكية "** - المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر أكاديمية الفكر الجماهيري – الطبعة الأولي – طرابلس – الجماهيرية – 2003 .

21- زكي الميلاد: **المسألة الحضارية "كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير"**- المركز الثقافي العربي – الطبعة الأولي - بيروت – لبنان - 1999.

22- شارل فوفر : **الفلسفة اليونانية** – ترجمة تيسير شيخ الأرض – دار الأنوار - بدون طبعه – بيروت – 1968 .

23- **شروح الكتاب الأخضر : المجلد الأول** - المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر - الطبعة السادسة - طرابلس . الجماهيرية - 1429 م .

24- **شروح الكتاب الأخضر المجلد الثالث** - المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر - الطبعة الرابعة - طرابلس . الجماهيرية – 1429 م .

25- صالح السنوسي: **العرب من الحداثة إلي العولمة** – دار المستقبل العربي – الطبعة الأولي – مصر الجديدة – القاهرة – 2000 .

26- صموئيل هنتنغتون : **صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي** – ترجمة مالك عبيد أبو شهيرة و محمود محمد خلف – الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان – الطبعة الأولي –مصراتة – الجماهيرية - 1999.

27- عادل احمد حشيش : **تاريخ الفكر الاقتصادي** – « **دراسة انتقائية – انتقاديه** » دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بدون طبعة – بيروت – 1974 .

28- عبد الباسط عبد المعطي : **العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربي** – دار الكتاب الجديدة المتحدة – توزيع دار أوبا للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى – بيروت – طرابلس . الجماهيرية – 2000 .

29- فرنسيس فوكوياما ، **نهاية التاريخ والإنسان الأخير**- ترجمة مجموعة باحثين - مركز الإنماء القومي – بدون طبعة - بيروت - 1993 .

30- كريم متي : **الفلسفة الحديثة** – دار الكتاب الجديدة المتحدة – الطبعة الثانية – بيروت – لبنان – 2001 .

31- مارتن هيدجر : **معضلة الحقيقة** - الدار التونسية للنشر - تونس - 1986 .

32- مالكم برادبري وجيمس ماكفارلن : **الحداثة** – ترجمة مؤيد حسن فوزي – وزارة الثقافة والأعلام – بدون طبعة – بغداد - 1987 .

33- مجموعة الباحثين :**ندوة الفكر السياسي المعاصر " الديمقراطية : المفهوم والممارسة "** منشورات المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر - الطبعة الأولى– الجماهيرية - 1996.

34- مجموعة باحثين : **تطور الفكر السياسي** – المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر – الطبعة الرابعة – طرابلس . الجماهيرية - 1996 .

35- مطاع صفدي : **نقد الشر المحض " بحثاً عن الشخصية المفهومية للعالم "** – مركز الإنماء القومي – الطبعة الأولى – بيروت/باريس – 2001 .

36- مقداد نديم عبود : **بين القطيعة والخلق ( الحقيقة في الخطاب العربي المعاصر)** – دار الحداثة – بيروت – 1999 .

37- ميشال آلبير : **تناطح الرأسماليات في ظل النظام العالمي الجديد " الرأسمالية تناطح الرأسمالية** – دار الحمراء للطباعة والنشر – الطبعة الأولى – بيروت – 1996 .

38- ميشيل فوكو : **حفريات المعرفة** – ترجمة سالم يفوت – مركز الإنماء القومي – الطبعة الثانية – دار البيضاء – بيروت – 1987 .

39- هانز جورج غادامير : **بداية الفلسفة** – دار الكتاب الجديدة المتحدة – بدون طبعة – بيروت – 2002 .

40- هربرت ماركيوز : **الإنسان ذو البعد الواحد** – ترجمة جورج طرابيشي – دار الآداب – الطبعة الثالثة –بيروت .لبنان – 1988 .

41- يعقوب ولد سالم : **الحداثة في فلسفة هيجل** – مركز الكتاب والنشر - الطبعة الأولى – القاهرة – مصر - 2003 .

42- يوسف كرم : **تاريخ الفلسفة اليونانية** – دار القلم – بدون طبعة - بيروت – بدون تاريخ .

43- يوسف كرم : **تاريخ الفلسفة الحديثة** – دار المعارف – الطبعة السادسة – القاهرة – مصر – بدون تاريخ .

**ثالثاً : المجلات والدوريات :**

44- انطواني جيدنجز : " **بعيداً عن اليسار واليمين – مستقبل السياسات الراديكالية** " ترجمة شوقي جلال – سلسلة عالم المعرفة – العدد 286- أكتوبر – 2002 .

45- السيد يس : **في مفهوم العولمة** – المستقبل العربي – بيروت – العدد 2/228 – 1998 .

46 - تركي الحمد : " **الدولة والسيادة في عصر العولمة** " - مجلة العربي . الكويت - العدد 494 - يناير 2000 .

47- جراهم طومسون : **تحديد موقع العولمة** – ترجمة بهجت عبد الفتاح – مركز مطبوعات اليونسكو – المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية – العولمة – القاهرة – العدد 160 – يونيو 1999 .

48- حافظ إسماعيلي : **اللسانيات البنيوية** – مركز الإنماء القومي – مجلة الفكر العربي المعاصر – العدد 125\124 .

49- فتحي المسكيني : **حديث القيامة بين " الجليل " و " الهائل "** – مجلة الفكر المعاصر- مركز الإنماء القومي – بيروت / باريس- العدد 125/124- 2002 .

50- فتحي المسكيني : **فلسفة الإله الأخير: هيدغر أمام هيغل** – مجلة الفكر العربي المعاصر – مركز الإنماء القومي – العدد 127/126- الصيف .خريف 2003 .

51- محمد عابد الجابري : **عشر أطروحات " العولمة والهوية الثقافية** – مجلة المستقبل العربي – بيروت – العدد 1998-2/228 .

52- محمود فايد : **نحن والعولمة** – مجلة آون – العدد الثاني – جامعة عين شمس – القاهرة – ديسمبر 1999 .

53- مطاع صفدي : **المقدمة في نظرية القطيعة الكارثية II** – مجلة الفكر العربي المعاصر – العدد 125/124- مركز الإنماء القومي – بيروت .باريس – سنة 2002.

54- مقابلة للحبيب الجناحني : **عن كتاب العولمة من منظور عربي** – مجلة العربي – العدد 522/مايو – 2002 .

55- يحي الجمل: " الحرية في المذاهب السياسة المختلفة " - بدون طبعه – مجلة الفكر – المجلد الأول – العدد الرابع – بدون تاريخ .

## رابعاً : شبكة المعلومات الدولية :

56- سلامة كيله : " ملخص الفصل السادس من كتاب العولمة الراهنة : آليات إعادة إنتاج النمط الرأسمالي العالمي " – مجلة البديل – 17/أيار – سنة 2005 – الانترنت.

57- مقال أصوت الشعب – العدد 225- 23 ديسمبر – سنة 2003 – الانترنت Mailto:pcot@albadil.org .

58- مقال عزت إبراهيم : ( الانترنت ) ، مجلة الأهرام مصر 2005/3/23 ف .

## خامساً : المراجع الأجنبية :

59- Webesteres: New World Dictionary . Third College Edition